[redacted]



إرنستو تشي غيفارا

يوميات دراجة نارية

رحلة في أميركا اللاتينية

ترجمة: صلاح صلاح

[redacted]

أرنستو تشي غيفارا

استهلال

تضيف هذه السلسلة إلى المشروع الجغرافي العربي "ارتياد الآفاق" فضاء جديداً يساهم في بلورة الأفق الذي تتطلع إليه. وإذا كان الانشغال الأساسي للمشروع منذ البداية بالمؤلفات التي وضعها الرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون لما أصاب هذا الأدب من إهمال كبير على مدار الأزمنة الحديثة، فإن ذلك لم يمنعنا من التفكير بأدب الرحلة المكتوب باللغات الأخرى بصفته نتاجاً إنسانياً، ولا جعلنا ننطوي على ما حققته الثقافة العربية من إنجازات طوال 10 قرون من النشاط المبدع في هذا الميدان، على رغم ثراء التجربة الجغرافية العربية. فليس من الحكمة في شيء عزل المكتبة الجغرافية العربية عن شقيقاتها في اللغات الأخرى، وهو ما حدا بنا إلى التفكير بصورة مركزة، ومن ثم العمل على اختيار أعمال تنتمي إلى أدب الرحلة العالمي ذات قيمة استثنائية إن في اللغة التي كتبت بها، أو في العصر الذي ظهرت فيه.

يوميات تشي غيفارا هذه يطبعها سحر خاص، شخصية ملأت القرن العشرين وفاضت أطيافها على الألفية الثالثة. مثال إنساني وكفاحي مضيء لكل الأزمنة. هذه اليوميات التي كتبها تشي غيفارا خلال رحلة في أرجاء أميركا اللاتينية سنة 1952 قطع

خلالها مع صديقه ألبرتو غرانادو على دراجة نارية 4500 كيلومتر، كانت البوابة التي ولج منها الطبيب الأرجنتيني الشاب غيفارا إلى فضاء أميركا اللاتينية، وصولا إلى "سرة العالم" – عاصمة الأنكا، ليعود من هناك بالشعلة التي صهرت روحه النقية ومزجتها بآلام شعوب القارة المنهوبة وتطلعاتها، بدءا من تاريخ الإبادات الجماعية التي ارتكبتها غزوات الرجل الأبيض، وانتهاء بالأمل الإنساني المعذب.

هذه الرحلة هي التي وضعت غيفارا على الطريق التي اختار، طريق الفداء. وعلى درب العودة إلى غرناطة الأرجنتين من رحلته اللاتينية، كتب إرنستو تشي غيفارا، بينما هو يحتفل بعيد ميلاده الرابع والعشرين: "علمت أنه حين تشق الروح الهادية العظيمة الإنسانية إلى شطرين متصارعين، سأكون إلى جانب الشعب. أعلم هذا، أراه مطبوعاً في سماء الليل، أرى نفسي قرباناً في الثورة الحقيقية، المعادل العظيم لإرادة الأفراد. أشعر أن أنفي يتسع ليستنشق الرائحة اللاذعة للبارود والدم وموت العدو. أفعم جسدي بعزم فولاذي، وأعد نفسي للمعركة...".

هل نستطيع قراءة يوميات تشي غيفارا الشاب، بعيدا عن صورة الأسطورة التي تخطت الزمن بإنسانيتها المذهلة وكفاحيتها العظيمة؟

رحلة غيفارا في أمريكا اللاتينية تكشف مبكراً عن شخصيته الفريدة كحالم وثائر وصاحب قضية إنسانية، وهي بالتأكيد عمل أدبي ملهم.

محمد أحمد السويدي

مدخل

حين قرأت هذه اليوميات أول مرة، لم تكن قد وضعت في شكل كتاب بعد، ولم أعرف الشخص الذي كتبها. كنت آنذاك صغيرة وتماهيت مباشرة مع ذلك الرجل الذي سرد مغامراته بطريقة تلقائية كهذه. بدأت، بطبيعة الحال، وأنا مستمرة في القراءة أرى من كان هذا الشخص بوضوح أكثر، ولكم سررت لأني ابنته.

لا أهدف إخباركم أي شيء عما ستكتشفونه في هذه القراءة، غير أن الشك لا يراودني أنكم عندما تنتهون من الكتاب ستودون العودة إليه للاستمتاع ببعض القطع ثانية، إما لجمال ما تصفه أو لكثافة المشاعر التي تتضمنها.

كانت هناك حتى لحظات عندما حللت مكان جرانادو فعلياً على الدراجة النارية وتشبثت بظهر أبي، مسافرة معه فوق الجبال وحول البحيرات. أعترف أني تركته يخلو بنفسه في بعض المناسبات، خاصة في تلك اللحظات التي يصف فيها بدقة كيف يقوم بأمور لا أتكلم فيها قط. عندما يفعل ذلك، يكشف مع ذلك ثانية كم كان أميناً وغير تقليدي.

صدقاً، ينبغي القول إني كلما قرأت أكثر، كلما أحببت الفتى الذي كان عليه والدي. لا أدري إن كنتم ستشاركونني تلك المشاعر، لكني كنت أتعرف أثناء قراءتي على الشاب إرنستو بشكل أفضل: إرنستو الذي غادر الأرجنتين تواقاً للمغامرة وأحلامه بما سيقوم به من

أعمال عظيمة، والشاب اليافع الذي، وهو يكتشف واقع قارتنا، استمر في النضوج كمخلوق بشري متطوراً إلى مخلوق اجتماعي.

ببطء نرى كيف تغيرت أحلامه وطموحاته. تعاظم وعيه بألم الآخرين وكيف سمح له أن يصبح جزءاً منه.

الشاب اليافع الذي نبتسم في البداية بسبب لا معقوليته وجنونه، يصبح أمام أنظارنا بالغ الحساسية حين يروي لنا عن عالم أمريكا اللاتينية المعقد الفطري، عن فقر أهلها والاستغلال الذي يتعرضون له. بالرغم من كل ذلك، لا يفقد قط روحه الفكاهية التي تصبح أرفع وأكثر حذقاً.

أبي (هذا الرجل الذي كان) يرينا أمريكا اللاتينية التي قلة منا تعرفها، ويصف مناظرها الطبيعية بكلمات تلون كل صورة لتصل حواسنا، حتى يمكننا أن نرى الأشياء كما شهدتها عيناه.

نثره مفعم بالحياة. يستخدم كلمات تسمح لنا بسماع أصوات لم نسمعها من قبل، يضعنا في أجواء أدهشت وجوده الرومانسي بجمالها وفجاجتها، مع ذلك لا يتخلى قط عن رقته حتى حين يصبح صارماً في توقه الثوري القوي. ينمو في وعيه إدراك أن ما يحتاجه الفقراء ليست معرفته العلمية كطبيب، بل قوته ومثابرته في محاولة إحلال تغيير اجتماعي قد يمكنهم من العيش بالكرامة التي سلبت منهم وسحقتهم لقرون.

يرينا هذا المغامر الشاب بعطشه للمعرفة ومقدرته العظيمة على الحب كيف يمكن للواقع إذا فسر بشكل سليم أن يخترق الإنسان إلى درجة تغيير طريقة تفكيره أو تفكيرها.

اقرأ يومياته هذه التي كتبت بكثير من الحب والبلاغة والأمانة. تشعرني هذه اليوميات أكثر من أي شيء آخر بالاقتراب من والدي. أتمنى أن تستمتعوا بها وأن تمكنكم من الترحال معه في رحلته.

إذا سنحت لكم الفرصة يوماً للسير فعلاً على خطواته، ستكتشفون بحزن أن كثيراً من الأمور بقيت على حالها دون تغيير أو حتى أصبحت أسوأ، وهذا تحدّ للذين يتحلون منا، مثل هذا الشاب الذي أصبح بعد سنوات تشي، بحسّاسية إزاء الواقع الذي يسيء معاملة أكثر التعساء بيننا، الملتزمين بالمساعدة لخلق عالم أكثر عدلاً.

سأترككم الآن مع الرجل الذي عرفته، الرجل الذي أحببته حباً جما لقوته ورقته التي أظهرها في طريقة عيشه.

استمتعوا بالقراءة! ودوماً إلى الأمام!

أليدا جيفارا مارش

يوليو 2003

مقدمة الطبعة الأولى

تروي يوميات رحلة إرنستو جيفارا، المدونة من طرف أرشيف تشي الشخصي، التجارب والمغامرة المتعاقبة والرائعة لرحلة اكتشاف شاب عبر أمريكا اللاتينية. بدأ إرنستو كتابة هذه اليوميات عندما شرع في ديسمبر/كانون الأول 1951 مع صديقه ألبيرتو جرانادو في رحلتهما التي انتظراها طويلاً من بيونس آيرس هبوطاً على ساحل الأرجنتين الأطلسي، وعبر بامبا وخلال الأنديز وصولاً إلى تشيلي، ومنها شمالاً إلى بيرو وكولومبيا وأخيراً كاراكاس.

أعيد تدوين هذه التجارب لاحقاً من قبل إرنستو نفسه كراوٍ يقدم للقارىء رؤية أعمق في حياة تشي، خاصة في مرحلة ليست معروفة كثيراً، وليكشف تفاصيل عن شخصيته وخلفيته الثقافية ومهارته السردية – أسلوب نشأ ليتطور في كتاباته اللاحقة. يمكن للقارىء أن يشهد أيضاً التغير غير العادي الذي يحدث له وهو يكتشف أمريكا اللاتينية، ويلج إلى صميم قلبها ويطور حساً متنامياً بهوية أمريكا اللاتينية تجعله نذير التاريخ الجديد لأمريكا.

أليدا مارش 1993

أرشيف شي الشخصي

هافانا، كوبا

إرنستو تشي جيفارا

تعريف به وموجز وقائع حياته

I

ولد إرنستو جيفارا دي لا سيرنا، أحد أيقونات القرن وفق اختيار مجلة تايم، في روزاريو، الأرجنتين يوم 14 يونيو/حزيران 1928. قام بعدة رحلات في أمريكا اللاتينية خلال دراسته في بيونس آيرس وبعد تخرجه مباشرة من دراسة الطب، بما في ذلك رحلة 1952 مع ألبيرتو جرانادو، على دراجة نورتون النارية التي لا يعتمد عليها والموصوفة في يوميات هذه الرحلة.

كان قد اندمج في النشاط السياسي ويعيش في جواتيمالا عندما أطيح في العام 1954 بحكومة خاكوبو أربينيز المنتخبة إثر عملية عسكرية أشرفت عليها وكالة المخابرات الأمريكية. هرب إرنستو إلى المكسيك وقد أصبح في غاية الراديكالية.

إثر اتصال جرى في جواتيمالا، بحث جيفارا عن جماعة كوبية ثورية منفية في مكسيكو سيتي. في يوليو/تموز 1955 قابل فيديل كاسترو وانضوى في الحال في حملة حرب العصابات للإطاحة بالديكتاتور الكوبي باتيستا. أطلق عليه الكوبيون اسم "تشي" لقب شائع الاستخدام في الخطاب في الأرجنتين.

في 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1956، أبحر جيفارا إلى كوبا على متن اليخت "جرانما" كطبيب لمجموعة حرب العصابات التي أطلقت شرارة النضال الثوري المسلح في جبال سييرا مايسترا الكوبية. في غضون أشهر أصبح أول ضابط جيش متمرد رغم استمراره في إسعاف الجرحى من المقاتلين والجنود الأسرى من جيش باتيستا.

في سبتمبر/أيلول 1958، لعب جيفارا دوراً حاسماً في الهزيمة العسكرية لباتيستا بعد قيادته وكاميلو سيينفويغوس طوابير مقاتلي رجال العصابات صوب الغرب من سييرا مايسترا.

بعد هرب باتيستا في يناير/كانون الثاني 1959، أصبح جيفارا قائداً رئيساً في الحكومة الثورية الجديدة. في البدء كرئيس دائرة التصنيع في المؤسسة الوطنية للإصلاح الزراعي، ثم وزير الصناعة. كما كان القائد المركزي للمنظمة السياسية التي أصبحت في العام 1965 الحزب الشيوعي الكوبي.

بالإضافة إلى هذه المسؤوليات قام جيفارا بتمثيل الحكومة الكوبية الثورية في العالم، وترأس وفوداً عدة وتكلم في الأمم المتحدة ومنتديات دولية أخرى في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ودول المنظومة الاشتراكية. اشتهر لدى شعوب العالم الثالث كخطيب مشبوب العاطفة واضح العبارة، خاصة في مؤتمر بونتا ديل استي في أوراجواي، حيث شجب حلف الرئيس الأمريكي كنيدي للتقدم.

وكما كانت غايته منذ انضمامه إلى الحركة الكوبية الثورية، غادر جيفارا في إبريل/نيسان 1965 لقيادة مهمة حرب عصابات دعماً للنضال الثوري في الكونغو. عاد سراً إلى كوبا في ديسمبر 1965 ليعد لقوة حرب عصابات أخرى في بوليفيا. وصل بوليفيا في نوفمبر/تشرين الثاني 1966. كانت خطة جيفارا أن يتحدى الديكتاتورية العسكرية في ذلك البلد حتى يحرض على قيام حركة ثورية قد تمتد إلى أرجاء قارة أمريكا

اللاتينية. في 8 أكتوبر/ تشرين الأول 1967 جرح وأسر من قبل القوات البوليفية المضادة التي دربتها أمريكا. في اليوم التالي قتل وأخفي جثمانه.

أخيراً اكتشف رفات تشي جيفارا العام 1997 وأعيد إلى كوبا، حيث شيدوا له صرحاً تذكارياً في سانتا كلارا وسط كوبا، وحيث انتصر في معركة عسكرية رئيسة إبان الحرب الثورية.

II

1928

ولد إرنستو جيفارا في 14 يونيو/حزيران في روزاريو، الأرجنتين. كان الطفل الأول لأب من الطبقة الوسطى يدعى إرنستو جيفارا لينش، وأم تدعى سيليا دي لا سيرنا.

1932

انتقلت عائلة جيفارا من بيونس آيرس إلى ألتا جراسيا، منتجع مياه معدنية قرب قرطبة بسبب ربو إرنستو، كما منعه الربو من الانتظام في المدرسة حتى بلوغه سن التاسعة.

1948

غير خطته الأولى في دراسة الهندسة ليلتحق بكلية الطب في جامعة بيونس آيرس، حيث داوم على العمل في سلسلة وظائف بالساعات بما في ذلك عيادة علاج حساسية.

1950

شرع إرنستو في رحلة طولها 4500 كلم في شمال الأرجنتين على دراجة نارية.

1951- 52

في أكتوبر 1951، يقر إرنستو وصديقه ألبيرتو جرانادو خطة لقيادة دراجة ألبيرتو النارية (الجبارة الثانية) La Poderosa II إلى أمريكا الشمالية. كان جرانادو قد درس الكيمياء الحيوية متخصصاً في الجذام، وأخوته الأصغر سناً كانوا أصدقاء إرنستو في المدرسة. غادروا قرطبة في ديسمبر/كانون الأول متجهين أولاً إلى بيونس آيرس لوداع عائلة إرنستو. نشرت المغامرات التي مروا بها في هذه الرحلة وبعدها والتي دونها إرنستو وتشكل متن هذا الكتاب، أول مرة تحت عنوان "يوميات رحلة أو يوميات الدراجة النارية".

1953

تخرج إرنستو كطبيب وشرع في رحلة أخرى مباشرة تقريباً حول أمريكا اللاتينية أخذته إلى بوليفيا وبيرو والأكوادور وبنما وكوستا ريكا وجواتيمالا، حيث قابل أنتونيو لوبيز، ثائر كوبي شاب. شهد في بوليفيا الثورة البوليفية. نشرت تفاصيل هذه الرحلات أولاً تحت عنوان (مرة أخرى أو على الطريق ثانية).

1954

أصبحت آراء إرنستو السياسية راديكالية جداً عندما شاهد في جواتيمالا الإطاحة بحكومة خاكوبو آربينيز المنتخبة ديمقراطياً بمساندة من القوات الأمريكية. فر إلى المكسيك حيث اتصل بجماعة ثورية كوبية من المنفيين. تزوج في المكسيك هيلدا جاديا من بيرو التي أنجبت ابنته هيلدا غاديا.

1955

بعد مقابلة فيديل كاسترو، وافق على الانضمام إلى الجماعة التي نظمت لشن حرب عصابات ضد ديكتاتورية باتيستا. صار اسمه الآن

عند الكوبيين "تشي"، اسم مستعار شائع عند أهل الأرجنتين. أبحر كطبيب القوة على اليخت "جراتما" في نوفمبر/تشرين الثاني 1956.

1956 -58

سرعان ما أظهر تشي مقدرة عسكرية فائقة، ترقى إثرها إلى مرتبة ضابط في يوليو/تموز 1957. في ديسمبر/كانون الأول 1958 قاد القوات الثائرة إلى نصر حاسم ضد قوات باتيستا في سانتا كلارا وسط كوبا 1956.

1959

في فبراير/شباط منح تشي الجنسية الكوبية تقديراً لمساهمته في تحرير الجزيرة. تزوج أليدا مارش، التي أنجبت أربعة أبناء. في أكتوبر/ تشرين الأول عين رئيس دائرة التصنيع في مؤسسة الإصلاح الزراعي. في نوفمبر/تشرين الثاني أصبح رئيس بنك كوبا الوطني، حيث كان يوقع الأوراق النقدية بكل بساطة باسم تشي كنوع من ازدراء المال.

1960

قام برحلة إلى الاتحاد السوفيتي، جمهورية ألمانيا الديمقراطية، تشيكوسلوفاكيا، الصين وكوريا الشمالية ممثلاً الحكومة الثورية الكوبية وحيث وقع اتفاقات تجارية.

1961

عين تشي ليرأس وزارة الصناعة الجديدة. وفي أغسطس/آب ترأس وفد كوبا إلى منظمة الدول الأمريكية في بونتا ديل استي في أوراجوي، حيث شجب معاهدة الرئيس الأمريكي كنيدي للتقدم.

1962

جرى دمج منظمات كوبا الثورية وانتخب تشي عضواً في المجلس الوطني. زار تشي الاتحاد السوفيتي للمرة الثانية.

1964

قبل الشروع في رحلة شاملة في إفريقيا، ألقى تشي خطاباً في الهيئة العامة للأمم المتحدة في ديسمبر/كانون الأول.

1965

قاد تشي حملة دولية إلى الكونغو دعماً لحركة التحرر التي أسسها باتريس لومومبا. رداً على التكهنات المتنامية حول مكان إقامة تشي، قرأ فيديل كاسترو رسالة الوداع التي كتبها تشي إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي حديث التأسيس. في ديسمبر/كانون الأول، عاد تشي إلى كوبا ليعد سراً لمهمة جديدة في بوليفيا.

1966

وصل تشي إلى بوليفيا في نوفمبر/تشرين الثاني متخفياً.

1967

في إبريل/نيسان نشرت "رسالة إلى القارات الثلاث" التي كتبها تشي مطالباً بخلق "أكثر من فيتنام، اثنتين أو ثلاث". في الشهر نفسه، انفصل جزء من مقاتلي جماعته عن الكتيبة الرئيسة. في 8 أكتوبر/ تشرين الأول وقع 17 مقاتلاً الباقين في كمين حيث جرح تشي وأسر. قتل في اليوم التالي من قبل القوات البوليفية العاملة تحت إمرة تعليمات من واشنطن. دفن في قبر مجهول مع جثامين عدد من المقاتلين. اعتبر يوم 8 أكتوبر/تشرين الأول اليوم البطولي لحرب العصابات في كوبا.

1997

أخيراً حدد مكان دفن رفات تشي في بوليفيا وأعيد إلى كوبا حيث وضعت في نصب تذكاري في سانتا كلارا.



خارطة الرحلة

مسار الرحلة

الأرجنتين

1951	
ديسمبر/كانون الأول	قرطبة إلى بيونس أيرس
1952	
4 يناير/كانون الثاني	مغادرة بيونس أيرس
6 يناير/كانون الثاني	فيليا خيسيل
13 يناير/كانون الثاني	ميرامار
14 يناير/كانون الثاني	نيكوتشيا
16-21 يناير/كانون الثاني	باهيا بلانكا
22 يناير/كانون الثاني	في الطريق إلى تشويال تشويل
25 يناير/كانون الثاني	تشويل تشويل
29 يناير/كانون الثاني	بيدرا ديل أغيلا
31 يناير/كانون الثاني	سان مارتين دي لوس أنديز
8 فبراير/شباط	ناويل وابي
11 فبراير/شباط	سان كارلوس دي باريلوتشي

تشيلي

14 فبراير/شباط	أخذ موديستا فيكتوريا إلى بيويا
18 فبراير/شباط	تيموكو
21 فبراير/شباط	لاوتروا
27 فبراير/شباط	لوس أنخليس
1 مارس/آذار	سانتاغو التشيلي

7 مارس/آذار	فالباريسو
8-10 مارس/آذار	على متن سان أنتونيو
11 مارس/آذار	أنتوفاغاستا
12 مارس/آذار	باكيدانو
13-15 مارس/آذار	شوشيكمان
20 مارس/آذار	أيكيكي (وتوكــو، لا ريكــا أفنتورا وشركة النترات)
22 مارس/آذار	أريكا

بيرو

24 مارس/آذار	تاكنا
25 مارس/آذار	تاراتا
26 مارس/آذار	بونو
27 مارس/آذار	الإبحار في بحيرة تيتيكاتا
28 مارس/آذار	خولياكا
30 مارس/آذار	سيكواني
31 مارس/آذار-3 إبريل/نيسان	كوزكو
4- 5 إبريل/ نيسان	ماتشو بتشو
6-7 إبريل/ نيسان	أنبكاي
13 إبريل/ نيسان	وانكاراما
14 إبريل/ نيسان	وامبو
15 إبريل/ نيسان	وانكاراما
16-19 إبريل/ نيسان	أنداويلس
22-24 إبريل/ نيسان	أياكوتشو وانكايو
25-26 إبريل/ نيسان	لا مرسيد
27 إبريل/ نيسان	بين أوشامبا وسان ريمو
28 إبريل/ نيسان	سان ريمو
30 إبريل/ نيسان	تاراما
1-17 مايو/أيار	ليما
19 إبريل/ نيسان	سيرو دي باسكو

24 إبريل/ نيسان	بوكالبا
25-31 إبريل/ نيسان	على متن لا سينيبا ايكيتوس، رافد للأمازون
1-5 يونيو/حزيران	ايكيتوس
6-7 يونيو/حزيران	على متن السيسيني مبحرين إلى مستعمرة الجذام في سان بابلو
8-20 يونيو/حزيران	سان بابلو
21 يونيو/حزيران	على الطوافة مامبو تانغو في الأمازون

كولومبيا

23 يونيو/حزيران-1 يوليو/تموز	ليتسيا
2 يوليو/ تموز	مغادرة ليتسيا بالطائرة
2-10 يوليو/ تموز	بوغوتا
12-13 يوليو/ تموز	كوكوتا

فنزويللا

14 يوليو/ تموز	سان كريستوبال
16 يوليو/ تموز	بين باركيسيميتو وكورونا
17-26 يوليو/ تموز	كاراكاس، حيث افترق تشي وألبيرتو

الولايات المتحدة

أواخر يوليو	ميامي

الأرجنتين

أغسطس/ آب	عاد تشي إلى أهله في قرطبة

المقدمة

إن كان هناك بطل في نضال أمريكا اللاتينية من أجل التحرر الممتد من زمن بوليفار[1] إلى يومنا هذا - الذي استقطب شباباً من أمريكا اللاتينية ومن كل أنحاء العالم، فإن هذا البطل هو إرنستو تشي جيفارا. وبالرغم من أنه أصبح منذ وفاته أسطورة عصرية، إلا أنه لم يسلب من حيوية شبابه. على النقيض، لقد ساعد وضعه الأسطوري على رفعة مقام شبابه الذي، يبدو بالإضافة إلى جرأته ونقائه أنه شكل الجوهر السري لسحر شخصيته.

يقتضي تحول المرء إلى أسطورة، رمز كثير من الآمال المبعثرة والمتشبث بها بقوة، أن تتحلى تلك الشخصية بنوع من الجاذبية وبعض الهيبة. من الجيد أن الأمر كذلك، إذ تحتاج المدينة الفاضلة التاريخية وجوهاً لتجسيدها. لكن لا ينبغي أن نعدم الرؤيا للطبيعة اليومية لهؤلاء البشر، الذين كانوا أطفالاً ومراهقين وشباب قبل حصولهم على المهارات التي يقودنا على هديها. لا أريد أن أدفن طبيعتهم الاستثنائية في سمات حياتهم العادية أو المألوفة، لكن معرفة هذه أولاً تبين لنا مراحل تكوين نقطة بداية مساراتهم اللاحقة.

يصدق هذا بشكل خاص في حالة جيفارا، الذي يقدم وصفاً لرحلته الأولى هذه مع صديقه ألبيرتو جرانادو، جيفارا شاب القلب،

([1]) قاد سيمون بوليفار ثورات مسلحة وساعد في حصول كثير من بلاد أمريكا اللاتينية على الاستقلال عن إسبانيا. تركزت رؤيته على قيام اتحاد فيدرالي لبلاد أمريكا الجنوبية الناطقة بالإسبانية.

الحميم البشوش والجاد في آن، والشاب الميال للسخرية في الوقت نفسه، حيث يمكننا إلى حد ما لمح ابتسامته وسماع تواتر ربوه. إنه شاب مثلهم، ملأ كل حياته بالشباب ونضج يافعاً دون أن يشوب ذلك وهن.

تصف هذه الطبعة من "يوميات الدراجة النارية" رحلة قامت دون تردد على الدراجة النارية "الجبارة الثانية" المزعجة بضجيجها (التي أعطبت في نصف الطريق، بعد أن بعثت في المغامرة نبضاً مرحاً يصل إلينا أيضاً)، رحلة حرة كالريح هدفها الوحيد معرفة العالم ومهدية إلى أناس شبابهم ليس مجرد تعاقب طبيعي للأيام، بل أمانة وروحانية.

في الصفحات الأولى يحذرنا الشاب، الذي سيصبح أحد أبطال القرن العشرين الحقيقيين أن "هذه ليست قصة بطولة خارقة". تقرع كلمة "بطولة" في آذان الآخرين، لأننا لا نستطيع قراءة هذه الصفحات بمعزل عن التفكير في مستقبل تشي، صورته في سييرا مايسترا، صورة تبلغ الكمال في كيبرادا ديل ورو في بوليفيا[1].

لو أن مغامرة الشباب هذه لم تكن مقدمة إلى تكوينه الثوري، لاختلفت هذه الصفحات وكانت قراءتنا لها مغايرة وإن لم نقدر على تصور كيف. تجعلنا معرفتنا أنها تخص تشي، رغم كتابتها قبل أن يصبح تشي، نعتقد بامتلاكه حساً داخلياً يتعلق بالطريقة التي ينبغي علينا قراءتها. على سبيل المثال:

الشخص الذي كتب هذه اليوميات توفي لحظة لمست قدماه تراب الأرجنتين. الشخص الذي أعاد تبويبها وصقلها، أنا، لم يعد له وجود، على الأقل، لست ذلك الشخص الذي كان. كل هذا التجوال هنا وهناك في "أمريكتنا" لتكتب بحروف كبيرة "غيرني أكثر مما حسبت".

([1]) الوادي الضيق شديد الانحدار الذي وقعت فيه وحدة تشي من المقاتلين في كمين يوم 8 أكتوبر/تشرين الأول 1967، حيث أسر تشي وقتل في اليوم التالي.

هذه الصفحات شهادة – سرد تصويري كما وصفها بنفسه أيضاً – لتجربة غيرته، "إقلاع" أولي صوب العالم الخارجي، الذي كان مثل مغادرته الأخيرة، دون كيخوتياً في أسلوبه نصف اللاشعوري، والذي له، مثلما هو كيخوته، التأثير عينه على مجال لاشعوره. كانت هذه "روح الحالم" في تجربة استيقاظها.

من حيث المبدأ، والمنطق الكامل لما لا يتنبأ به، كانت رحلتهما متجهة أولاً إلى أمريكا الشمالية، كما حدث بالفعل: نحو "الصورة السلبية" لأمريكا الشمالية التي تماثل فقر وعوز أمريكا الجنوبية، ونحو المعرفة الحقيقية لما تعنيه أمريكا الشمالية لنا.

"غابت عنا في تلك اللحظات ضخامة مسعانا، كان كل ما بوسعنا رؤيته غبار الطريق أمامنا ونحن على الدراجة نلتهم الأميال طائرين إلى الشمال". أليس "غبار الطريق" ذاك حقاً، دون إدراك تشي، الغبار نفسه الذي رآه خوسي مارتيه[1] عندما سافر من لا غوايرا إلى كاراكاس "في مركبة صغيرة عادية"؟ أليس غبار كيخوته الذي تظهر فيه أشباح تحرير أمريكا " سحابة الغبار الطبيعية التي ينبغي أن ترتفع حين تسقط قيودنا المرعبة على الأرض؟"[2]

لكن مارتيه كان قادماً من الشمال، وتشي مسافراً نحو نفسه، ممسكاً بلمحات عن مصيره التي نلمحها عبر حكاياته ووصفه المقتضب.

"كمباك Comeback" الكلب الصغير "بنبضاته الملاحية" الذي يقدمه تشي لنا بشكل فكاهي جداً، يقفز حول الدراجة من فيليا خيسيل إلى ميرامار، ويظهر ثانية بعد سنوات في جبال سييرا مايسترا كجرو يتوجب خنقه بسبب "نباحه الهستيري" إبان الكمين غير الناجح

---

(1) خوسيه مارتيه بطل وطني كوبي، شاعر وكاتب وخطيب وصحفي ذائع الصيت ومؤسس الحزب الثوري الكوبي عام 1892 لمحاربة الحكم الإسباني والمضاد لاستعمار الولايات المتحدة الجديد. أعلن حرب الاستقلال عام 1895 وقتل في إحدى المعارك.

(2) خوسيه مارتيه – الأعمال الكاملة – هافانا – المطبعة الوطنية الكوبية 1963-73 المجلد 7 ص. 289-90.

المنصوب على أمل إلقاء القبض على سانشير موسيكيزا، كولونيل معروف سيء السمعة في جيش باتيستا. "برعشة عصبية أخيرة، توقف الجرو عن الحركة. استلقى هناك ممدداً ورأسه الصغير ملقى على الأغصان"[1].

لكن في نهاية هذه الحادثة من "أحداث من الحرب الثورية" يظهر كلب آخر مستلقياً في قرية صغيرة في مار فاردي:

ملس فيلكس رأس الكلب لمسة خفيفة، فنظر إليه. رد فيلكس النظرة بمثلها، ثم تبادلت وإياه نظرة ذنب. فجأة صمت الجميع. أُفعمنا بنشاط غير مدرك بالحس. بدت نظرة الكلب الضعيفة والخبيثة في آن تتضمن تلميحاً بالعتاب. هناك في حضرتنا، رغم مراقبتنا بعيني كلب آخر، كان الجرو المقتول.

كان "كمباك" من عاد، مثبتاً صحة اسمه، وليذكرنا أيضاً بما قاله اثيكيل مارتينيز استرادا، الأرجنتيني العظيم الآخر خاصتنا، عن يوميات حملة خوسيه مارتيه :

هذه العواطف، هذه المشاعر، لا يمكن وصفها أو التعبير عنها بلغة الشعراء والرسامين والموسيقيين والمتصوفين. ينبغي تشربها دون إجابة، كما تفعل الحيوانات بعيونها المتأملة والثاقبة.[2]

تبين لنا مقارنة بين "أحداث من الحرب الثورية" و "يوميات الدراجة النارية" أنه بالرغم من مرور عشر سنوات، كان الكتاب الثاني نسخة أدبية من الكتاب الأول، إذ أنه يحتوي على الاعتدال نفسه والصراحة نفسها والنضارة الفطنة عينها ويستخدم فكرة اللحظات نفسها بالضبط لتوفير الوحدة لكل فصل موجز، وطبعاً، الصمود الهادىء

---

(1) إرنستو تشي جيفارا " أحداث من الحرب الثورية " 2004 – أوشن برس.
(2) اثيكيل مارتينيز استرادا "مارتيه الثوري" هافانا Casa de las Americas 1967 ص. 414 رقم 184

نفسه الذي يقبل الأحداث السعيدة والمأساوية في آن دون شهيق وزفير حادين.

ليست المهارة الأدبية بل الإخلاص إلى التجربة وتأثير السرد ما يسعى إليه. عند الحصول على كليهما، تأتي المهارة بشكل طبيعي وتأخذ مكانها المقرر، لا تعمي ولا تزعج بل تنجز إسهامها. هنا، بقليل من التماس الطريق أو التردد، يتشكل أسلوب تشي الذي قد تصقله السنوات كما صقل بنفسه إرادته بمتعة فنان لا صانع كلمات: أجبره خجل ساكن أن لا يسهب كثيراً في شعر الصورة العارية، بل يجذب الكلمات صوبه، ما يشكل لمسته الأدنى المتحولة إلى واقع. تفتح وتقفل دائرة "أنا – التي – في" الخاصة به، باستمرار دون تكثيف واتساع لأسلوب يفضل البقاء خفياً. يلقي النثر على الصفحة ضوءاً، وإن كان يجر خفة السرد غير المدرك بالحس. يفيض بين وصف المشاعر في "أحداث..." خلف القاتل المصمم أثر الأكواخ المحروقة، والحزن الكئيب... والروايات السردية التي يبحث فيها عن نفسه في "اليوميات": "الإنسان، مقياس كل شيء، يتكلم هنا عبر فمي ويروي بلغتي الخاصة ما رأته عيني"، ويبدو حتى أحياناً أنه يراقبنا.

يصور نثر تشي النابض بالحياة ما رأته العينان، الأشياء بأبعد ما يراها وغالباً، إذا سمح المنظر الطبيعي بذلك، بلمسة حميمة:

تتلوى الطريق بين سفوح التلال التي تسبر بداية سلسلة جبال الأنديز، ثم تهبط منحدرة حتى تصل بلدة بائسة غير جذابة محاطة بنقيض حاد من الجبال العظيمة الكثيفة المشجرة.

تشمل حادثة محاولة سرقة النبيذ وأخريات في مستوى التقليد الصفيق، درراً ثمينة من البيان:

كنا في الواقع مفلسين كالعادة، نستعيد في ذهننا الابتسامات التي حيت سلوكي حين أكون ثملاً، ونحاول العثور على أثر لسخرية القدر التي تمكننا من معرفة اللص.

يعود حس من الغرابة. في فصل "استكشاف دائري":

"جلب الليل لنا بحلوله ألف صوت غريب والإحساس بالسير كل خطوة في مكان فارغ". وفي "أحداث..." ثم في غمرة الكمين جاءت لحظة صمت غريبة حين ذهبنا لجمع الموتى بعد إطلاق الرصاص الأول. لم يكن هناك أحد في الطريق الواسع...". الصورة تتفجر عاطفة بغزارة وصمت العالم المرئي:

اندفع جسم أيل ضخم كنسمة سريعة عبر الجدول واختفى في الفروة جسمه، فضي في ضوء القمر البازغ. "يوميات الدراجة النارية".

شاب صوت فيديل وحضوره في الغابة المضاءة بالمشاعل، نبرات مؤثرة، وبإمكانك رؤية أن زعيمنا قد غير أفكار كثير من البشر. " أحداث... ".

رغم ذكر صوت ونبرة فيديل، يبدو المشهد صامتاً بالنسبة لنا، كما لو أنه شوهد من بعيد.

في يوميات الترحال هذه كثير من الأحداث الكيخوتية والشابلينية[أ] تحاط بصمت مماثل - كالتي أوردناها حول سرقة النبيذ، ومطاردة الشابين النشطين ليلاً "من قبل حشد غاضب من الراقصين" وإدراج أسمائهما في فيلق المقاتلين التشيليين، ومغامرة البطيخ المبهجة وجرها فوق الأمواج، ولغز الصورة الفوتغرافية المستحيلة في كوخ بائس على ربوة قرب كاراكاس.

تروي آخر وقفة عز "للحجارة" تقريباً بتأثير سينمائي ويبدو أننا نشاهدها كلها وسط صمت يشبه الفيلم السينمائي:

(أ) نسبة إلى دون كيخوته وشارلي شابلن - المترجم.

ضغطت على الكابح اليدوي الذي التحم في غير وقته وانكسر أيضاً. للحظة لم أر سوى شكل القطيع الضبابي يمر سريعاً على الجانبين، بينما "الجبارة" المسكينة تسرع هابطة التل شديد الانحدار. بمعجزة عظيمة استطعنا كشط ساق البقرة الأخيرة فقط، لكن نهراً في البعيد كان يزأر صوبنا بقوة مرعبة. انحرفت إلى جانب الطريق وفي لمحة عين ارتقت الدراجة إلى الضفة التي علوها مترين، ملقية بنا بين الصخور، لكننا لم نصب بأذى.

تبحث مغامرات الشاب هذه – المشوبة بالبهجة والفكاهة وأحياناً كثيرة بالسخرية الذاتية – عن روح المنظر الطبيعي أكثر من مجرد المشهد. وجدت هذه "الروح" في الظهور المفاجىء للغزال: "سرنا ببطء كي لا نزعج هدوء المأوى البري الذي نتواصل معه الآن". يكتب تشي دون السخرية التي يكرسها إلى موضوع الدين: "انتظر المساعدان (كلانا) يوم الأحد [والشواء] بنوع من الورع الديني". لذا، في حين لم يكونا مؤمنين، كان بإمكانهما الشعور بالحضور المجازي "للمأوى" في الطبيعة التي كانا على اتصال حميم "بروحها" مما يذكرنا مباشرة بالصور المشابهة عند المفكر الحر مارتيه الموجودة في كتابه "قصائد بسيطة": "يسعى أسقف إسبانيا/ لدعم مقامه/ على قمم الجبال الموحشة/ خشب الحور لي."[1]

في 7 مارس/ آذار 1952 وفي فالباريسو واجها الظلم الذي كانت ضحيته سيدة عجوز مصابة بالربو، زبونة في دكان صغير يدعى الجوكندا:

كانت المسكينة في حالة يرثى لها، تستنشق رائحة العرق اللاذعة المركزة والأقدام القذرة التي تملأ الحجرة، ممزوجاً بغبار أريكتين، القطعتين الفاخرتين الوحيدتين في بيتها. علاوة على ربوها كانت تعاني من مشاكل في القلب.

([1]) خوسيه مارتيه – الأعمال الكاملة – المجلد 16 ص. 68.

بعد إكمال صورة خراب تام، وزيادة عداوة عائلة المرأة المريضة الأمر مرارة، كتب تشي - الذي شعر بالعجز كطبيب يقترب من يقظة ضمير ستطلق نداءه الباطني المحدد الآخر- هذه الكلمات التي لا تنسى:

هناك، في اللحظات الأخيرة، للذين كان الغد دوماً أفقاً لهم، يدرك المرء المأساة العميقة المحيطة بحياة البروليتاريا في العالم. في تلك العيون الميتة، ثمة استغاثة إذعان من أجل الغفران وكثير أيضاً من الالتماس اليائس للعزاء الضائع في الفراغ، كما ستضيع أجسادهم في عظمة الغموض المحيط بنا.

قرر الرحالان، وقد عجزا عن الاستمرار في رحلتهما بشكل آخر، أن يتخفيا تجنباً لدفع الأجرة على متن سفينة ستبحر بهما إلى أنتوفاغاستا في تشيلي. في تلك اللحظة لم يريا، أو على الأقل تشي، الأشياء بوضوح تام:

فهمنا ونحن ناظران إلى البحر ومتكئان جنباً إلى جنب على طرف حافة سان أنتونيو، أن مهمتنا الحقيقية كانت التنقل إلى الأبد على طرقات وبحار العالم. بفضول ننظر دوماً إلى كل شيء تقع عليه أعيننا، نستنشق كل ركن لكن بوهن - دون مد جذور في أي أرض أو المكوث طويلاً لرؤية قِوام الأشياء، فالحدود الخارجية كافية.

كانت جاذبية البحر أقوى من "طريق" الرحالين، إذ حيث تطلب الأرض ذلك، تمتد حتى جذور المارة، ويمثل البحر الحرية المطلقة من كل القيود. "والآن أشعر أن جذوري العظيمة مقتلعة، حرة و..." القصيدة التي تتصدر الفصل الخاص بتحرره من تشيشينا - تروي كل ذلك. كله؟ اقتلع تشي جذراً اخر في حضور السيدة التشيلية العجوز المصابة بالربو. وسرعان ما سيلسع صدره ثانية عندما يصادق زوجين تشيليين عاملين شيوعيين جرت مضايقتهما في باكيدانو:

كان الزوجان، فاقدا الحس من برد ليل الصحراء، جاثمين متقابلين في ليل الصحراء، تجسيداً حياً للطبقة العاملة في أي جزء من العالم.

تقاسما مثل أبناء سان مارتين[1] الطيبين الأغطية.

كانت واحدة من أكثر لحظات حياتي برودة، لكنها أشعرتني أيضاً بأخوة أكثر تجاه هذه الكائنات البشرية الغريبة، بالنسبة لي على الأقل.

هذه الغرابة، ذاك الانفصال العميق والعزلة الجسورة التي ما فتئت تدثره هي الفضول. ليس هناك ما هو أكثر وحدة من المغامرة. كان دون كيخوته وحيداً محاطاً بالغرابة وحماقة العالم المحيط به إلا أن امتلأ قلبه بالشفقة على العبيد الكادحين والطفل المجلود. كتب خوسيه أورتيجا إيغاسيت في كتابه "تأملات في دون كيخوته"، كمحور تفكيره، "أنا نفسي وظروفي" ما فهم عادة كحصيلة أو تعايش عاملين غير متشابهين، كما يمكن أن تفهم أيضاً كأزمة تعبر "أنا" أو "نفسي" عن هذين العاملين كأمرين منفصلين بعيدين وإن كانا كثيفي العلاقة بعضهما ببعض. ظهرت هذه الأزمة في مذكرات تشي عند رحيله الأول إذ قال :

بالرغم من التظليل الضبابي للزوجين كان قد اختفى إلى حد ما في المسافة التي تفصل بيننا، كان بإمكاننا رؤية وجه الرجل الفريد المصمم، فتذكرنا دعوته المباشرة " تفضلوا أيها الرفاق، لتناول الطعام سوياً. أنا أيضاً صعلوك " ما يظهر ازدراءه الضمني للطبيعة الطفيلية التي رآها في ترحالنا الهائم دون هدف.

ما هو هذا الازدراء السري: ازدراء العامل المتواضع أم تشي؟ أو ربما لا أحد منهما، بل ذاك اللقاء "في ليل الصحراء" وتقاسم "المتة"[2] والخبز والجبن والأغطية ما تسبب في إطلاق شرارة أضاءت انفصالاً مؤلماً.

على أية حال كنا في شوكيكماتا مع المنجم وعامل المنجم الجنوبي.

---

(1) خوسيه دي سان مارتين، بطل أرجنتيني لعب دوراً رئيساً في تحقيق الأرجنتين وتشيلي وبيرو الاستقلال عن إسبانيا.
(2) شراب أرجنتيني وطني يشبه الشاي يحضر من أعشاب المتة.

تتشابك الكفاءة الباردة والامتعاض العاجز يد بيدٍ في المنجم الكبير، يترابطان بالرغم من الكراهية النابعة من الحاجة العامة للعيش من جهة وللتأمل من جهة أخرى...

ظهر اقتراح مهيب وقد تحقق الوثبة إلى نوع من الفكرة قرينتها ومعناها المحتمل بعد سنوات في كوبا:

... سنرى إن قام عامل منجم في أحد الأيام بحمل معوله بمتعة لتسميم رئتيه بفرح واعٍ. يقولون الأمر هكذا هناك، من حيث يأتي اللهب الأحمر الذي ينير العالم الآن. هكذا يقولون. لا أدري.

في الواقع وفي كوبا العام 1964، سيربط تشي هذه الأفكار مع كلمات الشاعر ليون فيليبي (لا أدري إن كان تشي قد اطلع عليها حين كتب

ما ورد أعلاه): "ليس بوسع أحد بعد أن يتعمق في إيقاع الشمس... لم يقطع أحد سنبلة قمح بالحب والرحمة."

أقتبس هذه الكلمات لأن بإمكاننا اليوم القول لهذا الشاعر العظيم اليائس أن يأتي إلى كوبا ليرى كيف أعاد الناس اكتشاف سبيلهم ووجدوا طريقهم ثانية للهو بعد أن مروا بكل تلك المراحل من الانسلاب الرأسمالي وبعد النظر إلى أنفسهم كحيوانات حمل يشد عليها نير المستغل. الآن، في كوبا خاصتنا، صار للعمل معنى جديد وينجز بمتعة جديدة.[1]

مع ذلك كتب تشي في مارس/آذار 1952 بكل بساطة "سنرى" واستمرت الدروس القاسية في فصل شوكيكماتا، التي سميت نسبة إلى بلدة مناجم كانت "مثل مشهد من دراما حديثة" والتي وصفها برصانة وبتوازن الانطباع والتأمل والحقائق. كان درسها العظيم "قد درس من مقابر المناجم المحتوية على قسم ضئيل فقط من عدد كبير من الناس الذين افترستهم الكهوف المنهارة وثاني أكسيد السليكون وطقس الجبال

([1]) إرنستو تشي جيفارا: (الأعمال الكاملة 1957 – 67) هافانا – 1970 المجلد 2، ص. 333

الجهنمي". استخلص تشي في مقالته المؤرخة 22 مارس/آذار 1952 أو في وقت لاحق عند مراجعة مقالاته: "أعظم جهد ينبغي على تشيلي أن تقوم به هو التخلص من صديقها اليانكي غير المريح وإلقائه عن ظهرها، مهمة تعتبر الآن على الأقل هائلة." يستوقفنا اسم سالفادور أليندي في الدرب.

على الدراجة النارية، في الشاحنات أو عربات الشحن المقفلة، على متن السفن أو سيارة فورد صغيرة، والنوم في مخافر الشرطة وتحت النجوم أو الملاجيء العابرة، كافح تشي باستمرار تقريباً ضد ربوه، وقطع الصديقان الأرجنتين وتشيلي، ودخلا بيرو سيراً على الأقدام. ترك هنود بيرو انطباعاً عظيماً عندهما كما فعل هنود المكسيك مع مارتيه:

هؤلاء الناس الذين يراقبوننا نسير في شوارع البلدة جنس مهزوم. نظراتهم وديعة، إلى حد ما مرتعبة، ولا مبالية تماماً بالعالم الخارجي. يوحي بعضهم بأنه مستمر في العيش لأن ذلك مجرد عادة لا يقدر على التخلص منها.

جاءوا إلى مملكة الحجارة المهزومة، مملكة باشاماما[1]، الأرض الأم التي استقبلت بصاق "ورق الكوكة[2] الممضوغ عوض الحجارة" مصحوبة "بمشاكلهم". المركز، سُرَّة العالم، حيث دقت ماما أكلو وتدها الذهبي في الأرض. موقع فيراكوتشا اختار: كوزكو. وهناك وسط موكب سيد الزلزال الباروكي، "مسيح أسمر"، وجدوا ما يذكر للأبد بالشمال الذي يمكن أن يرى فقط من أمريكا الجنوبية، نقيضه الجدلي المميت والشاحب:

فوق الأجساد الصغيرة للهنود المحتشدين لرؤية الموكب العابر، يمكن بين الفينة والأخرى رؤية رأس أمريكي شمالي أشقر يبدو، بآلة تصويره وقميصه الرياضي، أنه مراسل من عالم آخر (في الواقع هو كذلك)...

---

(1) الأرض كاله في لغة هنود أمريكا اللاتينية – المترجم.
(2) نبتة يستخرج منها الكوكايين – المترجم.

أبرزت كاتدرائية كوزكو الفنان الكائن في تشي الذي كتب ملاحظات مثل هذه: "ليس في الذهب جلال الفضة النطيف الذي يزداد فتنة كلما مرت عليه الأيام، وهكذا تبدو الكاتدرائية مزينة كامرأة عجوز بمساحيق تجميل كثيرة." من بين العدد الكبير من الكنائس التي زارها، كان أكثر ما أثار إعجابه بشكل خاص "الصورة المؤسفة لنواقيس الأبراج الوحيدة البالية في كنيسة بيلين، بيت لحم، التي هدمها الزلزال والملقية كحيوان مقطع الأوصال على منحدر التل." غير أن أعظم حكم مؤثر في باروك بيرو الاستعماري موجود في سطور وصفه المضاد بحدة لكاتدرائية ليما:

في ليما، أصبح الفن أسلوبياً بلمسة مخنثة نوعاً ما: أبراج الكاتدرائية عالية مهيبة، لعلها الأرفع بين كل كاتدرائيات المستعمرات الإسبانية. تُركت القطع الخشبية الفنية السخية في كوزكو وتبنت هنا الذهب. صحن الكنائس هنا خفيف طليق الهواء، على نقيض تلك الكهوف المظلمة والعدوانية في مدينة إنكان. اللوحات متألقة ساطعة أيضاً، مبهجة إلى حد ما، وتتبع مدارس أحدث من لوحات الفنانين الهجن المتكتمين على أنفسهم، الذين رسموا القديسين بغضب مظلم أسير.

كانت زيارتهما إلى ماتشو بتشو في 5 إبريل/نيسان موضوع مقالة صحفية نشرها تشي في بنما بتاريخ 12 ديسمبر/كانون الأول 1953، حيث توحد فيها حقائق مجمعة بحرص حول معلومات تاريخية، وهدف تعليمي غائب تماماً عن مقالاته الشخصية.

يحدث شيء مماثل في مقال عنوانه "لمحة على ضفاف عملاق الأنهر" نشر أيضاً في بنما بتاريخ 22 نوفمبر/تشرين الثاني 1953، رغم أن تشي ركز أكثر على تجربة تصف رحلته إلى الأمازون على متن طوافة. مكنت الطوافة، من المضحك أن اسمها كان "مامبو-تانغو" حتى لا يتهما بالتعصب بسبب الجزء الثاني من الاسم – تشي وألبيرتو، بجهد دؤوب وخطورة، من معرفة الواقع القاسي لهنود الأمازون.

من المرتفعات المنعزلة "كتل الحجارة المبهمة" إلى الإهمال المسبب للوهن، الذي شهداه على ضفاف الأمازون، كان ذلك كالترحال عبر خريطة جينات لأمريكا. محتفلاً بعيد ميلاده الرابع والعشرين في مستعمرة سان بابلو للمصابين بالجذام، تكلم تشي بأسلوب يذكر ببوليفار ومارتيه: "نشكل جنساً هجيناً واحداً يحمل من المكسيك إلى مضايق ماجلان أوجه شبه أثنوغرافية[1] فذة. هكذا وفي محاولة لتخليص نفسي من ثقل الريفية ضيقة الأفق، اقترحت شرب نخب بيرو وأمريكا لاتينية متحدة."

لم يكن هناك تلميح للرزانة في هذه الكلمات، بل لعلها كانت مجرد بلاغة لفظية، إذ تكلم بثقة وضعت كلماته خارج كل تقليد متبع. "استقبل عرضي الخطابي باستحسان كبير". فعل الشيء نفسه في رسالة إلى أمه أرسلها من بوجوتا في 6 يوليو/تموز 1952 (موجودة هنا لإتمام وصف تجاربه الكولومبية) حين أشار ثانية إلى "خطابه الموجه لكل أمريكا، الذي لاقى استحسان الجمهور المتفوق، والثمل بتفوق"، وعندما علق بتهكم محبب على كلمات امتنان جرانادو: "قدم ألبيرتو المعتبر نفسه خليفة بيرون الطبيعي، خطبة غوغائية مؤثرة أصابت من تمنوا الخير لنا بنوبة من الضحك." لكنه تكلم بنبرة مختلفة عن المصابين بالجذام وحياتهم، مستخدماً الاعتدال في محاولة غير مجدية – لإخفاء معاناتهم، كتب تشي في مغادرتهما مستعمرة جذام سان بابلو قائلاً :

قام جمع من مرضى المستعمرة تلك الليلة بوداعنا وداعاً غنائياً مع كثير من الأغاني المحلية غناها رجل كفيف. شملت الفرقة الموسيقية عازف مزمار وجيتار وأكورديون دون أصابع تقريباً، وشخص غير متوقع "بكامل صحته" يساعد في عزف الساكسفون والجيتار وبعض آلات النقر. بعد ذلك جاء وقت إلقاء الخطابات حيث تكلم أربعة مرضى وفق قدرتهم، بشكل مربك قليلاً. تجمد

---

[1] علم الأجناس البشرية – المترجم.

أحدهم ولم يقدر على الاستمرار حتى صرخ من يأسه "مرحى، مرحى، مرحى للأطباء". شكرهم ألبيرتو بعد ذلك بحرارة لاستقبالهم...

وصف تشي المشهد بالتفصيل في رسالة لأمه ("استخدم عازف الأوكورديون الذي لا أصابع في يده اليمنى عيدان صغيرة مربوطة إلى رسغه، وكان كل العازفين الآخرين تقريباً مشوهين بشكل شنيع بسبب الشكل العصبي للمرض"). حاول دون نجاح أن لا يجزئها كثيرا بمقارنته ذلك "بمشهد من فيلم مرعب" لكن الجمال الانفعالي لذلك الوداع كان واضحاً:

انطلق المرضى، وعلى صوت لحن شعبي انساقت الحمولة البشرية بعيداً عن الشاطيء، وأضفت أضواء قناديلهم الخافتة على الناس سمة الأشباح.

من كتاباته حول تجربتهما مع المصابين بالجذام، الذين بالتأكيد أحسنوا إليهم ليس بالمعالجة فقط، بل بلعب كرة القدم معهم والحديث إليهم بروح غير متحيزة وأخوية وإنسانية جداً – يفسر امتنان المصابين العظيم ذلك – يمكننا أن نفهم أصول البراعم الثورية عند تشي. أؤكد على هذه الكلمات: "إن كان هناك ما سيجعلنا نكرس أنفسنا بجد إلى الجذام، فإنه ذاك الشعور الذي أظهره لنا المرضى الذين قابلناهم أثناء الترحال في الطريق." من المستحيل آنذاك تصور كم سيكون جاداً وعميقاً ذاك التفاني وحيث يجسد فهم "الجذام" كل البؤس الإنساني.

أما وقد قرأت هذه المقالات المليئة بكثير من النقائض والتعليمات، كثير من الكوميديا والمأساة، كما الحياة نفسها، وعلقت عليها – ليس بشمولية بل كاقتراحات فقط – أختم بالصورة المبهجة لوصول تشي إلى كاراكاس، مدثراً بغطاء ترحاله، ناظراً حوله إلى منظر شامل لأمريكا اللاتينية "وصارخاً بكل ضروب القصائد الشعرية مع هدير الشاحنة".

سأترككم دون تعليقات أخرى، لأن الفصل الأخير الاستثنائي "ملاحظات في الهامش"، بجلاله المرعب غير المزخرف، ليس بحاجة ولا يتحمل ذلك. في الواقع، لست متأكداً إن كان يتوجب وضع "سِفر

الرؤيا" متعذر الفهم هذا في بداية هذه "اليوميات" أو نهايتها، الرؤيا التي رآها تشي "مطبوعة في سماء الليل"، مصيره ذاته، منتظراً "الروح الهادية العظيمة أن تشق الإنسانية إلى نصفين متخاصمين". النصف العظيم الذي في نظرة مارتيه لأمريكانا قد يتخطى نسرها الكوندور، ناثراً بذور أمريكا الجديدة عبر الأمم الرومانسية في القارة وجزر البحر الحزينة[1]. فصل لا يرحم، مثل توهج برق تراجيدي، ينير لنا "الفضاء المقدس" في أعماق روح من دعا نفسه "جندي القرن العشرين الصغير ذاك". واحد يعود دوماً في أملنا الذي لا يقهر إلى الطريق ثانية مدججاً بسلاحه وشاعراً "بأضلع روسينانتي[2]"[3] تحت عقبيه.

تشينتيو فيتير

(1) خوسيه مارتيه، مجموعة خوسيه مارتيه المختارة، أوشين برس. 1999 ص. 120
(2) Rocinante : اسم حصان دون كيخوته – المترجم.
(3) تشي جيفارا، مجموعة تشي جيفارا المختارة – أوشين برس 2003 ص. 384

نص الرحلة

إذاً كل منا يفهم الآخر

ليست هذه قصة بطولة خارقة، أو مجرد سرد شخص ساحر، على الأقل لم أقصد أن تكون كذلك. إنها لمحة حياتين سارتا متوازيتين لفترة من الزمن بآمال متماثلة وأحلام متقاربة.

يمكن لرجل في تسعة أشهر من حياته أن يفكر في أشياء كثيرة، من أرفع التأملات الفلسفية حتى أقصى توق إلى صحن حساء مفتقد – في انسجام تام مع حالة معدته. ويمكنه إذا كان في الوقت نفسه مغامراً عيش سلسلة من الأحداث المثيرة لاهتمام الآخرين وقد يقرأ ما دونه من مثل هذه اليوميات كيفما اتفق.

وعليه، ألقيت قطعة النقد المعدنية في الهواء، دارت عدة مرات وحطت أحياناً على وجه وتارة على الوجه الآخر. يتكلم الرجل، مقياس كل الأمور، على لساني ويسرد بلغتي ما شهدته عيني. من المرجح أن تحط قطعة النقد على قفاها مرة واحدة فقط من بين سقوطها عشر مرات أو العكس. في الواقع هذا ممكن وليس هناك من عذر لأن هاتين الشفتين يمكن أن تصفا ما رأته العينان فعلاً. هل كانت رؤيتنا كلها غير كاملة قط، عابرة أو ليست دائماً حسنة الاطلاع؟ هل كنا غير موفقين في أحكامنا؟ حسناً، لكن هكذا فسرت الآلة الكاتبة هذه النبضات الزائلة التي رفعت أصابعي إلى مفاتيح حروفها، غير أن هذه النبضات قد ماتت الآن. علاوة، ليس هناك من هو مسؤول عنها.

الشخص الذي كتب هذه اليوميات توفي لحظة لمست قدماه تراب الأرجنتين. الشخص الذي أعاد تبويبها وصقلها، أنا، لم يعد له وجود، على الأقل لست ذلك الشخص الذي كان. كل هذا التجوال هنا وهناك في "أمريكتنا"، لتكتب بحروف كبيرة، غيرني أكثر مما حسبت.

ستصادف في أي دليل تصوير فوتغرافي الصورة الواضحة المدهشة لمنظر طبيعي، التي من الجلي أنها ملتقطة ليلاً في ضوء بدر كامل. يكشف السر الكامن خلف الرؤيا السحرية "للظلام في القمر" عادة في النص المرفق. لن يكون قراء هذا الكتاب مطلعين جيداً على حساسية شبكية عيني – التي بالكاد أستطيع الإحساس بها بنفسي. لذا لن يكون بوسعهم مراجعة ما يقال وفق صورة فوتغرافية لاكتشاف في أي وقت بالضبط التقطت "صوري". ما يعنيه هذا أني إذا قدمت لكم صورة وقلت، مثلاً، إنها التقطت في الليل، يمكنكم إما تصديقي أو لا، ما لا يعني لي كثيراً، لأنه إذا حدث ولم تكونوا على دراية بالمشهد الذي صورته في يومياتي، سيكون من الصعب عليكم أن تجدوا بديلاً للحقيقة التي أخبركم عنها. لكن سأترككم الآن مع ذاتي، الرجل الذي كنت...

تحذيرات مسبقة

كان صباح من شهر أكتوبر/تشرين الأول. مستفيداً من عطلة السابع عشر منه، ذهبت إلى قرطبة.[1] كنا في بيت ألبيرتو جرانادو نشرب "متة"[2] حلوة تحت كرمة ونعلق على الأحداث الراهنة في "الحياة

(1) كانت آنذاك عطلة وطنية احتفالا بذكرى خروج خوان بيرون من السجن عام 1945. كان بيرون رئيس الأرجنتين من 1946 وحتى 1955، ومن 1973 حتى موته سنة 1974.
(2) راجع ص. 32 – المترجم.

بنت الكلبة" هذه ونصلح دون طائل "الجبارة [1]". كان ألبيرتو يندب حقيقة أن عليه وظيفته في مستعمرة الجذام في سان فرانسيسكو ديل شانيار، وضآلة راتبه في المستشفى الإسباني. وأنا كنت قد تركت أيضا عملي، لكني على عكسه كنت سعيداً بالمغادرة. شعرت بعدم الراحة أكثر من أي وقت مضى ولأني أملك روح حالم كنت متعباً بشكل خاص من كلية الطب والمستشفيات والامتحانات.

بلغنا في طرقات حلم يقظتنا بلاداً نائية، وأبحرنا في بحار مدارية وارتحلنا عبر كل آسيا. وفجأة برز السؤال منساباً كما لو كان جزءاً من تخيلاتنا:

"لم لا نذهب إلى أمريكا الشمالية؟"

"أمريكا الشمالية؟ لكن، كيف؟"

"على متن الجبارة، يا رجل."

هكذا اتخذنا قرار الرحلة، ولم يحد قط عن المبدأ الرئيس المطروح آنذاك: الارتجال. انضم إلينا أخوة ألبيرتو في شرب المتة ونحن على وشك الانتهاء من وضع مخططنا بعدم التخلي إطلاقاً عن الفكرة حتى نحقق الحلم. وهكذا بدأ العمل الرتيب في ملاحقة تأشيرات الدخول والشهادات والوثائق، أي التغلب على العقبات العديدة التي وضعتها الأمم العصرية في طرق الرحالة المحتملين. لحفظ ماء الوجه، قررنا القول إننا ذاهبون إلى تشيلي كاحتياط ليس إلا.

كانت مهمتي الرئيسة قبل المغادرة أن أمتحن في أكبر عدد ممكن من المواد وعلى ألبيرتو تحضير الدراجة للرحلة الطويلة، ودراسة وتخطيط دربنا. غابت عنا في تلك اللحظات ضخامة مسعانا. كان كل ما بوسعنا

---

(1) La Poderosa II : دراجة حرانادو النارية – نورتون 500 ، التي تعني حرفياً "الجبارة".

رؤيته غبار الطريق أمامنا ونحن فوق الدراجة نلتهم الكيلومترات طائرين إلى الشمال.

اكتشاف المحيط

القمر في تمامه يطل صورة ظلية قبالة البحر، يكسو الأمواج بانعكاسات فضية. نراقب المد والجزر المستمرين، بأفكارنا الواضحة، ونحن جالسان على كثيب رملي. كان البحر دائما بالنسبة لي مؤتمناً على الأسرار، صديقاً يمتص كل ما يباح له ولا يفشي قط منها شيئاً، ودوما يقدم خير النصح - ويمكن أن تفسر أصواته الطافحة بالمعنى على أي وجه تريد. بالنسبة لألبيرتو، هو منظر جديد مشوش بغرابة، والحدة، التي تتابع بها عيناه كل موجة تتجمع وترتفع ثم تهمد على الشاطىء، تعكس دهشته. ألبيرتو، المقترب من الثلاثين، يرى الأطلسي أول مرة ويغمره الاكتشاف الذي يعني عدداً لا متناهياً من الدروب إلى كل أطراف العالم. يملأ الهواء العليل الحواس بقوة البحر وحالته، يتحول كل شيء إثر لمسته، حتى كمباك[1] بأنفه الصغير الغريب الشامخ يحدق في الأشرطة الفضية المنتشرة أمامه عدة مرات في الدقيقة.

كمباك، رمز وكائن قادر على البقاء حياً في آن: رمز الوحدة التي تريد عودتي، حي رغم حظه التعس – سقطتان عن الدراجة (إحداهما طار وحقيبته من المقعد الخلفي) – إسهال بطنه المتواصل وحتى أن داسه مرة حصان.

---

(1) Comeback الاسم الإنجليزي المستعار الذي أطلقه إرنستو على الكلب الصغير الذي يأخذه إلى صديقته "تشيتشينا" التي تقضي عطلتها في ميرامار.

نحن في فيليا خيسيل، شمال مار ديل بلاتا، نحظى بكرم ضيافة بيت عمي ونراجع أول 1200 كلم – من الجلي أنها الأسهل، رغم أنها تمنحنا حسا صحيا بالمسافات. لا ندري إن كنا سنصل إلى هناك أم لا، لكننا نعلم أن بلوغ ذلك سيكون صعباً – على الأقل هكذا كان انطباعنا في تلك المرحلة. ألبيرتو يضحك على خططه بالغة التفاصيل بدقة، التي ينبغي أن نكون وفقها قد اقتربنا من النهاية، بينما نحن في الواقع كنا قد بدأنا منذ برهة فقط.

غادرنا خيسيل محملين بمؤونة من الخضار وعلب اللحم المحفوظ "تبرع" بها عمي. طلب منا أن نرسل له برقية من باريلوتشي – إذا وصلنا إلى هناك – حتى يمكنه أن يشتري برقم البرقية ورقة يانصيب، ما بدا لنا في غاية التفاؤل. في تلميح سخر الآخرون من أن الدراجة ستكون ذريعة جيدة للسفر ركضاً.. الخ، وبالرغم من تصميمنا القوي على إثبات أنهم مخطئون، أبقتنا خشية طبيعية من التصريح بثقتنا المتبادلة.

يحافظ كمباك طوال الطريق الساحلي على نبضاته الملاحية، خارجاً دون أن يصاب بأذى من اصطدام آخر آت. يصعب التحكم بالدراجة النارية مع وجود ثقل إضافي على الحامل الكائن خلف مركز الجاذبية ينحو لرفع العجل الأمامي، ويجعلنا أدنى هفوة في التركيز نطير في الهواء. نتوقف عند قصاب ونشتري بعض اللحم للشواء، وقليلاً من الحليب للكلب الذي لا يحاول حتى تذوقه. ينتابني قلق على صحة الحيوان الصغير أكثر من المال المدفوع ثمناً للحليب. ظهر أن اللحم لحم حصان وحلو جداً حتى إننا لم نقدر على تناوله. ضجراً ألقي بالقطعة بعيداً، ومن المدهش أن يلتهمها الكلب بنهم دفعة واحدة. ألقي له بقطعة أخرى ويتكرر الأمر ثانية. حميته في عدم تناول الحليب تنتهي. في غمرة صخب المعجبين بكمباك، أدخل، هنا ميرمار...

لا ترمي هذه اليوميات في الواقع إلى سرد تلك الأيام في ميرامار، حيث وجد كمباك بيتاً جديداً يقطنه، مع مقيم واحد فقط موجه اسم كمباك[1] إليه خصيصاً. توقفت رحلتنا مؤقتاً في ملاذ التردد، وخضعت لكلمات تمنح القبول وتفرض الالتزام.

رأى أبيرتو الخطر وتخيل نفسه وحيداً في طرق أمريكـــا، وإن لم يرفع صوته بتاتاً. كان الصراع بينها وبيني. لبرهة حين غادرت منتصراً، أو هكذا حسبت، صدحت كلمات أوترو سيلفا في أذني:

سمعت رشاش ماء على القارب
قدميها العاريين
وأحسست الغسق الجائع
في وجهينا
قلبي متأرجح بينها
وبين الشارع، الطريق
لا أدري أين وجدت القوة
لأحرر نفسي من عينيها
أنسل من ذراعيها
مَكَثَتْ، باكية من خلل المطر والزجاج
مدثرة بالأسى والدموع
مَكَثَتْ، غير قادرة على البكاء
أنتظر! سآتي
لأمضي معك.[2]

---

(1) الإشارة هنا إلى معنى (كمباك) بالإنجليزية : ارجع.
(2) ميغيل أوتيروا سيلفا – شاعر وروائي يساري من فنزويلا، ولد سنة 1908

شككت لاحقاً إن كانت قطعة الخشب الطافية على حق في قولها "ربحت" حين يلقي بها المد على الشاطىء الذي تريد. غير أن هذا كان لاحقاً ولا أهمية له الآن. امتد اليومان اللذان خططت لهما إلى ثمانية، وباختلاط مذاق الحلاوة المرة للوداع مع تنفسي الرديء المتأصل، شعرت أخيراً أني بالتأكيد أرتقي في رياح المغامرة نحو عوالم تصورت أنها أغرب مما هي عليه في الواقع، إلى مواضع تخيلت أنها قد تكون عادية أكثر مما هي عليه.

أذكر يوم جاء صديقي البحر إلى حصني ليخلصني من الإهمال الذي لعنت به. كان الشاطىء مهجوراً ورياح باردة تهب عليه. رأسي مستريح في الحضن، يربطني إلى هذه الأرض، ويهدهده كل ما في الجوار. هام الكون برمته بإيقاع، مذعناً لنبرات صوتي الداخلي. فجأة، جلبت هبة ريح قوية صوت بحر مختلف، رفعت رأسي دهشة، لم يبد شيئاً، إنذار خاطىء. استلقيت على ظهري عائداً مرة أخرى في أحلامي إلى الحضن المداعب. من ثم، وللمرة الأخيرة، سمعت تحذير المحيط. دق إيقاعه الفسيح المرتج الحضن الكائن داخلي، مهدداً سكونه المهيب.

شعرنا بالبرد فتركنا الشاطىء، هاربين من الوضع المزعج الرافض تركي وحيداً. رقص البحر على امتداد الشاطىء الصغير، لا مباليا بناموسه السرمدي، مفرخاً ملاحظة احتراسه، تحذيره. لكن الرجل العاشق (رغم استخدام ألبيرتو كلمة أكثر إفراطاً وأقل صقلاً) ليس في حالة ليصغي إلى مثل هذا النداء من الطبيعة في جوف عربة بويك ضخم. كان ذاك الجانب البرجوازي في عالمي الذي ما زال تحت التكوين.

الوصية الأولى لكل مكتشف جيد هي: في الحملة نقطتان، نقطة الإقلاع ونقطة الوصول. إذا كانت غايتك جعل النقطة النظرية الثانية تتطابق مع نقطة الوصول الفعلية، لا تفكر بالوسائل – لأن الرحلة فضاء فعلي ينتهي عندما تنتهي، وهناك عدة وسائل كما أن هناك أساليب مختلفة "للإنهاء". بعبارة أخرى، الوسائل لا متناهية.

تذكرت اقتراح ألبيرتو:"السوار، وإلا أنت لست من تعتقد أنك بالفعل."

احتفت يدا تشيشينا في تجويف يديّ.

" تشيشينا، ذاك السوار... يمكنني أخذه ليهديني السبيل ويذكرني بك؟"

يا للفتاة المسكينة! أعلم أن الذهب لم يكن في الحسبان، رغم ما يقولون، كانت أناملها الممسكة بالسوار تزن الحب الذي دفعني لطلبه فقط. صدقاً هذا، على الأقل، ما حسبته. يقول ألبيرتو (ببعض العبث، على ما يبدو لي) إنك لست بحاجة إلى أصابع حساسة خاصة لتزني 29 قيراطاً كاملة من حبي.

قطع آخر صلة

غادرنا، توقفنا من ثم في نيكوشيا حيث يتدرب صديق قديم لألبيرتو من أيام الدراسة. قطعنا المسافة بسهولة في الصباح، ووصلنا في وقت مناسب لتناول غداء من لحم مشوي. قوبلنا بالترحاب من الصديق، وإن لم يكن كذلك من زوجته التي لاحظت الخطورة الكامنة في أساليبنا البوهيمية الثابتة.

"أمامك سنة واحدة فقط للتأهل كطبيب، ومع ذلك تسافر؟ أليست عندك فكرة متى ستعود؟ لكن لماذا؟"

لم نملك إجابات محددة على أسئلتها، وهذا ما أرعبها. كانت دمثة معنا غير أن عداءها كان جلياً، رغم علمها (على الأقل أظن أنها علمت) أن النصر النهائي كان بجانبها وأن زوجها غير قابل "للتحرر".

زرنا في مار ديل بلاتا طبيباً صديقاً لألبيرتو انضم إلى حزب [بيرون] مع كل ما يترتب على ذلك من امتيازات. بقي ذاك الطبيب في نيكوتشيا مخلصاً لمتطرفيه - مع ذلك كنا متباعدين. لم يكن دعم المتطرفين قط موقفاً سياسياً يمكن الدفاع عنه بالنسبة لي كما أنه كان يفتقر لأي أهمية بالنسبة لألبيرتو الذي كان مقرباً في وقت ما من بعض "القادة" الذين احترمهم.

عندما ركبنا الدراجة ثانية، وبعد أن شكرنا الزوجين على الثلاثة أيام من الحياة الهانئة، انطلقنا إلى باهيا بلانكا، شاعرين بوحدة أكثر لكن بحرية أرحب. كان هناك أصدقاء في انتظارنا أيضاً، أصدقائي هذه المرة، قابلونا بدورهم بمودة وحرارة وكرم. قضينا بضعة أيام في هذا الميناء الجنوبي حيث أصلحنا الدراجة وهمنا في المدينة دون هدف محدد. كانت تلك آخر الأيام التي لم يكن علينا التفكير فيها بالمال. بعد ذلك، توجب اتباع حمية قاسية من اللحم وعصيدة دقيق الذرة والخبز للتوفير في مالنا الضئيل. أصبح طعم الخبز الآن مصحوباً بتحذير "لن آتي بيسر بعد حين أيها العجوز" فالتهمناه بحماس أشد. أردنا، مثل الإبل تعزيز مخزون الرحلة القادمة.

أصبت في الليلة السابقة لمغادرتنا بالسعال وارتفاع درجة الحرارة، وعليه تأخرنا يوماً في باهيا بلانكا. أخيراً، في الثالثة بعد الظهر، غادرنا في لهب شمس حارقة وما إن وصلنا الكثبان الرملية حول ميدانوس حتى ازدادت حرارة. استمرت الدراجة، بحملها سيئ التوزيع، في الوثب مما صعب السيطرة عليها، وداومت العجلات في الدوران. خاض ألبيرتو معركة شاقة ضد الرمال مصراً على الانتصار. الشيء المؤكد أننا وجدنا أنفسنا نجلس مرتاحين على الرمال ست مرات قبل أن نصل أخيراً إلى

الأرض المنبسطة. مع ذلك نجحنا في الخروج وهذه حجة رفيقي الرئيسة في ادعاء الانتصار على ميدانوس.

أخذت المبادرة من تلك النقطة، زائداً السرعة لتعويض الوقت الضائع الثمين. غطى رمل ناعم جزءاً من منعطف الطريق و – بوم: أسوأ حادث في الرحلة كلها. لم يصب ألبيرتو بأذى، لكن قدمي حشرت وحرقتها أسطوانة المحرك (**cyulinder**) قليلاً، مخلفة ذكرى سيئة بقيت وقتاً طويلاً لأن الجرح لم يلتئم.

أجبرنا انهمار مطر شديد على البحث عن ملجأ في مزرعة غير أن الوصول إليها استدعى صعود 300 متر من درب موحل، وسقطنا طائرين مرتين أخريين. كان استقبالهم رائعاً، لكن حصيلة التجربة الأولى في دروب غير سالكة كان نذير خطر: تسع حوادث في يوم واحد. على أسرة المخيم، الأسرة الوحيدة التي سنعرفها من الآن فصاعداً، مستلقين بجانب "الجبارة"، منزلنا الشبيه بالحلزون، ما فتئنا ننظر إلى المستقبل بفرح نافد الصبر. بدا أننا نتنفس بحرية أوسع هواءً أخف، هواء المغامرة. دارت حولنا في خيالاتنا الهائجة بلاد نائية ومآثر بطولية ونساء جميلات.

رفضت عيناي المتعبتان النوم، ودارت فيهما كدوامة قطعتان من الأرض الخضراء، ممثلتان عالم الموتى الذي غادرته وخلفته ساخراً مما يدعى بالتحرر الذي أنشده. شدا صورتهما إلى هروبي غير العادي عبر أراضي العالم وبحاره.

علاج الإنفلونزا، سرير

تثاءبت الدراجة على الطريق الطويل الخالي من الحوادث مللاً وأرسلنا نحن من تعبنا زفيراً. حولت القيادة على طريق مغطى بالحصى

الرحلة الممتعة مشقة. بحلول الليل، بعد يوم كامل من تبادل القيادة، غمرتنا رغبة عارمة بالنوم عوض الاستمرار في بذل جهد لبلوغ تشولي تشويل، بلدة كبيرة، تسنت لنا فيها فرصة إقامة مجانية. لذا توقفنا في بينحامين زوريللا، واستقررنا مرتاحين في حجرة في محطة السكة الحديدية، حيث هجعنا غير عابئين بالعالم.

استيقظنا باكراً في صبيحة اليوم التالي، لكن حين ذهبنا لجلب الماء لعمل "المتة" انتاب جسدي إحساس غريب عقبه ارتعاش طويل. بعد عشر دقائق كنت أرتعش بشكل يتعذر ضبطه مثل شخص مسكون. لم تقدم حبوب الكينين فرقاً يذكر. كان رأسي مثل طنبور يدق إيقاعات غريبة، وتغيرت ألوان عجيبة دون شكل فوق الجدران وغثيان يائس أخرج قيئاً أخضر اللون. قضيت اليوم على هذا الحال غير قادر على تناول الطعام، نائماً على كتف ألبيرتو حتى وصلنا تشولي تشويل. زرنا هناك الدكتور باريرا، مدير المستشفى الصغير وعضو البرلمان. استقبلنا بالترحاب وقدم لنا حجرة ننام فيها. وصف لي مجموعة من جرعات البنسلين وفي غضون أربع ساعات انخفضت حرارتي، لكن كلما تكلمنا عن المغادرة هز الطبيب رأسه وقال: "علاج الانفلونزا: سرير" (كان هذا تشخيصه لحالة أفضل) وهكذا قضينا بضعة أيام هناك، حيث اعتنى بنا كملوك.

صورني ألبيرتو في ملابس المستشفى. كنت منظراً رائعاً: هزيلاً، متورداً، عيوناً واسعة ولحية مضحكة لم يتغير شكلها كثيراً طوال الأشهر التي أطلقتها. من المحزن أن الصورة لم تكن جيدة. كانت تعبيراً عن ظروفنا المتغيرة والآفاق التي نرنو إليها، متحررين أخيراً من "الحضارة".

في صباح يوم لم يهز الطبيب رأسه كعادته. كان ذلك كافياً. في غضون ساعة كنا مغادرين متجهين غرباً إلى هدفنا القادم: البحيرات. كافحت الدراجة مبدية علامات الإجهاد، خاصة في تصليح الأجزاء التي علينا دوماً إصلاحها بقطعة غيار ألبيرتو المفضلة – السلك. اقتطف جملة

من مكان ما، لا أدري من أين، ناسباً إياها إلى أوسكار غالفيز[1]: "عندما يمكن لسلك أن يحل مكان برغي، أعطني السلك لأنه أكثر أماناً." كانت أيدينا وسراويلنا الدليل الجلي على أننا نتفق مع غالفيز، على الأقل في مسألة السلك.

حل الليل قبل قليل، ومع ذلك حاولنا الوصول إلى موطن بشري، لم تكن أضواء الدراجة القوية تعمل و لم يبدُ قضاء الليلة في العراء فكرة جيدة. كنا نتحرك ببطء مستخدمين مشعلاً يدوياً، حين دوى صوت غريب من الدراجة لم نستطع تحديده. لم يلق المشعل اليدوي ضوءاً كافياً لمعرفة السبب و لم يترك لنا خيار سوى التخييم حيث كنا. استقررنا على أفضل ما يمكننا فعله، ناصبين خيمتنا، زاحفين داخلها على أمل أن يسكن جوعنا وعطشنا النوم المضني (لم نتناول اللحم لعدم وجود ماء في الجوار). مع ذلك أصبح نسيم المساء العليل في وقت قصير ريحاً عاتية خلعت خيمتنا وعرضتنا لعوامل البرد المزدادة سوءاً. أجبرنا على ربط الدراجة بعمود هاتف، ألقينا عليها الخيمة لحمايتها واستلقينا خلفها. منعنا ما يشبه الإعصار من استخدام فراش التخييم. لم تكن ليلة سارة بأي حال من الأحوال، غير أن النوم تغلب أخيراً على البرد والريح وكل شيء آخر. استيقظنا في التاسعة صباحاً والشمس الحارة فوق رؤوسنا.

اكتشفنا في نور النهار أن الصوت الشائن كان الجزء الأمامي من كابح الدراجة، وعلينا الآن إصلاحه على أفضل وجه ممكن حتى نجد بلدة يمكننا فيها لحم القضيب المعدني المكسور. حل صديقنا، السلك، المشكلة مؤقتاً. حزمنا أمتعتنا وانطلقنا دون أن ندري بالضبط كم تبعد عن أقرب مكان مأهول. ولكن دهشنا حين درنا حول أول منعطف ورأينا بيتاً أحسن أهله استقبالنا وأشبعوا جوعنا بلحم ماعز مشوي لذيذ. من هناك سرنا 20 كم إلى مكان يدعى بييدرا ديل أغيلا حيث تمكنا من لحم القطعة. قررنا لتأخر الوقت قضاء الليلة في بيت الميكانيكي.

---

(1) بطل سباق سيارات أرجنتيني.

باستثناء تسربين صغيرين لم يؤديا إلى خراب كبير في الدراجة، استمررنا منطلقين بهدوء صوب سان مارتن دي لوس أنديز. كنا على وشك الوصول وأنا أتولى القيادة عندما حدثت سقطتنا الحقيقية الأولى في الجنوب، عند منعطف جميل من الحصباء قرب جدول صغير متدفق. كان خراب "الجبارة" هذه المرة كافياً لإجبارنا على التوقف، وأسوأ من كل شيء آخر، وجدنا أكثر ما كنا نخشاه: ثقب في الدولاب الخلفي يتطلب إصلاحه إنزال كل الحمولة وحل السلك المحافظ على "سلامة" معلف الدولاب، ثم كافحنا وغطاء العجل الذي تحدى عتلتنا المثيرة للشفقة. استغرقنا تغيير الدولاب المثقوب (بكسل أعترف به) مدة ساعتين. توقفنا في وقت متأخر من بعد الظهر بمزرعة صادف أن استضاف أصحابها، ألمان كرماء جداً، عمي في الماضي، مدمن ترحال أترسم الآن خطاه. سمحوا لنا بصيد السمك في نهر منساب عبر المزرعة. ألقى ألبيرتو بخيطه في الماء، وقبل أن يعي ما يجري، كان في الطرف الراقص لنهاية صنارته شكل متوهج متقزح اللون في ضوء الشمس، سلمون مرقط كقوس قزح، سمكة جميلة ولذيذة المذاق (وحتى ألذ عندما تطهى وتتبل ببهارات جوعنا). رحت أحضر السمكة في حين ألقى ألبيرتو، المنتشي بانتصاره الأول هذا، خيطه مرة أخرى وأخرى في الماء. لم تقبل سمكة على الطعم رغم ساعات من المحاولة. حل المساء وكان علينا قضاء الليلة في مطبخ عمال المزرعة.

في الخامسة صباحاً أُشعل الموقد الذي يحتل وسط هذا النوع من المطابخ وامتلأ المكان كله بالدخان. تناول عمال المزرعة "المتة" المرة وقذفونا بعبارات السخرية "متة للفتيات" كما يصفون المتة الحلوة في تلك المناطق. عموماً لم يحاولوا التواصل معنا، كما هي العادة المتبعة عند جنس "الأروكان" المستبعد الشاك بعمق في الرجل الأبيض الذي سبب له في الماضي كثيراً من المصائب ويستمر الآن في استغلالهم. أجابوا على أسئلتنا حول الأرض وعملهم بهز أكتافهم "لا أعرف" أو "ربما" واضعين حداً للحديث بسرعة.

سنحت لنا الفرصة لملء بطوننا بكمية كبيرة من الكرز، حتى إننا في الوقت الذي انتقلنا فيه للخوخ أجبرت على الاستلقاء لهضمه. تناول ألبيرتو قليلاً منه كي لا يبدو فظاً. فوق الشجر أكلنا بشراهة كما لو كنا نتسابق من ينتهي أول. نظر أحد أبناء مالك المزرعة ببعض الريبة إلى هذين "الطبيبين" مهلهلي الهندام والجائعين بوضوح، لكنه بقي صامتاً وتركنا نأكل حتى أصبنا بالتخمة. وصلنا إلى نقطة أجبرنا فيها على السير ببطء كي نتجنب وطء بطنينا.

صلحنا دواسة التشغيل ومشاكل أخرى صغيرة وانطلقنا ثانية إلى سان مارتين دي لوس أنديز حيث وصلناها قبل حلول الظلام.

سان مارتين دي لوس أنديز

تتلوى الطريق بين سفح التلال التي تسبر بداية سلسلة جبال الأنديز، ثم تهبط منحدرة حتى تصل بلدة بائسة غير جذابة محاطة بنقيض حاد من الجبال العظيمة الكثيفة المشجرة. تجثم سان مارتين على السفوح الخضراء المصفرة الذائبة في أعماق زرقة لاغونا لاكار، لسان مائي ضيق يبلغ عرضه 35 متراً وطوله 500 كلم. حلت يوم "اكتشافها" كمنتجع سياحي مشاكل الطقس والمواصلات فيها وضمن مورد رزقها.

فشل هجومنا الأول على العيادة المحلية فشلاً ذريعاً، لكننا أخبرنا أن نحاول التكتيك نفسه مع مكاتب "الحدائق الوطنية". سمح لنا المشرف على الحديقة البقاء في سقيفة معدات. وصل الحارس الليلي، رجل ضخم متين يزن 140 كغم وجهه قاس كالمسامير، لكنه عاملنا بلطف وسمح لنا بالطهي في كوخه. مرت الليلة الأولى بشكل رائع. نمنا في السقيفة

راضيين دافئين فوق القش الضروري بالتأكيد في تلك المناطق حيث الليالي قارسة البرودة.

اشترينا بعض لحم البقر وسرنا على طول ضفة البحيرة. في ظل الأشجار الباسقة حيث تكبح البرية تقدم الحضارة، وضعنا خططاً لتشييد مختبر في ذلك المكان عندما تنتهي رحلتنا. تخيلنا نوافذ ضخمة تستوعب البحيرة كلها، شتاء يدثر الأرض بغطاء أبيض، ونستخدم زورقاً صغيراً للانتقال من ضفة إلى أخرى، نصطاد السمك من قارب صغير ونقوم بنزهات إلى الغابة شبه العذراء.

بالرغم من كثرة توقفنا أثناء ترحالنا للمكوث في مناطق هائلة زرناها، إلا أن غابات الأمازون وحدها قد استحضرت ذلك الجانب غير المرتحل فينا بقوة كتأثير هذا المكان علينا.

أدري الآن، بانسجام مميت مع الحقائق، أن مصيري هو الترحال، أو ربما من الأفضل القول إن الترحال مصيرنا، إذ أن ألبيرتو مثلي. مع ذلك، ثمة لحظات عندما أفكر بشوق عميق في تلك المناطق الرائعة من جنوبنا. ربما يوماً، وقد أضناني الدوران في العالم، أعود إلى الأرجنتين، وأستقر في بحيرات الأنديز، إن ليس بشكل نهائي فعلى الأقل وقفة قصيرة في غمرة تنقلي من فهم للعالم إلى آخر.

في الغسق شرعنا عائدين، وحلت الظلمة قبل وصولنا. دهشنا فرحين حين وجدنا دون بيدرو أولاتي، الحارس الليلي، قد أعد شواء رائعاً لنا. ابتعنا نبيذاً في المقابل والتهمنا الطعام كأسود للقيام بشيء مغاير. كنا نناقش مقدار لذة اللحم وكيف يتسنى لنا الأكل بإسراف كما نفعل في الأرجنتين، عندما أخبرنا دون بيدرو أنه قد طلب منه تنظيم حفل شواء سائقي سباق سيارات سيحري في ساحة السابق المحلية يوم الأحد القادم. أراد مساعدين لذا عرض علينا القيام بذلك. "تذكروا أنني لا أستطيع الدفع لكما، لكن يمكنكما أخذ مخزون من اللحم للأيام القادمة."

بدت فكرة جيدة، قبلنا وظيفتي المساعد الأول والثاني في حفل شواء جراندادي في جنوب الأرجنتين.

انتظر المساعدان يوم الأحد بنوع من الحماس الديني. في السادسة من صباح ذلك اليوم، بدأنا العمل في أولى وظائفنا – تحميل حطب في شاحنة وأخذه إلى موقع حفل الشواء. لم نتوقف عن العمل حتى الحادية عشرة صباحاً حين أعطيت إشارة مميزة ألقى كل واحد على إثرها بنفسه بنهم على الضلوع اللذيذة.

كانت الأوامر تصدر من شخص غريب خاطبته باحترام كبير بقولي "سنيوره" كلما تفوهت بكلمة، حتى قال أحد زملائي العمال: "أيها الفتى، تشي، لا تبالغ مع دون بيندون، وإلا سيغضب."

"من دون بيندون؟" سألت بإيماءة قد يقوم بها فتى غير مهذب. جواب أن دون بيندون كان السنيورة أحبطني، لكن ليس طويلاً.

كما في حفلات الشواء، كانت هناك كميات هائلة من اللحم لكل فرد، لذا منحنا تفويضاً مفتوحاً للاستمرار في مهمتنا كإبل. علاوة، نفذنا خطة محسوبة بدقة. تظاهرت بأني ثمل يزداد سكراً ومع كل نوبة غثيان، أهرع مترنحاً إلى الجدول وزجاجة نبيذ أحمر مخفية داخل معطفي الجلدي. بعد خمس نوبات من هذه كان عندنا عدد مماثل من لترات النبيذ مخزنة تحت سعف شجرة صفصاف، لتبرد في الماء. عندما انتهى كل شيء وجاءت لحظة حزم الأمتعة في الشاحنة والعودة إلى البلدة، حافظت على أداء دوري، العمل على مضض والتشاحن باستمرار مع دون بيندون. لأنهي أدائي، استلقيت على ظهري فوق العشب، غير قادر على القيام بخطوة أخرى. اعتذر ألبيرتو، ممثلاً دور الصديق المخلص، على سلوكي للمدير وتخلف للاعتناء بي عند مغادرة الشاحنة. حين اختفى صوت المحرك في البعيد، قفزنا متسابقين كمهرين إلى النبيذ الذي سيضمن لنا بضعة أيام من استهلاك يليق بملك.

وصل ألبيرتو أولاً وألقى بنفسه تحت شجرة الصفصاف: كان وجهه كوجه من فيلم كوميدي. لم تكن هناك زجاجة نبيذ واحدة. إما حالة سكري لم تخدع أحداً، أو أن شخصاً رآني أتسلل إلى هناك مع النبيذ. كنا في الواقع مفلسين كالعادة، نستعيد في ذهننا الابتسامات التي حيت سلوكي حين أكون ثملاً، ونحاول العثور على أثر لسخرية القدر التي تمكننا من معرفة اللص. دون جدوى. قفلنا عائدين إلى البلدة، حاملين قطع الخبز والجبن التي تلقيناها وبعض كيلوغرامات من اللحم لتلك الليلة.

كنا شبعانين وشاربين جيداً، لكن مع وجود ذنبين بين سيقاننا، لا بسبب النبيذ بل للحماقة التي وصمونا بها، ليس بوسع الكلمات وصف ذلك.

كان اليوم التالي ماطراً بارداً، فحسبنا أن السباق لن يجري. كنا في انتظار توقف المطر برهة للذهاب وطهي بعض اللحم قرب البحيرة، عندما ترامى إلى سمعنا عبر مكبرات الصوت أن السباق سيجري. دخلنا مجاناً كوننا مساعدين في حفل الشواء عبر بوابة المدخل وجلسنا مرتاحين نشاهد سباقاً جيداً نوعاً ما لسائقي البلاد.

وبينما كنا نفكر في التحرك ونقاش أفضل طريق نتبعه أثناء شرب المتة على باب السقيفة، وصلت عربة جيب تقل بعض أصدقاء ألبيرتو من فيليا كونسيبسيون ديل تيو النائية والأسطورية نوعاً ما. تعانقنا بحرارة ومودة وذهبنا مباشرة للاحتفال بملء أحشائنا بالسائل الخفيف المزبد، كما جرت العادة المبجلة في مثل هذه المناسبات.

دعونا لزيارتهم في بلدة خونين دي لوس أنديز حيث يعملون. وهكذا ذهبنا مخففين حمولة الدراجة بترك حاجياتنا في سقيفة الحدائق الوطنية.

اكتشاف دائري

خونين دي لوس أنديز، الأقل حظاً من أختها القابعة على جانب البحيرة، تحيا بخمول في ركن منسي من الحضارة، وعاجزة عن التحرر من رتابة حياتها الراكدة، رغم محاولات إنعاش البلدة ببناء الثكنات التي يعمل فيها أصدقاؤنا. أقول أصدقاؤنا لأنهم أصبحوا أصدقائي أيضا بسرعة هائلة.

كرسنا الليلة الأولى لاستعادة الذكريات البعيدة لما سلف في فيليا كونسيبسيون، وزجاجات غير محددة من النبيذ الأحمر على ما يبدو تعزز مزاجنا. كان انعدام تدريبي يعني أن علي التخلي عن المسابقة وتشريف فراش حقيقي بالنوم فيه مثل لوح خشبي.

قضينا اليوم التالي في إصلاح بعض مشاكل الدراجة في ورشة الشركة التي يعمل فيها أصدقاؤنا. في تلك الليلة أعدوا لنا وداعاً أرجنتينياً عظيماً: لحم بقر وماعز مشوي مع خبز وصلصة مرق لحم وسلطة خضار رائعة. بعد بضعة أيام من الاحتفال، غادرنا بمحاذاة طريق كارّو، بحيرة أخرى في المنطقة. كانت الطريق رديئة وزفرت دراجتنا في الرمال أثناء محاولتي مساعدتها للخروج من الكثبان. استغرقتنا الخمس كيلومترات الأولى ساعة ونصف الساعة. تحسنت الطريق لاحقاً ووصلنا كارّو تشيكو دون عثرة أخرى، بحيرة صغيرة زرقاء مخضرة محاطة بتلال غابات برية، ثم في كارّو جراند، بحيرة أوسع لكن من المحزن أن الدوران حولها بدراجة مستحيل لوجود ممر خاص يستخدمه مهربو المنطقة للعبور إلى تشيلي.

تركنا الدراجة في كوخ حارس الحديقة الذي لم يكن هناك، وشرعنا في تسلق الهضبة المقابلة للبحيرة. دنا موعد الغداء المكون من قطعة جبن وبعض المعلبات المحفوظة فقط. مرت بطة محلقة عالياً فوق البحيرة. حسب ألبيرتو مسافة بعد الطير، غياب الحارس، إمكانية دفع غرامة الخ وأطلق الرصاص. بضربة حظ سديدة (ليس للطير طبعاً) سقطت البطة في البحيرة. اندلع نقاش في الحال حول من سيذهب لجلبها. خسرت وخضت في الماء. بدا أن أصابع جليد تمسك بكل جسدي وتكبح حركتي كلياً تقريباً. بسبب حساسيتي للبرد، عانيت مثل بدوي لسباحتي العشرين متراً ثم الإياب لجلب ما صاده ألبيرتو. من جهة أخرى، كانت البطة المشوية المتبلة ببهارات جوعنا كالعادة طبعاً شهية.

شرعنا وقد أنعشنا الغداء في التسلق بحماس. مع ذلك رافقنا ذباب أحاط بنا دون انقطاع، يقرصنا حين تحين له الفرصة. كان التسلق مرهقاً لافتقارنا للمعدات المناسبة والتجربة، لكن بعد بضع ساعات مضنية بلغنا القمة. خاب ظننا لعدم وجود منظر شامل عريض يثير الإعجاب، إذ حجبت الجبال المجاورة كل شيء، وهناك قمة أعلى في كل صوب نظرنا إليه. بعد دقائق من تبادل النكات في رقع الثلج التي تتوج القمة، انهمكنا في مهمة الهبوط، تحثنا حقيقة أن العتمة ستحل بعد حين. كان الجزء الأول سهلاً، لكن المجرى الذي يهدي درب هبوطنا ازداد انحداراً جارفاً، جانباه ناعمان وصخوره زلقة يصعب السير عليها. توجب علينا شق طريقنا عبر شجر صفصاف الحافة. أخيراً وصلنا منطقة مكسوة بقصب كثيف غادر. جلب حلول الظلام ألف صوت غريب وحساً بالسير في فضاء فارغ مع كل خطوة. فقد ألبيرتو

نظارته الجاحظة وأصبح سروالي أسمالاً بالية. وصلنا بعد لأي خط الشجر ومن هناك رافق حرص شديد كل خطواتنا، لأن العتمة كانت مطبقة وبلغت حاستنا السادسة ذروتها حين رأينا هاوية بلا قرار في كل لحظة.

بعد شق طريقنا اللامتناهي في الوحل العميق، تعرفنا على الجدول المنساب إلى كارّو. في الحال احتفت الأشجار ووصلنا أرضاً منبسطة. توارى في فروته أيل ضخم منطلقا كنسمة سريعة عبر الجدول، جسمه فضي في نور القمر الساطع. طعنت رعشة الطبيعة هذه قلوبنا. سرنا الهوينا كي لا نزعج سكون حرم البرية التي نتواصل معها الآن بمودة.

خضنا المجرى المائي الهزيل فذكرتني لمسته لكاحلي بحدة لسعة أصابع الجليد التي أمقتها، حتى وصلنا كوخ حارس الحديقة، الذي من لطفه قدم لنا المتة الحارة وجلد خراف نرقد عليها حتى صباح اليوم التالي. بلغت الساعة 12:35.

قدنا الدراجة ببطء عائدين. مررنا ببحيرات ذات جمال مهجن مقارنة بكارّو، حتى وصلنا سان مارتن حيث نقد دون بيندون كل منا 10 بزوس أجر العمل في حفل الشواء. بعدها انطلقنا إلى الجنوب.

أمي العزيزة

يناير/كانون الأول 1952

في الطريق إلى باريلوتشي

أمي العزيزة،

كما لم يصلك شيء من طرفي، لم أسمع أخبارك وهذا ما يشعرني بالقلق. قد أتخلى عن هدف بضعة السطور هذه لأخبرك كل ما جرى لنا. سأقول بعد يومين من مغادرتنا باهيا بلانكا، أصابني مرض رفع

حرارتي إلى 40 درجة وأبقاني طريح الفراش مدة يوم كامل. استطعت في صباح اليوم التالي النهوض لينتهي بي الحال في مستشفى منطقة تشولي تشول حيث أعطيت جرعة من دواء غير معروف جداً، بنسلين، استعدت على إثره عافيتي بعد أربعة أيام.

وصلنا سان مارتين دي لوس أنديز، مستخدمين سعة حيلتنا المعتادة لحل ألف معضلة أزعجتنا في الطريق. في سان مارتين دي لوس أنديز بحيرة جميلة تقع في منطقة جميلة وسط غابة بكر. ينبغي عليك رؤيتها، أنا على يقين أنك ستجدينها تستحق العناء. أصبح وجهانا يشبهان تركيبة الكاربورندوم[1]. نبحث في كل بيت بحديقة نصادفه عن طعام ومأوى وكل ما يمكنهم تقديمه. انتهى بنا المقام في مزرعة فون بوتنامرز، أصدقاء لجورجي، خاصة واحد بيروني، ثمل دوماً، وأفضل الثلاثة. استطعت تشخيص ورم في منطقة مؤخرة الرأس. علينا الانتظار لنرى ما سيحدث. سنغادر إلى باريلوتشي في غضون يومين أو ثلاثة، وقد عزمنا على السفر بإيقاع ممتع مريح. أرسلي لي رسالة تبقى في مكتب البريد لحين استلامها إذا أمكن وصولها في 10 أو 12 يوماً من شهر فبراير/ شباط. حسناً، يا أمي، الصفحة التالية سأكتبها لتشيشينا. بلغي محبتي للجميع وتأكدي من إبلاغي إن كان أبي في الجنوب. عناق حار من ابنك.

طريق البحيرات السبع

قررنا الذهاب إلى باريلوتشي عبر طريق البحيرات السبع، التي سميت نسبة لعدد البحيرات التي يلتف حولها الطريق قبل بلوغ البلدة.

---

[1] مركب شديد الصلابة يستخدم في الصقل والكشط -المترجم

سرنا أول بضع كيلومترات على إيقاع "الجبارة" الهادىء دون أي إزعاج ميكانيكي جدي. وحلول الليل يطاردنا، لجأنا إلى حيلة سحب الضوء الأمامي القديم المكسور كي يمكننا النوم في كوخ عامل طريق، حيلة ملائمة، لأن برد تلك الليلة كان قارساً بشكل استثنائي، حتى أن زائراً ظهر بعد حين طالباً استعارة بعض الأغطية لأنه يخيم وزوجته على حافة البحيرة وتجمدا من البرد. ذهبنا لشرب المتة مع هذين الزوجين الرواقيين[1]، اللذين كانا يمكثان قرب البحيرة في خيمة مع بعض حاجياتهم فقط. لقد أشعرانا بالخجل.

انطلقنا ثانية مارين ببحيرات مختلفة اختلافا كبيرا، كلها محاطة بغابة قديمة وشذا البرية يداعب خشمينا. لكن من الغريب أن منظر بحيرة وغابة وبيت منعزل بحديقة معتنى بها سرعان ما بدا مزعجاً. إن مشاهدة منظر طبيعي من هذا المستوى السطحي لا تلتقط إلا التشابه النمطي الممل، إذ لا يسمح لك بغمس نفسك في روح المكان، الذي لن يتسنى لك إلا بالتوقف هناك بضعة أيام. أخيراً وصلنا نهاية لاغو باهويل هوبي الشمالية ونمنا على ضفافها راضيين ممتلئين بعد وليمة شواء ضخمة تناولناها. لكن حين عدنا إلى الطريق لاحظنا ثقباً في العجلة الخلفية، وعندئذ خضنا معركة مضنية مع الإطار الداخلي. كلما رقعنا جانباً يثقب جانب آخر من الإطار، حتى لم يعد عندنا مزيد من الرقع، فأجبرنا على قضاء الليلة حيث كنا. قدم لنا مشرف نمساوي، كان يشترك في سباق الدراجات في شبابه، مأوى شاغراً نمكث فيه، وقد تجاذبته الرغبة في مساعدة زملاء دراجة في حاجة إلى المساعدة والخشية من رئيسه في العمل.

([1]) مذهب فلسفي يوناني قديم يقول إن على الإنسان أن يكافح للتحرر من الشهوة ولا يتأثر بالمسرة أو الحزن، بل يخضع لما تمليه الضرورة المحتمة – المترجم.

أخبرنا بلغته الإسبانية الركيكة أن "بوما puma" موجود في المنطقة. "والبوما شريرة لا تخشى مهاجمة الناس! لها فروة شقراء كثيفة..."

وجدت عند محاولة إقفال الباب أنه مثل باب الإسطبل – يقفل الجزء السفلي منه فقط. وضعت مسدسنا قرب رأسي في حالة عزمت البوما، التي شغل شبحها تفكيرنا، القيام بزيارة ليلية مفاجئة. كان الفجر على وشك البزوغ عندما استيقظت على صوت مخالب تخدش الباب. بالقرب كان ألبيرتو مستلقياً بصمت يعتريه الرعب. كانت يدي متوترة تمسك بالمسدس المهيأ للإطلاق. حدقت بي عينان لامعتان من الأشجار المظللة. كقطة، وثبت العينان إلى الأمام وحلت كتلة الجسد الأسود على الباب.

كانت مجرد غريزة، وقد فشل كابح الذكاء. شد دافعي للحفاظ على النفس الزناد. دوى هزيم الرعد على الجدران وحولها مدة طويلة، ولم يتوقف إلا حين راحت شعلة مضيئة في الممر تنادي علينا بيأس. لكننا عرفنا حين ذاك في صمتنا الخجول، أو أمكننا على الأقل التخمين، سبب صرخات المشرف الجهورة ونشيج زوجته الهستيري وهي تلقي بنفسها فوق جسد بوبي الميت – كلبها البغيض حاد الطبع.

ذهب ألبيرتو إلى أنغوستورا لإصلاح العجلة وفكرت أن عليَّ قضاء الليلة في العراء لعدم استطاعتي طلب سرير في بيت نعتبر فيه مجرمين. من حسن الحظ أن دراجتنا كانت قرب كوخ عامل آخر سمح لي بالنوم في المطبخ مع أحد أصدقائه. استيقظت في منتصف الليل على صوت المطر وكنت على وشك الخروج لتغطية الدراجة بقماش مشمع. لكن قبل فعل ذلك قررت أخذ بعض النفثات من منشاق الربو، إثر تأثير جلد الخروف الذي استعملته كوسادة. استيقظ رفيقي النائم على صوت الاستنشاق. قام بحركة مفاجئة ثم صمت في الحال. أحسست أن جسده قد تصلب تحت أغطيته قابضاً على سكين وحابساً تنفسه. قررت،

وتجربة الأمس ما زالت حية في ذهني، أن أبقى حيث كنت كي لا أطعن بالسكين إن كانت التوهمات معدية في هذه المنطقة.

وصلنا سان كارلوس دي باريلوتشي في مساء اليوم التالي وقضينا الليلة في مركز شرطة في انتظار إبحار "موديستا فيكتوريا" صوب الحدود التشيلية.

والآن أشعر أن جذوري العظيمة مقتلعة، حر و...

احتمينا في مطبخ مركز الشرطة من عاصفة أطلقت العنان لجام غضبها في الخارج. قرأت وأعدت قراءة الرسالة التي لا تصدق. وهكذا كل أحلامي ببلدتي المرتبطة بتلك العيون التي ودعتني في ميرامار، تحطمت بلا سبب وجيه. اعتراني تعب شديد وأصغيت نصف نائم إلى حديث سجين جوال مثير يلفق ألف قصة غريبة ويشعره جهل المستمعين إليه بالأمان. كنت قادراً على فهم معنى كلماته الدافئة اللعوبة بينما الوجوه المحيطة به تميل مقتربة كي تسمع بشكل أفضل قصصه وهي تكشف بأسرارها.

كما لو من خلل ضباب بعيد كان بإمكاني رؤية طبيب أمريكي قابلناه هناك في باريلوتشي يومىء برأسه: "أعتقد أنكما ستصلان المكان الذي تقصدانه، فأنتما تملكان الشجاعة. لكني أظن أنكما ستمكثان فترة في المكسيك، إنها بلاد رائعة."

شعرت فجأة بأني أحلق مع البحّار إلى بلاد قصية، بعيداً عن مجريات دراما حياتي. انتابني قلق عميق، شعرت بأني غير قادر على الإحساس بأي شيء. بدأت أشعر بالخشية على نفسي فرحت أخط رسالة مسيلة للدموع، لكني عجزت عن الكتابة ومن غير الممكن

المحاولة. في شبه النور المحيط بنا، دارت أشباح ملتفة كدوامة غير "أنها" لم تظهر. كنت عند اعتقادي أني أحبها حتى تلك اللحظة، عندما أدركت أني لا أحس بشيء.

أجبرت على استدعائها لتعود بإشارة من يدي. توجب على القتال من أجلها، كانت ملكي... لي... وتمت.

أنارت شمس معتدلة اليوم الجديد، يوم مغادرتنا، وداعنا أرض الأرجنتين. لم يكن حمل الدراجة إلى "موديستا فيكتوريا" مهمة يسيرة، لكننا نجحنا أخيراً في تحقيق ذلك بقليل من الصبر. شكل إنزالها صعوبة مماثلة. هانحن في تلك البقعة الصغيرة قرب البحيرة المدعوة باسم طنان "بويرتو بليست". بضعة كيلومترات على الطريق، ثلاثة أو أربعة على الأكثر، أعادتنا إلى الماء، بحيرة خضراء قذرة هذه المرة، لاغونا فرياس.

رحلة قصيرة قبل الوصول أخيراً إلى نقطة الجمارك، ثم مركز دائرة الهجرة التشيلية الكائن في الجزء الآخر من سلسلة الجبال – الأدنى كثيراً عند خط العرض هذا. هناك عبرنا بحيرة أخرى تصب فيها مياه ريو ترونادور الذي ينبع من البركان العظيم الذي يحمل الاسم نفسه. تمتاز هذه البحيرة "إسميرالدا"، نقيض بحيرات الأرجنتين، بماء معتدل الحرارة يجعل السباحة متعة مغرية جداً. هناك في أعالي سلسلة الجبال في مكان يدعى كازا بانغو موقع يشرف على منظر خلاب فوق تشيلي. نقطة تقاطع إلى حد ما، على الأقل بالنسبة لي في تلك اللحظة. كنت أتطلع إلى المستقبل عبر الشريط الضيق لتشيلي وما وراءه، مما يعيد أبيات قصيدة أوتيرو سيلفا إلى ذهني.

تسرب ماء من كل مسام الحوض الكبير القديم الحامل دراجتنا. حلقت في أحلام يقظة بعيداً محافظاً على إيقاعي في الضخ. مر طبيب، عائد من بيولا في زورق الركاب البخاري المبحر ذهابا وإيابا عبر بحيرة أسميرالدا، بالأداة الضخمة غريبة الشكل المربوطة إليها دراجتنا، وحيث كنا ندفع أجرة عبورنا والجبارة من عرق الجبين، كسا وجهه تعبير غريب حين شاهدنا نكافح للحفاظ على القارب عائماً، عاريين وسابحين في ماء المضخة الزيتي.

قابلنا عدداً من الأطباء المسافرين إلى هناك، الذين حاضرنا فيهم عن دراسة الجذام مع بعض الزخرفة ونيل إعجاب زملائنا من الجانب الآخر للأنديز. ترك ذلك لديهم انطباعاً جيداً، وحيث إن الجذام لا يشكل مشكلة في تشيلي، لم يعرفوا الحقائق الأولية عنه أو المصابين بالجذام واعترفوا بأمانة أنهم لم يروا في حياتهم مصاباً بالجذام. أخبرونا عن مستعمرة المصابين بالجذام البعيدة في الجزيرة الشرقية حيث يعيش عدد من المصابين هناك. جزيرة ممتعة، أخبرونا، مما أثار اهتماماتنا العلمية.

قدم لنا هذا الطبيب بأريحية كل مساعدة نحتاجها مفترضاً أن رحلتنا ستكون مثيرة جداً. لكن في تلك الأيام السعيدة في جنوب تشيلي، حين كانت البطون ممتلئة ولم نكن صفيقين تماماً بعد، طلبنا منه رسالة توصية فقط إلى رئيس "أصدقاء الجزيرة الشرقية" الذي كان يسكن قرهم في فالباريسو، ولقد سره ذلك.

انتهت رحلة البحيرة في بيتروهوي حيث ودعنا الجميع، لكن ليس قبل الوقوف لتصورنا بعض الفتيات البرازيليات الخلاسيات اللاتي وضعننا في ألبوم ذكرياتهن الخاص بجنوب تشيلي، وزوجين من أنصار

البيئة، من يدري من أي بلد أوروبي، أخذا عنواننا باحتفالية كي يرسلا لنا نسخاً من الصور.

كان هناك شخص في البلدة الصغيرة أراد من يقود عربة مقفلة إلى أوسرنو، حيث كنا متجهين، سألني إن كان بإمكاني فعل ذلك. أعطاني ألبيرتو درساً في سرعة تغيير ناقل الحركة gear وذهبت بكل وقار للقيام بالمهمة. كانت انطلاقتي كالرسوم المتحركة، قفزات وهزات، وتبعت ألبيرتو الذي كان يقود الدراجة. كان كل منعطف عذاباً: الكابح، القابض، الغيار الأول، الثاني، النجدة، أمي... تعرجت الطريق في منطقة ريفية جميلة، محيطة بلاغونا أوسرنو، والبركان الذي يحمل الاسم نفسه يحرسنا من علٍ. من سوء الحظ، لم أكن في موقع يسمح لي بتقدير المنظر في طريق مرصّع بالحوادث. مع ذلك، كان الحادث الوحيد الذي أصابنا بسبب خنزير صغير ركض أمام العربة ونحن مسرعين أثناء هبوطنا ربوة، وقبل أن أتعلم تماماً فن كبح العربة وإيقافها.

وصلنا أوسرنو، همنا في أوسرنو، غادرنا أوسرنو منطلقين شمالاً في ريف تشيلي الخلاب، المقسمة أرضه قطعاً محاطة بأسوار صغيرة، في تناقض صارخ مع جنوب بلادنا القاحل. التشيليون، شعب في غاية الدماثة، دافئ وكريم أينما حللنا. أخيراً وصلنا ميناء فالديفيا يوم أحد. في سيرنا المتمهل في شوارع المدينة، توقفنا بالصحيفة المحلية Correo de Valdivia، كتبوا عنا من لطفهم مقالة. كانت الصحيفة تحتفل بمرور أربع مئة سنة على تأسيسها وأهدينا رحلتنا إلى المدينة تقديراً للفاتح العظيم الذي تحمل المدينة اسمه. أقنعونا أن نكتب رسالة إلى مولينا لوكو، محافظ فالباريسو، ليكون مهيأ لقبول احتيالنا العظيم في الجزيرة الشرقية.

الميناء، المتخم بالسلع الأجنبية تماماً بالنسبة لنا، السوق حيث يباع الطعام المتنوع، البيوت التشيلية الخشبية التقليدية، الملابس الخاصة بفلاحي تشيلي، كلها تختلف كلياً عن ما نعرفه في بلونا. كان هناك

شيء أمريكي فطري غير متأثر بالغرابة الغازية لسهول بلادنا المعشوشبة المترامية الأطراف. يعود ذلك لأن المهاجرين الأنجلو-ساكسون في تشيلي لا يختلطون بالآخرين، لذا حافظوا على نقاء الجنس الطبيعي، في بلادنا ثمة تعايش واختلاط.

مع كل الاختلافات المعتادة والفردية التي تميزنا عن أخوتنا البعيدين في الأنديز، ثمة صيحة تبدو عالمية: "أعطهم ماء" تحية السلام لدى رؤية طول سروالي المصنوع من جلد البقر، ليس وفق ذوقي بل موضة ورثتها من صديق كريم، رغم قصره.

الخبراء

الكرم التشيلي، كما لا يتعبني القول، أحد أسباب جعل الترحال في البلد المجاور لنا متعة عظيمة. ولقد استفدنا من ذلك أيما استفادة. استيقظت تدريجياً تحت الملاءة مفكراً بقيمة السرير الجيد ومحصياً كمية السعرات الحرارية لوجبة الليلة السابقة. راجعت الأحداث الأخيرة في ذهني: ثقب عجل الجبارة الغادر، الذي خلفنا على قارعة الطريق في المطر وفي مكان مجهول، مساعدة راؤول الكريمة، صاحب الفراش الذي ننام فيه الآن، والمقابلة التي أجريناها مع صحيفة "Al Austral" في تيموكو. كان راؤول طالب طب بيطري، ليس مولعاً بالدراسة كما بدا، وكان قد حمل دراجتنا القديمة المسكينة في شاحنته، وجلبنا إلى هذه البلدة الوديعة وسط تشيلي. حقاً، ربما كانت هناك لحظة أو اثنتان تمنى فيهما صديقنا لو أنه لم يقابلنا، لأننا سببنا له ليلة من النوم غير المريح، لكن ينبغي عليه أن لا يلوم إلا نفسه، متباهياً بالمال الذي أنفقه على النساء ودعوتنا ليلة إلى "كاباريه" على حسابه طبعاً. كانت دعوته وراء

تطويل إقامتنا في بلاد بابلو نيرودا، واشتركنا في وصلة تفاخر حية لبعض الوقت. خرج في النهاية، بطبيعة الحال، من هذه المعضلة المحتومة (نقص النقود)، بمعنى أننا أجبرنا على تأجيل زيارتنا إلى مكـــان اللـــهو المـــثير للاهتمام ذاك، وإن قدم لنا تعويضاً على ذلك فراشاً ومأوى. وها نحن في الواحدة صباحاً نشعر بالرضا ونلتهم كل ما على المائدة، وهو كثير حقاً، بالإضافة إلى ما جلب لاحقاً. ثم استولينا على سرير مضيفنا لأن والـــده كان قد نقل إلى سانتياجو ولم يبق كثير من الأثاث في البيت.

كان ألبيرتو الساكن دون حركة يقاوم محاولة شمس الصباح لإقلاق نومه العميق، بينما رحت أرتدي ملابسي ببطء، مهمة لم نجدها صـــعبة على وجه الخصوص لأن الفرق بين لباسنا في الليل وفي النـــهار يكـــون عادة الحذاء. تباهت الصحفية بعدد وافر من الصفحات علـــى عكـــس صحفنا اليومية الفقيرة غير المتطورة، لكني لم أكن مهتماً بأي شيء سوى خبر محلي وجدته مطبوع بحروف كبيرة في القسم الثاني:

خبيرا جذام من الأرجنتين يطوفان

أمريكا اللاتينية على دراجة نارية

ثم بحروف أصغر:

موجودان في تيموكو ويردان زيارة رابا-نوي

هذه خلاصة تهورنا. نحن، خبراء، شخصيات رئيـــسة في حقـــل الجذام في الدول الأمريكية، بتجربة واسعة، عالجنا 3000 مريض، نعرف أهم مراكز الجذام في القارة والباحثين في الحـــالات الـــصحية في هـــذه المراكز، قبلنا زيارة هذا البلدة الصغيرة الرائعة الكئيبة. حسبنا أنهم قـــد يقدرون كلياً احترامنا للبلدة، لكننا لم نكن في الواقع نعرف. اجتمعـــت العائلة كلها بعد حين حول المقالة وأصبحت كل الأخبار الأخـــرى في الصحيفة موضع ازدراء أولمبي. وهكذا، ونحن متنعمان بتقديرهم، ودعنا هؤلاء الناس الذين لا نذكر عنهم شيئاً، ولا حتى أسماءهم.

طلبنا السماح لنا بترك الدراجة في مرآب رجل يعيش على أطراف البلدة وسرنا هناك، لم نعد مجرد متشردين محبوبين بدراجة مقطورة، كلا، أصبحنا الآن "الخبراء" وعوملنا كذلك. قضينا اليوم كله في إصلاح وإعداد الدراجة بينما بين فينة وأخرى تأتي خادمة داكنة البشرة ومعها بعض الطعام الخفيف. في الساعة الخامسة، بعد شاي بعد الظهيرة اللذيذ الذي أعده مضيفنا، ودعنا تيموكو وانطلقنا إلى الشمال.

المصاعب تزداد حدة

مرت مغادرتنا تيموكو بشكل طبيعي حتى لاحظنا في طريق خروجنا من البلدة ثقباً في العجل الخلفي، مما أجبرنا على التوقف لإصلاحه. عملنا بجد لكن ما إن انتهينا من تركيب عجل الغيار الاحتياطي حتى رأينا أنه يهرب هواء، إذ كان هو الآخر مثقوباً. بدا أن علينا قضاء الليلة في العراء حيث لم تكن هناك إمكانية لإصلاحه في ذلك الوقت من الليل. لكننا الآن لم نعد نكرات، نحن "الخبراء" وسرعان ما وجدنا عامل سكة حديد دعانا إلى بيته حيث عاملنا كملكين.

في وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي أخذنا الإطارات الداخلية والعجل إلى مكان تصليح سيارات لإزالة بعض قطع المعدن التي أصبح جزءاً لا يتجزأ منه، ولرقع العجل مرة أخرى. كان المغيب قد اقترب عندما غادرنا المكان، لكن ليس قبل قبول دعوة على وجبة تشيلية تقليدية: الكرش وطبق آخر مشابه، كلها كثيرة التوابل منظفة بنبيذ لذيذ. كالعادة، غمرنا بالكرم التشيلي.

بطبيعة الحال لم نذهب بعيداً، وبعد أقل من 80 كلم توقفنا للنوم في بيت حارس حديقة عامة كان يأمل أن ننقده إكرامية. ولأنها لم تصله قط، رفض تقديم إفطار لنا في اليوم التالي. لذا انطلقنا في مزاج سيئ وفي نيتنا إشعال نار صغيرة لعمل بعض المتة بعد قطعنا بعض الكيلومترات. مضينا قليلاً وكُنت أبحث عن مكان جيد للوقوف عندما، دون تحذير مسبق، التفت الدراجة بحدة إلى جانب الطريق وألقت بنا على الأرض. لم يصب أحدنا بأذى، تفحصت وألبيرتو الدراجة – وجدنا أحد أعمدة القيادة مكسور، وما هو أفدح أن صندوق الغيار مهشم. كان من المستحيل الاستمرار، والأمر الوحيد الممكن فعله هو الانتظار بصبر شاحنة تحملنا إلى أقرب بلدة.

توقفت عربة منطلقة في الجهة المعاكسة، هبط ركابها لرؤية ما حدث ولتقديم خدماتهم. أخبرونا أنهم سيفعلون كل ما بوسعهم للمساعدة في كل ما يريده عالمان مثلنا.

"هل تعلمون أني تعرفت عليكم مباشرة من الصورة في الجريدة؟" قال أحدهم.

لكن لم يكن هناك ما نريده منهم سوى شاحنة ذاهبة في الاتجاه المعاكس. شكرناهم وجلسنا لشرب المتة المعتادة حين جاء صاحب كوخ قريب ودعانا لبيته. احتسينا لترين في مطبخه. وهناك رأينا آلته الموسيقية "charango" آلة مصنوعة من ثلاثة أو أربعة أسلاك معدنية، طول بعضها متران، مشدودة بقوة فوق صفيحتين فارغتين على لوح خشبي. يستخدم الموسيقي قطعة معدنية يغطي بها مفاصل يده وينقر بها الأسلاك المعدنية التي تبعث صوتاً مثل دمية جيتار. قرابة الساعة 12 جاءت عربة شحن مقفلة وافق سائقها بعد التوسل على أخذنا إلى البلدة المجاورة، لاوتارو.

وجدنا مكاناً في أفضل ورشة تصليح سيارات في المنطقة ومن يستطيع لحام القطعة، صبي قصير ودود يدعى لونا وقد دعانا مرة أو مرتين لتناول الغداء في بيته. قسمنا وقتنا بين العمل في الدراجة واستجداء

شيء لأكله بالحيلة في بيوت عديد من محبي الاستطلاع الـذين جـاءوا لرؤيتنا. في الجوار كانت عائلة ألمانية، أو أحد من أصل ألماني، عاملتنـا بسخاء. نمنا في الثكنة المحلية.

صلحت الدراجة نوعاً ما، فقررنا الرحيل في اليوم التالي، لذا فكرنا في إلقاء الحذر في الريح مع بعض الأصدقاء الذين دعونا للشراب. نبيـذ تشيلي رائع وكنت أحتسيه بسرعة لا تصدق، شربت كثيراً منه وعنـد ذهابنا إلى حفل الرقص القروي كنت قد شعرت أني أتحـدى العـالم. كانت الليلة تمضي بشكل سار ونحن مستمرون في ملء بطوننا ورؤوسنا بالنبيذ. طلب مني ميكانيكي ودود بشكل استثنائي يعمل في الورشة أن أرقص مع زوجته لأنه مزج الشراب ولا يشعر بحالة جيـدة. كانـت زوجته حارة ومن الجلي أنها في المزاج، ومتخمـة بالنبيـذ التـشيلي. أمسكت بيدها محاولاً قيادتها إلى الخارج. تبعتني بوهن لكنها لاحظـت زوجها يراقبنا فأخبرتني برغبتها في البقاء. لم أكن في حالة لأسمع لصوت العقل، رحنا نتناقش وسط حلبة الرقص. بـدأت في شـدها إلى أحـد الأبواب والجميع ينظرون إلينا، حاولت ركلي، وفيما أنا أحاول شـدها فقدت توازنها وسقطت على الأرض.

ركضنا عائدين صوب القرية وجمع مـن الراقـصين الغاضـبين يطاردوننا، ندب ألبيرتو بصوت مرتفع خسارة النبيذ الذي كـان مـن الممكن أن يجلبه زوجها لنا.

رحلة الجبارة II الأخيرة

استيقظنا باكراً لوضع اللمسات الأخيرة على الدراجة والهرب من مكان لم يعد مضيافاً بالنسبة لنا، لكن فقط بعد قبول دعوة أخيرة علـى الغداء من العائلة القاطنة بمحاذاة ورشة تصليح السيارات.

خشية هاجس داخلي مسبق لم يود ألبيرتو أن يقود الدراجة، لـــذا جلست في المقعد الأمامي وما كدنا نقطع بضع كيلومترات حتى توقفنا لإصلاح صندوق الغيار الموشك على الخراب. بعد مسافة قصيرة أثنـــاء التفافنا حول منعطف ضيق بسرعة لا بأس بها، خرج المسمار اللولبي من الكابح الخلفي وظهر رأس بقرة حول المنعطـــف، ثم أخـــرى وأخـــرى وأكثر، ضفة التي علوها ميترين، ملقية بنا بين الصخور، لكننا لم نصب بأذى. ضغطت على الكابح اليدوي الذي التحم في غير وقته وانكـــسر أيضاً. للحظة لم أر سوى شكل القطيع الضبابي يمر سريعاً على الجانبين، بينما " الجبارة " المسكينة تسرع هابطة التل شديد الانحـــدار. بمعجـــزة عظيمة استطعنا كشط ساق البقرة الأخيرة فقط، لكن نهراً في البعيد كان يزأر صوبنا بقوة مرعبة. انحرفت إلى جانب الطريق وفي لمحة عين ارتقت الدراجة إلى الضفة التي علوها ميترين، ملقية بنا بين الصخور، لكننـــا لم نصب بأذى.

ساعدتنا رسالة التوصية من " الصحافة " إذ استضافنا بعض الألمان وعاملونا معاملة جيدة. شعرت خلال الليل بحاجة ماسة للتبـــول، ولمـــا خجلت من ترك ذكرى في الإناء الموضوع تحت سريري، تسلقت إفريز النافذة وأعطيت كل آلامي إلى الليل والعتمة في الخارج. نظرت صبيحة اليوم التالي لأرى النتيجة فرأيت أسفل مترين صفيحة تنك كبيرة يجففون عليها خوخهم، منظر الزيادة كان مدهشاً. ذهبنا من هناك بسرعة.

بالرغم من أن الحادث بدا في اللمحة الأولى غير مهـــم، إلا أنـــه سرعان ما أمسى جلياً أننا قللنا من قيمة الخراب. كانت الدراجة تعمل بغرابة كلما كان عليها صعود ربوة. أثناء الصعود إلى ماليكو، حيـــث يوجد جسر سكة حديد يعتبره التشيليون الأعلى في الدول الأمريكيـــة، توقفت الدراجة وقضينا اليوم كله في انتظار نفسٍ محـــسنة (مجـــسدة في شكل شاحنة) لتقلنا إلى القمة. نمنا في بلدة كوليبولي بعد حصولنا علـــى الهدية الأمنية، وغادرنا مبكراً خشية النكبة الموشكة على الحـــدوث. في

أول ربوة عالية، أصبحت الجبارة أخيراً شبحاً. أخذتنا شاحنة إلى لسوس أنغليس حيث تركناها في أول محطة ونمنا في بيت ملازم في الجيش التشيلي الذي بدا شاكرا طريقة معاملته في بلادنا الأرجنتين و لم يسأل جهداً لإسعادنا. كان ذلك آخر يوم لنا "كمتسكعين على دراجة نارية" وبدا أن المرحلة التالية "كمتسكعين دون عجلات" ستكون أصعب.

رجال إطفاء، عمال ومسائل أخرى

حسب علمي ليست هناك فرق إطفاء غير متطوعة في تشيلي، لكنها رغم ذلك في غاية الجودة لأن قيادة فرقة إطفاء شرف يسعى إليه معظم الرجال القادرين في المدن أو المناطق العاملين فيها. ولا تصدق أنها مجرد وظيفة نظرية: في جنوب البلاد على الأقل، تحدث الحرائق بكثرة مذهلة. لست متأكداً من العامل المسبب الرئيس، هل لأن معظم البنايات مبنية من الخشب، أو لأن المستوى الثقافي للناس متدنياً ولأنهم غير متعلمين، أو أن هناك عامل آخر، أم أنها كلها مجتمعة معاً. المؤكد أننا خلال الأيام الثلاثة التي قضيناها في محطة الإطفائية، حدث حريقان كبيران وواحد صغير (وإن كنت لا أوحي أن هذا هو المعدل، بل أقر حقيقة فقط).

غفلت أن أشرح أننا بعد قضاء الليلة في بيت الملازم الأول، قررنا الانتقال إلى محطة الإطفاء، وقد أغوانا سحر بنات المسؤول الثلاث، أدلة على حسن النساء التشيليات اللاتي يملكن، جميلات كن أم قبيحات، تلقائية معينة ونضارة تأسر في التو واللحظة. غير أني أبتعد عن الموضوع... أعطونا حجرة حيث فرشنا فراش التخييم وهجعنا إليه نائمين بعمق كعادتنا حتى إننا لم نسمع صفارة الإنذار. لم يدر المتطوعون

أننا هناك فانطلقوا بعربات الإطفاء بينما نمنا حتى منتصف الصباح، حين علمنا ما جرى. حصلنا على وعود منهم لضمنا في مفرزة الحريق التالي. وجدنا شاحنة يمكنها نقلنا والدراجة إلى سانتياجو في غضون يومين بسعر زهيد، شريطة أن نساعدهم في شحن الأثاث الذي ينقلونه.

كانت لنا شعبية كبيرة، بما نملكه من ذخيرة وافرة من الحديث مع المتطوعين وبنات المسؤول، هكذا مرت الأيام في لوس أنخليس. في عيني، دائمتيّ ترتيب ورسم الماضي، سيبقى التصور الرمزي للبلدة دوماً اللهب الغاضب لنار. كان آخر يوم لنا هناك وبعد تبادل أنخاب عدة معبرة عن العواطف الجميلة لوداعنا، التففنا في أغطيتنا ونمنا. مزقت صفارة الإنذار المنتظرة طويلاً الليل داعية وموقظة المتطوعين للعمل، وممزقة أيضاً فراش ألبيرتو الذي وثب منه بعيداً بسرعة. أخذنا مواقعنا بعد حين بالوقار المطلوب في عربة الإطفاء "تشيلي- إسبانيا"[1] التي غادرت المحطة بسرعة خطرة جداً، وقرع طويل لجرس إنذارها الذي لم ينذر أحداً، غالباً ما سمع ليشكل شيئاً غير مألوف.

مع كل موجة ماء تسقط على هيكله الملتهب، اهتز بيت الخشب والطين. وقف الدخان اللاذع للخشب المحترق صامداً أمام العمل غير الانفعالي الذي اقتضته الحاجة من قبل رجال الإطفاء الذين حموا، بين نوبات الضحك، البيوت المجاورة بفيض من الماء المتدفق أو وسائل أخرى. لم يصل اللهب جزءاً صغيراً من البيت، انبعث منه أنين قطة، أرعبتها النار، ماءت وماءت فقط رافضة الهرب من المساحة الصغيرة المتبقية. رأى ألبيرتو الخطر وحسبه بنظرة سريعة ثم وثب برشاقة فوق 20 سم اللهب منقذاً الحياة المهددة قليلاً لأصحابها. متقبلاً سيل التهاني الحارة لبطولته منقطعة النظير، برقت عيناه بمتعة من تحت الخوذة الضخمة التي استعارها.

([1]) كل فرق الإطفاء التشيلية تقريباً لها مدينة أخت أو بلد.

غير أن لكل شيء نهاية، فقامت لوس أنخلوس بوداعنا الأخير. صافح تشي الكبير وتشي الصغير (ألبيرتو وأنا) بوقار آخر الأيادي الصديقة حين بدأت الشاحنة رحلتها إلى سانتياجو، حاملة على متنها القوي جثمان "الجبارة الثانية".

وصلنا سانتياجو يوم أحد وكان الذهاب مباشرة إلى مرآب أوستين أول ما قمنا به. كنا نحمل رسالة توصية إلى المالك، لكننا دهشنا بتعاسة حين وجدنا أن المرآب مقفل. أخيراً، أقنعنا المسؤول هناك قبول الدراجة وغادرنا لندفع من عرق الجبين لقاء ما تبقى من رحلتنا.

كان لمهمتنا كناقلي أثاث مراحل مختلفة: الأولى، المثيرة بشكل خاص، تتألف من استهلاك كيلوجرامين من العنب في وقت قياسي، يساعدنا في ذلك غياب أصحاب البيت. الثانية، وصول أصحاب البيت وبالتالي القيام ببعض المهام الصعبة. الثالثة، اكتشاف ألبيرتو أن غرور زميل سائق الشاحنة كان مفرطاً، خاصة في ما يتعلق بجسده، وعليه ربح المسكين كل رهان أجريناه معه لحمل أثاث أكثر منا الاثنين والمالك معاً (لعب الأخير دور الأحمق براحة همجية).

استطعنا تعقب قنصل سفارتنا الذي ظهر أخيراً في ما يمكن أن يدعى مكتباً متحجر الوجه (لا بأس إذا أخذ في الاعتبار أن ذلك كان يوم أحد) وسمح لنا بالنوم في الباحة، بعد خطبة لاذعة ساحرة حول واجباتنا كمواطنين الخ، توج كرمه بتقديم 200 بيسوس لنا، رفضناها لاعتبارها إهانة. لو أنه عرض هذا المبلغ بعد ثلاثة أشهر لكانت هناك قصة أخرى. يا للتوفير!

تشبه أجواء سانتياجو إلى حد ما أجواء قرطبة، رغم أن إيقاعها اليومي أسرع وحركة المرور فيها نوعاً ما أكثف. تذكرنا أبنيتها وطبيعة شوارعها ومناخها وحتى وجوه أهلها بمدننا المتوسطية[1]. لم نستطع

([1]) نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط - المترجم

معرفة المدينة جيداً لأننا كنا هناك لبضعة أيام وتحت ضغط الوقت لإنجاز كثير من المهام قبل الشروع في الترحال ثانية.

رفض قنصل بيرو منحنا تأشيرة دخول دون رسالة توصية من مثيله الأرجنتيني، الذي رفض بدوره إعطاءها لنا بحجة أن الدراجة قد لا توصلنا إلى هناك وسينتهي بنا الأمر لطلب المساعدة من السفارة (لم يدر الملاك الصغير أن الدراجة قد انتهت)، لكنه لان أخيراً ومنحنا تأشيرة بيرو مقابل 400 بيسوس تشيلي، مبلغ كبير بالنسبة لنا. في أيام سوكويا هذه، جاء فريق بولو الماء من قرطبة في زيارة لسانتياجو. كان كثير من اللاعبين من أصدقائنا، لذا قمنا بزيارة مجاملة لهم أثناء لعبهم مباراة، فدعينا إلى إحدى الولائم التشيلية النمط التي تسير على النحو التالي: "تفضل فخذ خنزير، جرب بعض الجبن، اشرب نبيذاً أكثر" وتقف – إذا استطعت – من إجهاد كل عضلات الصدر في جسمك. صعدنا في اليوم التالي إلى سانتا لوسيا، كتلة صخرية في وسط المدينة لها تاريخها الخاص. كنا نقوم بمهمة تصوير المدينة بسلام عندما وصل موكب أعضاء سوكويا يقودهم أشخاص بهيئات مميزة من النادي المضيف. أُحرج المساكين – غير متأكدين أيقدموننا إلى سيدات المجتمع التشيلي المرموقات، كما فعلوا لاحقاً، أو لعب دور الحمقى والتظاهر بعدم معرفتنا (تذكر ملابسنا غير التقليدية)، لكنهم نجحوا في إدارة الورطة العويصة بكل مهارة ممكنة وكانوا ودودين – كما يمكن للناس أن يكونوا من عوالم مختلفة عن عوالمهم وعالمنا في تلك اللحظة المعينة من حياتنا.

أخيراً حل اليوم الكبير، وانحدرت دمعتان حرثتا وجنتي ألبيرتو بشكل رمزي. مع آخر وداعٍ للجبارة المتروكة خلفنا في المرآب، شرعنا رحلتنا إلى فالباريسو. انطلقنا في طريق جبلي رائع، أجمل ما يمكن للحضارة أن تقدمه مقارنة بعجائب الطبيعة الحقيقية (التي لم تخربها أيدي البشر)، في شاحنة تحمل حملنا الثقيل، نحن المتحررين من الأحمال.

ابتسامة الجوكندا

بلغنا مرحلة جديدة في مغامرتنا. كنا نلفت الانتباه التافه لأنفسنا بملابسنا الغريبة وشكل الجبارة الثانية المهلهل، التي استثار صفير ربوها الشفقة في نفوس مضيفينا. كنا فرسان الطريق نوعاً ما، وننتمي إلى "الأرستقراطية المتجولة" طويلة العمر تلك. نملك بطاقات زيارة بألقابنا المؤثرة الخالية من العيوب. لم يعد الأمر كذلك. أصبحنا الآن مجرد رحالين تحملهما العربات بالمجان ويحملان حقائب على ظهورهما، وكل وسخ الطريق ملتصق بملابسهما. أمسينا ظلاً لذاتنا الأرستقراطية السابقة.

تركنا سائق الشاحنة في الجزء العلوي من مدخل المدينة، وبخطواتنا المتعبة سحبنا حقائبنا في الشوارع، تتبعنا لمحات الناظرين المندهشة واللامبالية. شع المرفأ من بعيد بوميض القوارب المغري، في حين صاح البحر الأسود والمرحب بنا – ورائحته الرمادية توسع أنفينا. اشترينا خبزاً – بدا آنذاك غالي الثمن وإن أصبح أرخص كلما توغلنا شمالاً وداومنا على هبوط التل. أنهك التعب ألبيرتو بطبيعة الحال، وبالرغم من محاولتي عدم إظهار ذلك كنت متعباً أيضاً. لذا عندما وجدنا موقف شاحنة هاجمنا الحضور إذ أن وجهينا المأساويين عبرا عن التفاصيل المنمقة التي عانينا منها في الطريق الطويل الصعب إلى سانتياجو. سمح لنا بالنوم فوق ألواح خشبية مع بعض الطفيليين الذين تنتهي أسماؤهم بلفظة "هومينس" لكن كان هناك على الأقل سقف فوق رؤوسنا.

هجعنا بعزيمة لا تلين. مع ذلك وصلت أنباء وصولنا أحد مواطنينا المقيم في مطعم رخيص بمحاذاة معسكر المقطورات، فأراد أن يقابلنا. كان اللقاء في تشيلي يعني أريحية خاصة و لم يكن أي منا في وضع يسمح له برفض هذا المن النازل من السماء. برهن مواطننا أنه متلبس روح

الأرض الشقيقة بعمق وبالتالي كان ممتلأً بروعة. كان قد مر وقت طويل لم آكل فيه السمك، والنبيذ لذيذ ومضيفنا في غاية اللطف... على كلٍ قدم لنا طعاماً جيداً ودعانا في اليوم التالي إلى بيته.

فتحت الجوكندا أبوابها باكراً، خمرنا المتة ونحن نتحدث مع المالك المبدي اهتماماً كبيراً بالرحلة. ذهبنا بعد ذلك لاكتشاف المدينة. مناظر فالباريسو رائعة، وهي مشيدة على حافة شاطىء وتطل على مرفأ شاسع. تسلقنا إلى حيث اتسعت التلال المندفعة إلى حتفها في البحر. عمارة متحف مستشفى المجانين الحديدية المموجة الغريبة خلابة، ومنظمة في سلسلة من الطبقات المتصلة بمجموعة متواصلة من درجات سلم ملتفة وسكك حديد معلقة تبرز جراء تناقض الألوان المتنوعة لبيوت ممتزجة بزرقة المرفأ الرصاصية. حدقنا بالدرجات القذرة والفجوات المعتمة، كما لو كنا مريضين مشرحين، تحدثنا إلى حشود المتسولين، وتفحصنا أعماق المدينة بدقة، أجواء الدخان الخانق التي جذبتنا. استنشق خشمانا المنتفخان الفقر بحدة سادية.

زرنا السفن الراسية على رصيف الميناء لنرى إن كان أي منها ذاهباً إلى الجزر الشرقية، إلا أن الأخبار جاءت مثبطة للهمة: لن يذهب قارب إلى هناك قبل ستة أشهر. جمعنا بعض التفاصيل الغامضة حول الرحلات الجوية المغادرة إلى هناك مرة في الشهر.

الجزر الشرقية! تتوقف المخيلة في رحلات طيرانها الصاعدة لتصبح حركات شقلبة بهلوانية بمجرد التفكير فيها: "الخليل هناك مفخرة، والعمل؟ ها! ها! النساء يقمن بكل شيء – أنت تأكل وتنام وتسعدهن فقط." هذا المكان الرائع حيث الطقس مثالي والنساء مثاليات والطعام مثالي والعمل مثالي (في عدم وجوده المبهج). ماذا يهم لو مكثنا هناك سنة! من يكترث بالدراسة والعمل والعائلة الخ! في واجهة دكان تغمزنا سمكة جراد البحر، ومن فراشها المصنوع من الخس يخبرنا كل جسمها "أنا من الجزر الشرقية حيث الطقس مثالي والنساء مثاليات..."

على مدخل الجوكندا كنا ننتظر بفارغ الصبر مجيء مواطننا الذي لم تظهر دلالة على قدومه، حين دعانا المالك للدخول من تحت الشمس وقدم لنا إحدى وجبات غدائه العظيمة المكونة من السمك المقلي والحساء المذق. لم نسمع عن الأرجنتيني بعد ذلك طوال إقامتنا في فالباريسو، لكننا أصبحنا أصدقاء حميمين مع صاحب البار. كان رجلاً غريب الأطوار، كسولاً وفي غاية الكرم مع كل الرعاع القادمين، رغم كسبه زبائن عاديين يدفعون ثمناً باهظاً لقاء طعام رديء يقدمه في ذلك المكان. لم ندفع سنتاً واحداً طوال إقامتنا هناك إذ أسرف في كرمه علينا. "اليوم دورك، وغداً دوري" كان قوله المفضل، ليس قولاً مبتكراً لكنه بالغ التأثير.

حاولنا الاتصال بأطباء بيتروهوي، لكن بسبب عودتهم للعمل وعدم توفر وقت كاف لهم، لم يوافقوا قط على مقابلتنا بشكل رسمي. علمنا على الأقل بشكل أو بآخر أين كانوا. افترقنا بعد الظهر، تبع ألبيرتو الأطباء، وذهبت لعيادة امرأة تعاني من الربو، زبونة في الجوكندا. كانت المسكينة في حالة يرثى لها تستنشق رائحة العرق اللاذعة المركزة والأقدام القذرة التي تملأ الحجرة، ممزوجاً بغبار أريكتين، القطعتين الفاخرتين الوحيدتين في بيتها. علاوة على ربوها كانت تعاني من مشاكل في القلب. في مثل هذه الأوقات حين يشعر الطبيب بعجزه الكامل، يرنو إلى التغيير: تغيير لمنع الظلم في نظام كانت فيه هذه المرأة المسكينة تكسب قبل شهر عيشها كنادلة تتنفس بجهد وتلهث لكنها تواجه الحياة بكرامة. في مثل هذه الظروف، يحاط أفراد العائلات الفقيرة، الذين ليس بوسعهم تجنب الديون، بجو القسوة التي هي بالكاد مقنعة. يحجمون عن أن يصبحوا آباء وأمهات وأخوات أو أخوة ويمسون عاملاً سلبياً محضاً في النضال من أجل الحياة، وبالتالي مصدر مرارة لأفراد المجتمع الأصحاء الذين يمتعضون من مرضهم كما لو كان إهانة شخصية لمن يمد يد العون لهم. إنما هناك، موجودة في اللحظات الأخيرة لأناس كان الغد ولا يزال أقصى آفاقهم، عندها يدرك المرء المأساة العميقة

المحيطة بحياة الطبقة العاملة في العالم كله. في تلك العيون المحتضرة ثمة استغاثة إذعان من أجل الغفران، غالباً ما تكون التماساً يائساً أيضاً لمواساة ضائعة في الفراغ أيضاً، كما ستضيع أجسادهم قريباً في الغموض العظيم المحيط بهم. كم سيبقى هذا النظام الراهن القائم على الفكرة اللامعقولة للطبقة المغلقة على نفسها، ليس بوسعي الإجابة على ذلك، غير أن الوقت قد أزف ليقضي الحكام وقتاً أقل للإعلان عن فضائلهم وينفقون مالاً أكثر، أكثر بكثير لتمويل الأعمال الاجتماعية المفيدة.

لم يكن بوسعي فعل الكثير لتلك المرأة المريضة. نصحتها أن تحسن غذاءها فقط ووصفت لها مدراً للبول وبعض أقراص الربو. كان معي بعض أقراص "الدرامامين" فقدمتها لها. تبعتني عندما غادرت كلمات ود المرأة العجوز والنظرات اللامبالية من عائلتها.

تعقب ألبيرتو آثار الأطباء. في التاسعة صباحاً توجب أن نكون في المستشفى. في تلك الغضون، وفي حجرة الجوكندا القذرة التي تستخدم كمطبخ ومطعم ومكان لغسل الثياب وتناول الطعام وتبول القطط والكلاب، كان هناك جمع متنوع من الناس مجتمعين مع المالك وفلسفته الرئيسة في الحياة، دونا كارولينا، عجوز عزيزة صماء مفيدة جعلت إبريق المتة الخاص بنا يبدو جديداً، ورجل مابوتشي[1]، سكير أحمق يشبه المجرمين، وزبونان عاديان أو أكثر وملكة الجمع دونا روزيتا المخبولة. تركز الحديث حول حادث مروع شهدته روزيتا، وبدا أنها الوحيدة التي شاهدت رجلاً يحمل سكيناً كبيرا يطعن به جارتها المسكينة.

"هل كانت جارتك تصرخ، دونا روزيتا؟"

"طبعاً، كانت تصرخ. من لا يفعل؟ لقد كان يسلخ جلدها حية! ليس هذا كل شيء، أخذها بعد ذلك إلى البحر وجرها إلى حافة الماء

([1]) شعب تشيلي الأصلي.

حتى يجرفها البحر بعيداً، آه، سماع هذه المرأة وهي تصرخ، يا سيدي، يطرد ضوء النهار الحي من داخلي. كان ينبغي أن تروا ذلك!"

"لماذا لم تبلغي الشرطة، يا روزيتا؟"

"من أجل ماذا؟ ألا تذكر يوم ضرب ابن عمك؟ حسناً، ذهبت للإبلاغ عن ذلك فقالوا لي إني حمقاء، وإن لم أتوقف عن تأليف القصص سيقومون بسجني، تصور ذلك. كلا، لن أبلغ هؤلاء القوم شيئاً!"

تحول الحديث إلى "الرسول المبعوث من الله"، رجل من أهل المدينة يستخدم القوة التي وهبها الله له لشفاء الصمم والبكم والشلل الخ، ثم يمرر طبقاً بعد ذلك. لم تكن تجارته أسوأ من أي تجارة أخرى، وبالرغم من أن الكراسات غير عادية، إلا أن سذاجة الناس كذلك. لكن هكذا هي الأمور، ويستمرون في السخرية من الأشياء التي رأتها روزيتا بكل أعراف العالم.

لم يكن استقبال الأطباء ودياً جداً، لكننا حققنا هدفنا: أعطونا رسالة تعريف إلى موليناس لوكو، محافظ فالباريسو. استأذنا بالمغادرة بكل الرسمية المطلوبة وذهبنا إلى قاعة اجتماعات المدينة. لم تعط تعابيرنا المترنحة والمتعبة الانطباع الجيد لدى الرجل الجالس على مكتب الاستقبال، لكنه كان قد تلقى أوامر بالسماح لنا بالدخول.

عرضت علينا السكرتيرة نسخة من رسالة مكتوبة إجابة على رسالتنا مفادها أن مشروعنا مستحيل حيث أن السفينة الوحيدة للجزر الشرقية قد أبحرت ولن تكون هناك سفينة أخرى قبل عام. صحبنا إلى مكتب الدكتور موليناس لوكو الفخم، الذي استقبلنا بالترحيب، وإن أعطى انطباعاً مع ذلك بأنه يمثل مشهداً في مسرحية حيث يولي لفظ كل كلمة بإتقان عناية بالغة. تحمس فقط عندما تكلم عن الجزر الشرقية التي انتزعها من الإنجليز بإثباته أنها ملك تشيلي. أوصى أن نتابع الأحداث وسيأخذنا إلى الجزر الشرقية السنة القادمة. قال "قد لا أكون في هذا

المكتب، لكني أبقى رئيس جمعية أصدقاء الجزر الشرقية." اعتراف ضمني بالهزيمة الوشيكة لجونزالز فيديللا في الانتخابات. عند خروجنا أخبرنا الرجل الجالس على المكتب أن نأخذ كلبنا معنا، وكم دهشنا عندما عرض علينا جرواً قضى حاجته على سجاد الردهة ويقرض كرسي. ربما تبعنا الجرو لأن مظهرنا كمتشردين قد جذبه، وتصور البواب أنه زينة كمالية آخر تضاف لهيئتنا الغريبة. على كلٍ تلقى الحيوان المسكين المسلوب من القيد الذي يربطه بنا ركلة جيدة على قفاه ألقت به خارجاً وهو ينبح. مع ذلك، من المغري معرفة أن رفاهية بعض المخلوقات الحية اعتمدت على حمايتنا.

بحلول ذلك الوقت تيقنا أن السفر بالبحر يمكن أن يجنبنا الصحراء في شمال تشيلي. توجهنا إلى شركات الشحن مطالبين بنقل مجاني إلى أي ميناء في الشمال. وعد ربان أحد السفن أن يأخذنا معه إذا استطعنا الحصول على إذن من السلطات البحرية للعمل مقابل النقل. كان الجواب، بطبيعة الحال، سلبياً، ووجدنا أنفسنا في المربع الأول مرة أخرى. في ذلك الجزء من الثانية اتخذ ألبيرتو قراراً بطولياً كالتالي: نتسلل إلى السفينة ونختفي في المخزن. ثم ننتظر إذا كنا محظوظين حتى حلول الليل ونحاول إقناع البحار المناوب ونرى ما سيحدث. جمعنا حاجاتنا، لا ريب أنها كثيرة بالنسبة لهذه الخطة بالذات. ودعنا كل أصدقائنا بندم كبير وعبرنا لاحقاً البوابات الرئيسة في الميناء وانطلقنا حارقين قواربنا في مغامرة بحرية.

المتخفون تهرباً من دفع الأجرة

عبرنا الجمارك دون أي صعوبات وانطلقنا بشجاعة صوب غايتنا. كان القارب المختار، سان أنتونيو، مركز نشاط الميناء المحموم. بسبب

حجمه الصغير، لم يكن عليه الدنو من الرافعات لتصله وكانت هناك فجوة من بضعة أمتار بينه وبين الرصيف. لم يكن عندنا خيار سوى الانتظار حتى يدنو القارب أقرب قبل صعوده، وهكذا فلسفيا، جلسنا على حقائبنا في انتظار اللحظة المواتية. عند تغيير مناوبة منتصف الليل جيء بالقارب، لكن مسؤول الميناء، شخصية بغيضة يشي وجهه بالعصبية، وقف بثبات على لوح المعبر إلى القارب متفحصاً قدوم ومغادرة العمال. نصحنا سائق الرافعة، الذي أصبح صديقاً في تلك الغضون بانتظار لحظة أفضل لأن المسؤول، كما قال، عدواني ابن كلبة. وهكذا طفقنا ننتظر الليلة كلها، نطلب الدفء في الرافعة، أداة غريبة قديمة تدور بالبخار. بزغت الشمس لتجدنا في الانتظار على الرصيف مع حقائبنا. تبددت آمالنا بالتسلل إلى القارب خلسة تماما إلى حد ما عندما ظهر الربان بلوحة معبر جديدة وصلت سان أنتونيو باليابسة بشكل دائم. تسللنا وفق تعليمات جيدة من سائق الرافعة إلى السطح بسهولة آخذين حريتنا كما لو كنا في بيتنا وأقفلنا على أنفسنا وحقائبنا في المرحاض في الجزء الخاص بملاحة القارب. من تلك اللحظة، كان كل ما علينا فعله القول بصوت منخفض يخرج من الأنف "معذرة، ليس بوسعك الدخول" أو "مشغول" في نصف الدستة أو ما شابهها من المرات التي حاول أحدهم فتح الباب.

حلت الساعة الثانية عشرة بعد الظهر بسرعة وأبحر القارب، غير أن فرحتنا سرعان ما تلاشت لأن رائحة لا تحتمل انبعثت من المرحاض، الذي من الواضح أنه أقفل مدة، وكان الحر شديداً. بحلول الساعة الواحدة بعد الظهر راجع ألبيرتو كل ما في معدته، وفي الخامسة بعد الظهر، كان الجوع قد قتلنا وغاب الساحل عن الرؤية، قدمنا أنفسنا إلى الربان كمتخفين تهربا من دفع الأجرة. دهش لرؤيتنا ثانية وفي هذه الظروف بالذات، لكن لإخفاء دهشته أمام المسؤولين، غمزنا بطرف عينه الملتوية وهو يسألنا بصوت رعدي: "هل تعتقدان بجد أن الشيء

الوحيد الذي عليكما فعله للترحال هو الاختباء في أول قارب تجدانه؟ ألم تفكرا في عواقب فعلتكما بدقة؟ في الحقيقة أننا لم نفكر في أي شيء."

نادى على مضيف القارب وطلب منه تكليفنا بعمل وتقديم شيء لنأكله. التهمنا حصتنا برضى، لكن عندما علمت أن علي تنظيف المرحاض المشهور، توقف الطعام في حلقومي. أثناء هبوطي للأسفل والشتائم متوارية خلف شفتيّ المقفلتين ونظرة ألبيرتو الضاحكة تتبعني، إذ عين هو لتقشير البطاطا، أعترف أني شعرت بإغراء لنسيان كل شيء كتب عن قوانين الصداقة وطلب تبديل المهام. هذا ليس إنصافاً! لقد أضاف قسطاً جيداً إلى القذارة المتراكمة وعلي تنظيفها!

بعد إنجاز عملنا وفقاً لما يمليه الضمير، طلب الربان منا الحضور لرؤيته مرة أخرى، حيث نصحنا بعدم الحديث عن لقائنا السابق وبدوره يضمن أن لا يحدث شيء لنا عند وصولنا إلى أنتوفاغستا، المكان الذي يقصده القارب. سمح لنا بالنوم في مقصورة ملاح مجاز، ودعانا تلك الليلة لنلعب لعبة ورق الكنستة وتناول كأس أو اثنين معه. استيقظنا بعد نوم جدد نشاطنا، مشاركين بقبول كامل اصطلاح "المكانس الجديدة تكنس أنظف". شرعنا في العمل بجد واجتهاد وقد عقدنا العزم على دفع ثمن نقلنا مع الفائدة. شعرنا مع ذلك عند منتصف النهار أننا نبالغ، واقتنعنا بحلول بعد الظهر أننا أنقى زوج من المتشردين في الجوار. فكرنا بالنوم جيداً استعداداً لعمل اليوم التالي، دون ذكر غسل ثيابنا الوسخة، لكن الربان دعاني ثانية للعب الورق مما قضى على ما عزمنا عليه.

استغرق إعادتنا إلى العمل ثانية المضيف، غير الودود بما فيه الكفاية، ساعة تقريباً. كانت وظيفتي تنظيف السطح بالكاروسين، مهمة عملت عليها طوال النهار ولم تنه بعد. أعاد شد الحبل ألبيرتو إلى المطبخ لتناول طعام أفضل وكثيراً منه، دون تمييز لما كان يملأ به بطنه.

في الليل بعد لعب الورق المضني، كنا ننظر إلى البحر الشاسع المليء بالانعكاسات البيضاء المرقطة والخضراء. يتكيء كلانا جنباً إلى

جنب على حافة الحاجز، كل يشرد بعيداً، يطير في طائرته الخاصة إلى مناطق أعلى الغلاف الجوي في أحلامه. هناك أدركنا أن مهمتنا، مهمتنا الحقيقية، كانت التنقل إلى الأبد على طرقات وبحار العالم. بفضول ننظر دوماً إلى كل شيء تقع عليه أعيننا، نستنشق كلٍ ركن لكن بوهن - دون مد جذور في أي أرض أو المكوث طويلاً لرؤية قوام الأشياء، فالحدود الخارجية كافية. وكل المواضيع العاطفية التي يلهمها البحر تمر في حديثنا، بدأت أضواء أنتوفاغاستا تشع في البعيد من الجهة الشمالية الشرقية. كانت نهاية مغامرتنا كمتخفيين أو على الأقل نهاية هذه المغامرة إذ أن قاربنا راح يعود الآن إلى فالباريسو.

هذه المرة، كارثة

يمكنني أن أرى بوضوح الآن الربان السكير ككل ملاحيه وصاحب القارب بشاربه الكثيف وحركاتهم الفجة الناجمة عن احتساء نبيذ رديء، وضحكاتهم الصاخبة أثناء روايتهم رحلة الأوديسة الخاصة بنا. "اسمع، إنهم نمور، إنهم على قاربك الآن بالتأكيد، ستكتشف ذلك عندما تصبح هناك في البحر." لابد أن الربان قد سرب مثل هذا القول لصديقه وزميله أو شيء من هذا القبيل.

لم نعرف بطبيعة الحال أي من هذا، فقبل ساعة من الإبحار كنا جالسين مرتاحين ومدفونين تماماً في أطنان من البطيخ المعطر الذي ملأنا به بطوننا بحماقة. كنا نتكلم عن البحارة، أفضل نوعية، حيث أننا استطعنا صعود القارب والاختباء في بقعة آمنة بمساعدة أحدهم. ثم سمعنا صوتاً غاضباً، وظهر في ما يبدو شارباً كثيفاً من حيث لا ندري وأقحمنا في ارتباك مروع. كان خط طويل من قشر البطيخ، المقشر جيداً، يطفو

بعيداً كرتل هندي[1] على سطح البحر الساكن. الباقي كان شائناً. أخبرنا البحار لاحقاً، "لقد ضللت سبيله أيها الفتية، لكنه رأى البطيخ ويبدو أنه مر بروتين – ضرب باب الأبواب، وعدم السماح لأي بالهرب. حسناً (لقد أحرج ما فيه الكفاية) كان عليكما عدم تناول كثير من البطيخ!"

لخص لنا أحد زملائنا المسافرين على متن سان أنتونيو فلسفة حياته الرائعة بجملة واحدة: "توقفوا عن اللعب أيها الشروج! لم لا تنجون بمؤخراتكم وتعودون إلى بلادكم الشرج." وهذا ما فعلناه إلى حد ما. أخذنا حقائبنا وانطلقنا إلى شوكوكاماتا، منجم النحاس المشهور.

ليس مباشرة، إذ كان هناك يوم توقف في انتظار الإذن من سلطات المنجم بالزيارة، وتلقينا في تلك الغضون رسالة من بحارة باكشاناليان المتحمسين.

مستلقين في ظل عمودي كهرباء نحيلين على الطريق القاحل المفضي إلى المناجم، قضينا قسطاً طويلاً من النهار نصرخ على بعضنا بعضاً بين فينة وأخرى من عمود إلى آخر، حتى ظهر في الأفق الخط المصاب بالربو للشاحنة الصغيرة التي قطعت بنا نصف المسافة إلى بلدة تدعى باكيدانو.

صادقنا هناك زوجين، شيوعيين[2] من عمال تشيلي، في ضوء شمعة وحيدة تضيء علينا، ونحن نشرب المتة ونأكل قطعة من الخبز والجبن، كانت هيئة الرجل المنكمشة تعكس غموضاً ومأساوية. روى بلغته البسيطة المعبرة قصة سجنه ثلاثة أشهر، وأخبرنا عن زوجته الجائعة التي وقفت إلى جانبه بوفاء نموذجي، وتركه أطفاله في رعاية جار لطيف، عن

---

(1) رتل مولف من أشخاص أحدهم خلف الآخر – المورد

(2) كان الحزب الشيوعي التشيلي ممنوعاً ولوحق كثير من أعضائه تحت ما يدعى قانون الدفاع عن الديمقراطية (1948- 58).

رحلة حجه غير المثمرة بحثاً عن عمل ورفاقه الذين اختفوا بغموض ويقال إنهم في مكان ما في قعر البحر.

كان الزوجان، فاقدا الحس والمرتجفان من البرد، جاثمين متقابلين في ليل الصحراء، تجسيداً حياً للطبقة العاملة في أي جزء من العالم. لم يملكا غطاء بائساً واحداً يغطيهما، أعطيناهما واحداً منا ولففنا، ألبيرتو وأنا، الآخر حولنا قدر المستطاع. كان ذلك واحداً من أكثر الأوقات التي عرفتها في حياتي برداً، لكنه واحد أشعرني بأخوة أكثر مع هذه الكائنات البشرية الغريبة، على الأقل بالنسبة لي.

في الثامنة من صباح اليوم التالي وجدنا شاحنة تقلنا إلى بلدة شوكيكاماتا. افترقنا عن الزوجين الذين كانا ذاهبين إلى مناجم الكبريت في الجبال حيث الطقس في غاية السوء وظروف العيش صعبة حتى أنك لست بحاجة لإذن عمل ولا أحد يسألك عن ميولك السياسية. كل ما يهم الحماس الذي يبديه العامل لتدمير صحته بحثاً عن بعض الفتات الهزيل الكافي بالكاد لسد رمقه.

بالرغم من أن الشبح الضبابي للزوجين كان قد اختفى إلى حد ما في المسافة التي تفصل بيننا، كان بإمكاننا رؤية وجه الرجل الفريد المصمم فتذكرنا دعوته المباشرة: "تفضلوا أيها الرفاق، لنتناول الطعام سوياً، أنا صعلوك أيضاً" ما يظهر ازدراءه الضمني للطبيعة الطفيلية التي رآها في ترحالنا الهائم دون هدف.

من المؤسف أن يقمع بشر مثل هؤلاء. بصرف النظر إن كانت الجماعية " الشيوعية المؤذية " تشكل خطراً على الحياة الكريمة، لم تكن الشيوعية القارضة فتحات أنفه أكثر من توق طبيعي لشيء أفضل، اعتراض ضد الجوع الدائم المتحول إلى حب لمذهبه الغريب، الذي لا يستطيع إدراك جوهره غير أن ترجمته "الخبز للفقير" كانت شيئاً يفهمه، والأهم، أنه يملأه بالأمل.

هناك أخبرنا رؤساء العمل، والمديرون الشقر الأكفاء المتغطرسون بلغة إسبانية بدائية: "هذه ليست بلدة سياحية. سأجد دليلاً يعمل لكما جولة من نصف ساعة حول أماكن العمل، ثم من فضلكم اتركونا في حالنا، عندنا كثير من العمل." كان الإضراب وشيك الحدوث، مع ذلك أخبرنا الدليل، كلب وفي لليانكي[1]: "جرينجو[2] مجانين، يخسرون ألوف البيسوس كل يوم في الإضراب حتى لا يعطوا عاملا فقيرا بضع السنتات. عندما يأتي جنرالي إيبناز إلى السلطة سيزول كل ذلك"[3]. وقال كبير عمال شاعر: "هذه المراحل الشهيرة التي تسمح بحفر كل إنش نحاس. كثير من أمثالك يسألونني أسئلة فنية لكن من النادر أن يسألوا كم حياة فقدت هنا. لا يمكنني الإجابة أيها الأطباء، لكن شكراً لسؤالكم."

تتشابك الكفاءة الباردة والامتعاض العاجز يداً بيد في المنجم الكبير، يترابطان بالرغم من الكراهية النابعة من الحاجة العامة للعيش من جهة، وللتأمل من جهة أخرى.. سنرى إن قام عامل منجم في أحد الأيام بحمل معوله بمتعة ويذهب لتسميم رئتيه بفرح واع. يقولون الأمر هكذا هناك، من حيث يأتي اللهب الأحمر الذي ينير العالم الآن. هكذا يقولون. لا أدري.

شوكيكاماتا

تشبه شوليكاماتا مشهداً من مسرحية حديثة. ليس بوسعك القول إنها تفتقر للجمال، لكنه جمال تعوزه الرشاقة، مهيب وجليدي بلا

---

(1) أحد أبناء ولاية من ولايات الشمال الأمريكي – المورد.

(2) الغريب في إسبانيا أو أمريكا الإسبانية خاصة الإنجليزي أو الأمريكي – ويبستر.

(3) كان كارلوس إيبانيس ديل كامبو رئيس تشيلي من 1952 وحتى 1958. كان من حزب الشعب ووعد بترخيص الحزب الشيوعي إذا انتخب.

حرارة. حين تقترب من أي جزء من المنجم يبدو المنظر الطبيعي كله أشد كثافة وقوة ويعطي انطباعاً بالاختناق في السهل المنبسط. ثمة لحظة، بعد عشرين كيلومترا، تقطع فيها الخضرة المظللة بخفة بلدة كالاما الصغيرة والرمادي الرتيب لتحتفي بها بفرح كونها أصيلة في صحراء لا تستحقها كثيراً، وأي صحراء! يصفها مرصد الطقس في موكيتي توما قرب "تشوكي" بأنها الأكثر جفافاً في العالم. الجبال، حيث لا يمكن لنصل ورقة عشب واحدة أن ينمو في تربة النترات، لا حول لها ولا قوة أمام هجمات الريح والماء. تعرض شوكها الرمادي الهرم قبل أوانه في المعركة مع العوامل الجوية، ولا تجاري تجاعيدها عمرها الجغرافي الحقيقي. وكم من هذه الجبال تحيط بأخيها الشهير وتحمل في أرحامها الثقيلة ثروات مشابهة، وهي في انتظار جيوش المعاول الميكانيكية عديمة الروح لتلتهم باطنها، متبلة كما الحال بحياة البشر المتعذر اجتنابه- حياة الفقراء الأبطال غير المتغنى بهم في هذه المعركة، من يموتون بيؤس في واحدة من ألوف مصايد الطبيعة المدافعة عن كنوزها، في حين كل ما يريدونه كسب خبز يومهم.

شوكيكاماتا في الأساس جبل نحاس عظيم، صف من الأراضي المرتفعة عشرين متراً تقطع جوانبه الضخمة التي تنقل منها المعادن المستخرجة بسهولة بواسطة الخطوط الحديدية. التشكيل الفريد للوريد يعني أن الاستخراج جرح مفتوح تماماً، يسمح باستغلال المعدن الخام بقدر كبير، ما يشكل واحدا في المئة من النحاس لكل طن من المادة الخام. تفجر الجبال كل صباح بالديناميت وتحمل الجوارف الميكانيكية الضخمة المعدن الخام في عربات سكة حديدية تأخذه للطحن. تمر عملية الطحن هذه في مراحل متعاقبة من تحويل المعدن الخام إلى حصباء متوسطة النعومة، ثم وضعها في محلول حامض الكبريتيك الذي يستخرج النحاس في شكل كبريتات كما يشكل كلوريد النحاس المتحول إلى كلوريد الحديدوز عندما يتصل بالحديد القديم. من هنا يؤخذ السائل إلى ما يدعى "البيت الأخضر" حيث يوضع محلول كبريت النحاس في

أحواض ضخمة ويعرض لتيار بقوة 30 فولت لمدة أسبوع، يؤدي إلى التحليل الكهربائي للملح، فيلتصق النحاس بألواح رقيقة من المعدن نفسه التي تكون قد تشكلت سابقاً في أحواض أخرى مع محاليل أقوى. بعد خمسة أو ستة أيام تصبح الألواح جاهزة للصهر، حيث كان المحلول قد خسر من ثمانية إلى عشرة غرامات من الكبريتيك في اللتر الواحد وازداد غنى بكميات جديدة من المواد المطحونة. توضع الألوان بعد ذلك في أفران تنتج بعد 12 ساعة من الصهر تحت درجة 2000 مئوية، قوالب زنة 350 رطل إنجليزي. تنقل قافلة من 45 عربة كل ليلة أكثر من 20 طناً إلى أنطوفاغاستا، حصيلة يوم واحد من العمل.

هذه خلاصة بسيطة لعملية التصنيع، التي تستخدم سيلاً من البشر يبلغ 3000 نفس في شوكيكاماتا، غير أن هذه العملية تستخرج أكسيد المعدن فقط. تبني شركة الاكتشاف التشيلية موقعاً آخر لاستثمار مادة الكبريتيك الخام. يملك هذا الموقع، الأكبر من نوعه في العالم، مداخن يبلغ طولها 96 متراً وسيتكفل الموقع في المستقبل بكل الإنتاج تقريباً، في حين سيتوقف الموقع القديم تدريجياً إذ أن أكسيد المعدن الخام على وشك النفاد. يوجد حاليا كمية هائلة من المخزون الاحتياطي من المعدن الخام لتزويد المصهر الجديد وسيبدأ في العمل عام 1954 عند افتتاح الموقع.

تنتج تشيلي 20% من نحاس العالم، وفي هذه الأوقات غير المستقرة للنزاعات المحتلمة أصبح للنحاس أهمية حيوية لأنه عنصر أساسي في مختلف أنواع أسلحة الدمار. وعليه، اندلعت معركة اقتصادية وسياسية في تشيلي بين تحالف قوميين وجماعات يسارية تدعو إلى تأميم المناجم، ويفضل المؤيدون منظمة التجارة الحرة منجماً يسير بشكل جيد (حتى لو كان بين أيدي أجنبية) على إدارة أقل كفاءة من قبل الدولة. ذكرت اتهامات جدية في الكونغرس ضد الشركات المستغلة حالياً حقوق الامتياز، والدالة على جو الطموح القومي المحيط بإنتاج النحاس.

مهما كانت نتيجة المعركة، سيكون من الجيد عدم نسيان الدرس الذي نتعلمه من المقابر التي تحتوي على قسم صغير من العدد الهائل لبشر التهمتهم الانهيارات وثاني أكسيد السليكون وجو الجبل الجهنمي.

أرض قاحلة تمتد أميالاً وأميالاً

الآن وقد فقدنا قارورة الماء، أصبحت مسألة عبور الصحراء على الأقدام حتى أسوأ. مع ذلك، انطلقنا دون أي خشية، مخلفين وراءنا الحاجز المشير إلى حدود بلدة شوكيكاماتا. كانت سرعة سيرنا رياضية بشكل لا يصدق حين كنا في مرمى بصر سكان البلدة، لكن لاحقاً، أعادتنا إلى أرض الواقع وحدة الإنديز العارية الشاسعة والشمس الساقطة على رقابنا بقسوة ووزن حملنا سيء التوزيع. إلى أي حد كانت أعمالنا "بطولية" كما قال شرطي، لم نكن متأكدين، لكننا بدأنا نشك، أعتقد لسبب جيد، أن صفة التعريف كانت شيئاً أقرب إلى كلمة "غبية".

بعد ساعتين من المشي، عشرة كيلومترات على الأكثر، زرعنا أنفسنا في ظل لائحة لا أدري ما هي، الشيء الوحيد القادر على توفير أصغر ملجأ لنا من أشعة الشمس. وهناك بقينا طوال النهار، نتحرك للاستفادة من ظل الموقع المظلل على الأقل أعيننا.

استهلكنا لتر الماء الذي جلبناه معنا بسرعة، ومع حلول نهاية بعد الظهر انطلقنا بعطشنا الهائل عائدين إلى مركز الحراسة على تخوم البلدة، وقد هزمنا تماماً.

قضينا الليلة هناك ملتجئين داخل الحجرة الصغيرة، حيث حافظت نار متقدة على الحرارة السارة رغم البرد في الخارج. قاسمنا الحارس الليلي

طعامه بأريحية تشيلية يضرب فيها المثل، احتفال حزين بعد يوم كامل من الصيام، غير أنه أفضل من لا شيء.

مرت في فجر اليوم التالي شاحنة شركة سجائر وأخذتنا قرب المكان الذي نقصده، لكن في ذهابنا المباشر إلى ميناء توكوبيلا، كنا نفكر في الانطلاق شمالاً إلى الباقي، لذا تركنا عند ملتقى الطرق. شرعنا بالسير بحماس صوب بيت نعلم أنه يبعد ثمانية كيلومترات أعلى الطريق، لكن شعرنا بالتعب في منتصف الطريق، فقررنا أخذ قيلولةً قصيرة. علقنا أحد أغطيتنا بين عمود تلغراف ولوحة علامة طريق وجلسنا تحتها — حمام تركي لأجسادنا وحمام شمس لأقدامنا.

بعد ساعتين أو ثلاثة، حين فقد كل منا ثلاثة لترات من الماء، مرت عربة فورد صغيرة تقل ثلاثة من المواطنين النبلاء، كلهم سكارى ويغنون "كوياس"[1] بكل طاقاتهم. كانوا عمالاً مضربين من منجم يدعى ماجدولينا، ويحتفلون بنصر قضية الشعب قبل أوانها بالشرب بسعادة حتى الثمالة. أخذنا السكارى إلى محطة سكة حديد محلية، حيث قابلنا مجموعة من العمال يتدربون لمباراة كرة قدم مع فريق منافس. أخرج ألبيرتو حذاء ركض من حقيبته وبدأ في التعبير عن آرائه بصوت مرتفع. كانت النتيجة مدهشة، إذ سجلت أسماؤنا لمباراة الأحد القادم، مقابل طعام ومأوى ونقل إلى إيكيكي.

مر يومان وحل نهار الأحد، الذي شهد نصراً رائعاً لفريقنا. أعد ألبيرتو وليمة شواء أدهشت الحشد المجتمع بفن الطهي الأرجنتيني. خصصنا اليومين لزيارة بعض مواقع تنقية النترات العديدة في تلك المنطقة من تشيلي.

ليس من الصعب حقاً على شركات المناجم استخراج الثروة المعدنية من هذا الجزء من العالم. وليس هناك ما يجب فعله أكثر من

---

(1) رقصات تشيلية شعبية.

كشط سطح الطبقة المحتوية على المعدن ونقلها إلى أحواض ضخمة حيث تتعرض إلى عملية فصل غير معقدة لاستخراج النترات والملح الصخري والطين. من الواضح أن الألمان كانوا أول من حصل على امتيازات هناك، غير أن مواقعهم صودرت وهي الآن في معظمها بريطانية. كان العمال في المنجمين الكبيرين من حيث الإنتاج والقوة العاملة مضربين، والمناجم جنوب ما نحن ذاهبان إليه، لذا قررنا عدم زيارتهما. ذهبنا عوض ذلك إلى موقع كبير، لا فيكتوريا، الذي على مدخله لوحة صفيح معدنية تشير إلى المكان الذي توفي فيه هيكتور سوبيتشي سيديس، سائق السباق الأوروغوي اللامع الذي صدمه سائق آخر عند خروجه من موضع التزود بالوقود أثناء سباق سيارات.

حملتنا شاحنات متعاقبة لزيارة كل المنطقة حتى وصلنا أخيراً إيكيكي دافئين مدثرين بأغطية من نبات الفصة، حمولة الشاحنة الأخيرة التي أقلتنا إلى آخر مرحلة. بدا وصولنا، والشمس تشرق من خلفنا وتلقي بظلينا على أكثر زرقة بحر صباح صافية، كشيء خارج من ألف ليلة وليلة. ظهرت الشاحنة كما بساط سحري ترتعش على صفحات المنحدرات فوق الميناء. انعطفنا والعربة تخفف سرعتها رويداً وطيرانها المتأوه أثناء الهبوط، فرأينا من موقعنا المشرف المدينة كلها تنهض لاستقبالنا.

لم يكن في إيكيكي قارب واحد أرجنتيني أو حتى أي نوع آخر، لذا كان من غير المجدي البقاء في الميناء، وعليه قررنا استجداء من يحملنا في أول شاحنة مغادرة إلى أريكا.

نهاية تشيلي

تصعد الكيلومترات الطويلة وتهبط المسافة الممتدة بين إيكيكي وأريكا طوال الطريق. نقلنا من أرض سهل واسع قاحل إلى وديان تجري فيها مياه قليلة بالكاد تكفي بضع أشجار صغيرة مريضة معوّقة النمو تنبت على حوافها. تبعث سهول البمب[1] المترامية الأطراف والمعزولة تماماً حرارة متقدة خلال النهار، وإن كانت تبرد في الليل بشكل معتبر مثل مناخ كل الصحارى. التفكير أن فالديفيا[2] قد مر من هذا الطريق مع حفنة من رجاله، قاطعين 50 أو 60 كيلومترا في اليوم دون اكتشاف قطرة ماء أو حتى بعض الشجيرات لتحميهم من أشد الساعات حرارة، يترك انطباعا قويا. معرفة الأراضي التي قطعها الغزاة بالفعل يرقى بعمل فالديفيا البطولي إلى مصاف واحد من أهم أعمال الاستعمار الإسباني، ويفوق بلا ريب عمل من تحملوا المشاق في تاريخ أمريكا لأن أكثر الباحثين عن الثروة وجدوا ممتلكات غنية في نهاية حروب مغامراتهم ومحولين عرق غزوهم إلى ذهب.

ترمز أعمال فالديفيا إلى توق المرء الشديد الذي لا يعرف الكلل للسيطرة على مكان يمكنه أن يمارس فيه سلطة مطلقة. تلك الجملة، التي تنسب إلى قيصر القائل إنه يفضل أن يكون الحاكم الأول في قرية متواضعة في جبال الألب على أن يكون الثاني في روما، تعاد بطنين أقل لكن ليس بتأثير أقل، في الحملة الملحمية لغزو تشيلي. وإذا لم يصرع الفاتح الإسباني بعنف كحيوان طريد في تلك اللحظة، وهو يواجه الموت على يدي ذلك الأوركاني كاوبوليكان الذي لا يقهر، فلا أشك وأنا أراجع حياته، بأن فالديفيا كان سيشعر بأن موته مبرر تماما. كان ينتمي إلى تلك الطبقة الخاصة من الرجال الذين كثيراً ما ينجبهم الجنس البشري، وفيهم توق لا محدود للقوة المطلقة بحيث تبدو أي معاناة لتحقيق ذلك طبيعية، لذا أصبح حاكماً مطلقاً لأمة محاربة.

---

(1) Pampas: سهول معشوشبة واسعة في الأرجنتين - المترجم.
(2) Valdivia (Pedro de) 1498 - 1553 : فاتح إسباني - ويبستر.

أريكا ميناء صغير جميل لم يفقد بعد ذكرى أصحابه السابقين، أهل بيرو، ويشكل نقطة التقاء بين البلدين شاسعا الاختلاف بالرغم من تقاربهما الجغرافي والانحدار من سلالة واحدة. يرتفع نتوء الجبل، مفخرة البلدة، مئة متر في كتلة ناتئة من مجرد صفحة صخرية. تمنحها أشجار النخيل والحرارة والفاكهة شبه الاستوائية التي تباع في السوق، المظهر الخارجي الفريد لبلدة كاريبية، أو شيء من هذا القبيل، ويميزها عن مثيلاتها في الجنوب.

سمح لنا طبيب، أبدى نحونا من عدم احترام ما يمكن أن يبديه برجوازي منعم يتمتع بضمان مالي إزاء متشردين (حتى بألقاب)، بالنوم في مستشفى البلدة. هربنا في صبيحة اليوم التالي باكراً من مكان لا يرحب بنا، واتجهنا إلى حدود بيرو. ودعنا أولاً المحيط الهادي بسباحة أخيرة (صابون وكل شيء) مما أيقظ توقاً هاجعاً عند ألبيرتو: تناول طعام بحري. شرعنا في بحث دؤوب عن البطلينوس وفاكهة البحر الأخرى الموجودة على الشاطىء قرب المنحدرات. أكلنا شيئاً مالحاً لزجاً، لكنه لم يخلصنا من جوعنا ولم يشبع توق ألبيرتو، في الواقع لم يكن ليجلب السرور إلى سجين. كانت اللزوجة مقززة، والأسوأ أن لا شيء عليها ليؤكل.

انطلقنا في الوقت المعتاد بعد تناول الطعام في مركز الشرطة تابعين خطانا على طول الساحل حتى الحدود. حملتنا عربة مقفلة حتى بلغنا نقطة الحدود براحة. قابلنا ضابط جمارك كان قد عمل على الحدود مع الأرجنتين، ولعلمه وتقديره لعشقنا شرب المتة، قدم لنا ماء حاراً وكعكا محلى، وأفضل من كل ذلك، وجد لنا من يحملنا إلى تاكنا. رحب بنا رئيس الشرطة عند الحدود بمودة مع ادعاء بعض التفاهات حول الأرجنتين في بيرو، صافحناه مودعين كرم الأرض التشيلية.

حين دونت هذه اليوميات، تواقا متقد الحماسة، كتبت بعض الأشياء التي كانت ربما زاهية قليلاً وبعيدة نوعاً ما عن الروح المعنية بالاستقصاء العلمي. ولعله ليس من الملائم الآن، بعد سنة من كتابتها، تقديم آرائي الحالية عن تشيلي، لذا أفضل مراجعة ما كتبته آنذاك.

بدءاً بخبرتنا الطبية: لا تترك الصورة الشاملة للعناية الصحية في تشيلي كثيراً للتمني (وإن أدركت لاحقاً أنها أفضل بكثير من بلاد أخرى تسنى لي معرفتها). المستشفيات العامة المجانية نادرة جداً حتى في هذه الملصقات المعلنة عن التالي: "لماذا تتذمر بخصوص معالجتك إن كنت لا تسهم في صيانة مستشفاك؟" العناية الطبية في الشمال مجانية بشكل عام، غير أن الدفع مقابل النزول في مستشفى إجباري حيث تتراوح الأسعار من القليل إلى مبلغ ضخم من السرقة القانونية. يتلقى العمال المرضى أو الجرحى في منجم شوكيكماتا العناية الطبية والعلاج في المستشفيات لقاء أسكودس تشيلي في اليوم، لكن قد يدفع غير العامل في المنجم ما بين 300 إلى 500 أسكودس في اليوم. لا تملك المستشفيات مالاً وتفتقر إلى التسهيلات الطبية الملائمة. رأينا غرف عمليات قذرة بإضاءة تثير الشفقة، ليس في المدن الصغيرة فقط، بل حتى في فالباريسو. لا توجد معدات جراحة كافية. الحمامات قذرة، الاهتمام بالنظافة قليل. من العادات التشيلية (التي رأيتها فعلياً في كل أمريكا الجنوبية) عدم إلقاء ورق التواليت في المرحاض، بل على الأرض أو في صناديق معدة لذلك.

مستوى المعيشة في تشيلي أدنى من الأرجنتين. علاوة على الرواتب المنخفضة جداً في الجنوب، ترتفع البطالة وتقل حماية السلطات للعمال (بالرغم من أنها أفضل مما يقدم في شمال القارة). تقود كل هذه موجات حقيقية من التشيليين للهجرة إلى الأرجنتين بحثاً عن مدينة الذهب

الأسطورية التي وفرتها الدعاية السياسية الماكرة لمن يعيش غرب الأنديز. في الشمال يدفع للعمال العاملين في مناجم النحاس والنترات والذهب والكبريتيك رواتب أفضل، غير أن نفقات الحياة أغلى ويفتقرون عموماً لكثير من المواد الاستهلاكية الأساسية، كما أن طقس الجبل قاس، مما يذكر باللامبالاة ذات المعنى التي أجاب بها مدير في شوكوكيماتا على أسئلتي المتعلقة بالتعويضات التي تدفع لعائلات 10000 عامل أو أكثر المدفونين في المقبرة المحلية.

المشهد السياسي مربك (كتب هذا قبل الانتخابات التي فاز فيها إيبانيس) هناك أربعة مرشحين للرئاسة يبدو أن كارلوس إيبانيس ديل كامبو الأوفر حظاً في النجاح. جندي متقاعد بميول ديكتاتورية وطموحات سياسية شبيهة ببيرون، ألهم شعبه بكل حماسة رئيس دولة في أمريكا اللاتينية. تقوم قاعدة قوته على الحزب الشعبي الاشتراكي الذي تتحد وراءه عدة عصب صغيرة. الثاني، كما أرى، بيدرو إنريك ألفونسو، مرشح الحكومة الرسمي، الغامض سياسياً، الذي يبدو ودوداً مع الأمريكيين ويغازل كل الأحزاب الأخرى تقريباً. بطل اليمين هو ملك المال أرتورو ماتي لارين، نسيب الرئيس الراحل اليساندري الضامن مساندة كل القطاعات الرجعية في الطبقة العاملة. الأخير في اللائحة مرشح الجبهة الشعبية سلفادور أليندي[1]، المدعوم من الشيوعيين رغم أنهم شاهدوا تقلص قوتهم الانتخابية إلى 40000 عدد الذين حرموا من حق التصويت بسبب انتسابهم إلى الحزب الشيوعي.

من المرجح أن يدعم إيبانيس سياسة تنتصر إلى الأمركة اللاتينية، مستغلاً كره الناس للولايات المتحدة لكسب شعبية، ويأمن مناجم النحاس والمناجم الأخرى (بالرغم من حقيقة أن الولايات المتحدة تملك مستودعات مناجم بيرو الضخمة ومستعدة عملياً للبدء في استغلالها، لا

---

[1]) انتخب سنة 1970 رئيساً لجمهورية تشيلي وقتل في 11 سبتمبر 1973 خلال انقلاب مدعوم من الولايات المتحدة بقيادة الجنرال أوجستو بينوشيه الديكتاتور الذي حكم مدة 17 سنة.

يزيد كثيراً من ثقتي أن تأمين مناجم تشيلي سيكون عملياً، في المدى القريب على الأقل) ويستمر في تأمين السكك الحديدية ويوسع جوهرياً التجارة بين الأرجنتين وتشيلي.

تشيلي بلد يقدم وعوداً اقتصادية لكل شخص ميال للعمل، طالما أنه لا ينتمي إلى الطبقة العاملة: أعني كل من يملك جرعة ما من التعليم والمعرفة التقنية. تملك الأرض إمكانية توفير مواشٍ كافية (خاصة من الخراف) ومن الحبوب ما يكفي لإطعام سكانها. هناك مصادر المعادن الضرورية لتحويلها إلى بلدٍ صناعي قوي: حديد، نحاس، فحم حجري، قصدير، ذهب، فضة، مغنيسيوم ونيترات. أكبر جهد على تشيلي القيام به هو إسقاط صديقها اليانكي غير المريح عن ظهرها، مهمة هرقلية على الأقل في الوقت الراهن، وإعطاء الولايات المتحدة كمية الدولارات التي استثمرتها هنا والراحة التي تمد فيها عضلاتها الاقتصادية كلما بدا أن مصالحها مهددة.

تاراتا، العالم الجديد

فصلتنا بضعة أمتار بصعوبة عن موقع الحرس المدني المشير إلى تخوم البلدة، وإن أصبحت حقائب الظهر أثقل مئة مرة مما كانت عليه. لسعتنا الشمس لكننا تدثرنا كالعادة بكثير من الثياب بالنسبة لسعات النهار وإن شعرنا لاحقاً بالبرد القارس. ارتفعت الطريق بسرعة وسرعان ما مررنا بالهرم الذي رأيناه من القرية والمشيد إجلالاً لمن مات من بيرو في الحرب مع تشيلي[أ]. قررنا أن هذا مكان جيد لتوقفنا الأول واختبار حظنا مع

(أ) ضمت تشيلي صحراء لأتاكاما الغنية بالمعادن في ما سمي "حرب النترات" 1879- 83.

الشاحنات العابرة. كل ما كان بالإمكان رؤيته في الطريق جانب تل قاحل، بالكاد فيه أي زرع، تاكنا الهادئة، بشوارعها الصغيرة القذرة وأسطحها الطينية، وتبدو مرعبة إلى حد ما في انتظارها من بعيد. سببت الشاحنة العابرة الأولى لنا اضطراباً عظيماً، رفعنا إبهامينا بقلق متوجسين ريبة ولدهشتنا توقف السائق أمامنا. تولى ألبيرتو مهام عملية الشرح بكلمات أصبحت مألوفة لنا حول هدف رحلتنا، طالباً منه نقلنا معه. حنى السائق رأسه بإيماءة تأكيد، مشيراً أن علينا الصعود من خلف الشاحنة مع زمرة كاملة من الهنود...

جمعنا حقائبنا وقد جننا امتناناً. كنا على وشك الصعود حين صاح بنا السائق: "خمسة سوليس إلى تاراتا، تعلمون هذا، أليس كذلك؟" سأله ألبيرتو الغاضب لماذا لم يقل ذلك سابقاً عندما طلبنا منه نقلنا مجاناً. لم يكن متأكداً بالضبط ما معنى "مجاناً" لكن الذهاب إلى تاراتا يكلف خمسة سوليس..."وكلهم يدفعون هذا؟" قال ألبيرتو بغضب وعبارة بسيطة موجهاً كل سخطه نحوي، لأني أول من اقترح فكرة السير خارج البلدة بحثاً عن نقل مجاني، عوض الانتظار هناك كما أردنا. أصبحت اللحظة حاسمة. يمكننا العودة وفي هذه الحالة علينا الإقرار بالهزيمة، أو يمكننا الاستمرار سيراً على الأقدام، وليكن ما يكون. عزمنا أمرنا على الفكرة الثانية وانطلقنا سائرين. بدا جلياً أن خيارنا لم يكن حكيماً: كانت الشمس على وشك المغيب وكل ما حولنا خال من الحياة. مع ذلك، افترضنا أننا قريبون من القرية وقد يكون هناك كوخ أو شيء آخر، وبمساندة من هذا الوهم، واصلنا السير.

سرعان ما حلت عتمة فحم، ولم نصادف إشارة واحدة عن وجود مسكن. الأسوأ أننا لم نملك ماء للطهي أو تحضير المتة. ازداد البرد وأصبح جو الصحراء والارتفاع الذي بلغناه يلوي المسمار. كان تعبنا لا يصدق، فقررنا أن نبسط أغطيتنا على الأرض وننام حتى الفجر. كان القمر آفلاً وعتمة الليل مطبقة، لذا تلمسنا طريقنا، فرشنا أغطيتنا وتدثرنا

بما قدر المستطاع. بعد دقائق أخبرني ألبيرتو أنه قد تجمد تماماً، أجبته إن جسدي المسكين أبرد. غير أن هذه لم تكن مسابقة في التجمد، فعقدنا العزم على التعامل مع الوضع والبحث عن بعض الأغصان الجافة لإضرام نار صغيرة وتحريك أيدينا. كانت النتيجة مثيرة للشفقة. جمعنا بعض العصي وأشعلنا ناراً صغيرة غير كافية لبعث الدفء في شيء. كان الجوع مزعجاً لكن البرد أكثر لدرجة أننا لم نعد نقدر على التمدد هناك لمراقبة جمرات نارنا الأربع. أجبرنا على حزم أمتعتنا والسير في الظلام. أولاً، طلباً للدفء، سرنا بخطوات سريعة ولم يمض وقت حتى قطعت أنفاسنا. شعرت بالعرق ينساب تحت معطفي إلا أن قدمي كانتا قد تخدرتا من البرد والريح تجرح وجهينا كمدية. بعد ساعتين كان التعب قد أضنانا وأشارت ساعتي إلى 12:30 صباحاً، والأمل كان بانتهاء الليل بعد خمس ساعات. نقاش آخر وغفوة قصيرة بين الأغطية، وبعد خمس دقائق عاودنا السير ثانية. كان الليل في أوله عندما رأينا ضوء عربة قوي في البعيد. لم يكن شيئاً يستحق الإثارة – فرص الحصول على نقل مجاني كانت سيئة – لكن الطريق على الأقل مضاءة. وهذا ما كان، مرت الشاحنة بنا غير مبالية بصرخاتنا المحمومة، وكشفت أضواؤها أرضا بورا قاحلة، لا شجر ولا بيوت. ثم حل الارتباك، كل دقيقة أطول مما قبلها حتى أصبحت الدقائق في الأخير ساعات. منحنا نباح كلب مرتين أو ثلاثة بعض الأمل، غير أن عتمة الليل المطبقة لم تكشف شيئاً وصمتت الكلاب أو انتقلت إلى الجهات الأخرى.

في السادسة صباحاً رأينا كوخين على حافة الطريق مضاءين بنور السحر الصافي الرمادي. قطعنا الأمتار الأخيرة في لحظة، كما لو لم يكن هناك حمل على ظهر كل منا. بدا أنه لم يُرَحَّبْ بنا قط بمثل هذه الحفاوة، وأننا لم نأكل خبزاً وجبناً كالذي ابتعناه منهم أو شربنا متة تمنح عزماً جديداً. كنا مثل أنصاف الآلهة بالنسبة لهؤلاء الناس البسطاء: لوح ألبيرتو بشهاداته الطبية أمامهم، علاوة كنا قادمين من البلد الرائع الأرجنتين، حيث عاش بيرون مع زوجته إيفيتا، وحيث يملك الفقراء قدر الأغنياء

ولا يستغل الهنود ويعاملون بقسوة كما في هذه البلاد. أجبنا على ألوف الأسئلة عن بلدنا ونمط العيش فيها. حولت مخيلتنا الوردية، وصقيع الليل ما زال ساكناً بعمق في عظامنا، الأرجنتين إلى رؤية مغرية من الماضي. رفع لطف الشولوس[1] غير الجريء معنوياتنا. اتجهنا إلى مجرى نهر جاف قريب حيث فرشنا أغطيتنا ونمنا والشمس المشرقة تلاطفنا.

في الثانية عشرة انطلقنا ثانية أكثر سعادة، وقد نسينا معاناة ليلة الأمس. سرنا على هدي نصيحة فيثكاتشا العجوز[2]. كانت الطريق طويلة وكنا نتوقف بين فينة وأخرى. توقفنا في الخامسة لأخذ قسط من الراحة في الخامسة بعد الظهر، ونحن نراقب بحزن دنو خطوط هيكل شاحنة. كالعادة كانت تحمل بشرا، أكثر تجارة رابحة هناك. وكم دهشنا عندما توقفت الشاحنة ورأينا الحارس المدني من تاكنا يلوح لنا بسعادة، ويدعونا للصعود. لم تكن هناك حاجة طبعاً لتكرار الدعوة. نظر هنود أيمارا في الشاحنة إلينا بفضول وإن لم يجرؤوا على طرح أي سؤال. حاول ألبيرتو بدء حوار مع بعضهم رغم ركاكة لغتهم الإسبانية. استمرت الشاحنة في الصعود عبر طبيعة معزولة تماماً حيث بضع شجيرات شوك مكافحة تشي بمظهر حياة ما. ثم فجأة حل مكان هدير الشاحنة تنهد خلاص حين أصبحنا على مستوى السهل المنبسط. دخلنا بلدة إستاكو. كان المنظر مبهراً لا يصدق، وركزت عيوننا النشوانة حدقاتها مؤقتاً على المنظر الطبيعي الممتد حولنا ومن ثم كان علينا أن نجد أسماءً وتأويلات لكل ما رأيناه. بالكاد فهم الأيماراس ما نقوله، لكن التلميحات القليلة التي أبدوها، بإسبانية مرتبكة، زادت من التأثير العاطفي للأجواء المحيطة. كنا في واد أسطوري، توقف تطوره قبل بضع مئات من السنين، ونحن، الفانين السعداء، ممن يعيشون في القرن العشرين، نُمنح فرصة جيدة من الحظ لرؤيته. تتدفق قنوات الري – التي

([1]) هنود أمريكا اللاتينية أو المهجنين من أصول هندية وغربية.

([2]) شخصية من "مارتين فيرو" قصيدة ملحمية حول راعي بقر خليط من أصول إسبانية وهندية كتبها الأرجنتيني خوسيه هيرنانديز.

شقها الإنكا لمصلحة مواطنيهم – من الجبال إلى الوادي، مشكلة ألف شلال صغير، ومنسابة جيئة وذهاباً عبر الطريق أثناء هبوطنا الملتف. أمامنا، وارت السحب المنخفضة ذرى الجبال، لكن في بعض المناطق المفتوحة يمكنك أن ترى سقوط الثلوج في القمم العالية، محولة إياها بيضاء رويداً، رويداً. سمحت لنا المحاصيل التي يفلحها الهنود والمزروعة بحرص على قطع أرض منحدرة، دخول مملكة جديدة في علم الأحياء. رأينا ناسا يرتدون الملابس نفسها التي يرتديها الهنود في الشاحنة في بيئتهم الطبيعية. كانوا يرتدون معطف البنشو[أ] القصير بألوانه الصوفية الحزينة والسراويل الجلدية الضيقة الطويلة والصنادل من الحبال أو عجلات السيارات القديمة. مستوعبين كل ما رأيناه، داومنا على هبوط الوادي إلى تاراتا. في إيمارا هذا يعني الرأس، أو مكان التقاء نهرين، وهذه تسمية جيدة حيث أنها توجد على شكل V ضخمة كونتها سلسلة الجبال الواقية للبلدة. إنها قرية قديمة لطيفة حيث تستمر الحياة في نسق ترنحل فيه من قرون. لا ريب أن كنيسة المستوطنين درة أثرية (أركيولوجية) لأنها تشير، حتى أكثر من عمرها، إلى اتحاد بين الفن الأوروبي المستورد وروح الهنود المحليين. في أزقة البلدة الضيقة، في شوارعها غير المستوية بضخامة والمبلطة بحجارة محلية، والنساء الهنديات يحملن أطفالهن على ظهورهن... باختصار في كل مشهد نمطي يستحضر كل نفس في البلدة من زمن ما قبل الاستعمار الإسباني. غير أن الشعب الذي أمامنا ليس من عرق الشعب الفخور نفسه الذي ثار مراراً وتكراراً ضد حكم الإنكا، مما أجبرهم أن يحتفظوا بجيش دائم على حدودهم، هؤلاء الناس الذين يراقبوننا نسير في شوارع البلدة هم عرق مهزوم. نظراتهم وديعة، إلى حد ما مرتعبة، ولا مبالية تماماً بالعالم الخارجي. يوحي بعضهم بانطباع أنه مستمر في العيش لأن ذلك مجرد عادة لا يقدر على التخلص منها. أخذنا الحارس المدني إلى مركز الشرطة

(أ) شبه معطف يرتديه الهنود في أمريكا اللاتينية- المترجم

حيث قدموا لنا الملجأ ودعانا بعض الضباط لتناول الطعام. تجولنا في المدينة ثم استرحنا برهة حيث إننا كنا ذاهبين في الصباح إلى بونو في شاحنة ركاب ستحملنا، شكراً للحارس، مجاناً.

في أرض تخضع لسيادة باشاماما

أظهرت أغطية شرطة بيرو قيمتها في الثالثة صباحاً، إذ غمرتنا بدفء مجدد للعافية. ثم أيقظنا شرطي الحراسة بهزة – كانت هناك شاحنة متجهة إلى إيلافي – ووجدنا أنفسنا في الوضع المحزن لمغادرتهم. كانت الليلة رائعة، وإن باردة مروعة، ومنحنا امتيازا ببعض الألواح الخشبية لنجلس عليها ولتفصلنا عن الرائحة الكريهة للقطيع البشري المحمل بالبراغيث تحتنا. رائحة نافذة لكنها دافئة مثل أنشوطة خيل فعلية. أدركنا حين بدأت الشاحنة في هبوطها فقط عظم الامتياز: لم يقترب شيء من الرائحة منا، ربما كان من الصعب على برغوث رياضي أن يثب إلينا طالباً اللجوء. من جهة أخرى، جلدت الريح جسدينا بحرية وفي دقائق كنا متجمدين. استمرت الشاحنة في الصعود وازداد البرد كثافة مع مرور كل دقيقة.

كي نوقف انهيارنا، كان علينا ترك حركة أيدينا حرة خارج الأغطية الواقية إلى حد ما. كان من الصعب تغيير موضع النوم ولو قليلا دون أن نطير إلى مؤخرة الشاحنة. عند اقتراب الفجر، أدت مشكلة في المكربن (الكاربوريتر)، التي تسبب الإزعاج لكل المحركات في هذا الارتفاع، في توقف الشاحنة. كنا نقترب من أعلى نقطة في الطريق، 5000 مترٍ تقريباً. في ركن ما من السماء كانت الشمس تشرق وحل

نور مبهم مكان العتمة المطبقة المصاحبة لنا حتى اللحظة. كان تأثير الشمس النفسي غريباً، فلم تكن قد أشرقت في الأفق وإن شعرنا بالراحة لمجرد تخيل الحرارة التي ستجلبها.

على جانب الطريق كان فطر ضخم شبه دائري ينمو – الخضرة الوحيدة في المنطقة – فاستخدمناها لإشعال نار بائسة، لكنها سخنت ماء من قليل من الثلج. لابد أن هيئتنا المدهشة ونحن نشرب المتة الغريبة قد بدا مثيرا لاهتمام الهنود كما ملابسهم التقليدية بالنسبة لنا، إذ لم تمض لحظة دون أن يقترب أحدهم ليسأل بإسبانية ركيكة لماذا نصب ماء على ذلك الشيء غير المطبوخ جيداً.

رفضت الشاحنة مطلقاً حملنا إلى نقطة أبعد، لذا كان علينا كلنا السير قرابة ثلاثة كيلومترات في الثلج. لم يبد أن أقدامهم الصلبة العارية تزعجهم، في حين شعرنا أن أصابع أقدامنا متجمدة في البرد القارس، بالرغم من أحذيتنا الثقيلة والجوارب الصوفية. ساروا بإيقاع مضجر ثابت مثل اللاما في رتل واحد.

نجت الشاحنة من الحادثة المروعة، برغبة متجددة، وقمنا بتنظيف الممر في أعلى القمة، حيث كان هناك هرم غريب مشيد من حجارة غير متساوية الحجم ومتوج بصليب. حين عبرت الشاحنة، بصق الجميع تقريباً، وقام واحد أو اثنان بعمل إشارة الصليب. سألنا باهتمام عن معنى هذه الطقوس الغريبة فلم نقابل إلا بالصمت المطبق التام.

راحت الشمس تبعث الدفء والحرارة مقبولة أكثر أثناء هبوطنا، متتبعين دوماً مجرى نهر رأيناه ينبع من قمة الجبل ويزداد إلى حجم لا بأس به. طفقت ذرى الجبال المكللة بالثلوج تنظر إلينا دون تعبير أثناء مرور الشاحنة، في حين هربت الكونة[1] غير المتحضرة من الضوضاء.

---

[1] حيوان جنوب أمريكي شبيه بالجمل - المورد

في أحد المواقف العديدة التي توقفنا فيها على الطريق، اقترب منا بخجل هندي مع ابنه الذي يتكلم الإسبانية بشكل جيد، وراح يسألنا عن "أرض بيرون" الرائعة. أثارت عظمة المشهد الذي نسافر فيه مخيلتنا، كان من السهل علينا وصف الأحداث غير العادية، مزيناً للهفة القلب مآثر القيثار ومشبعاً عقول سامعينا بقصص الحياة الملحمية الجميلة في بلادنا. طلب الرجل منا، عبر ابنه، نسخة من الدستور الأرجنتيني مع إعلانه حقوق كبار السن، فوعدناه بحماس أن نرسل ذلك له. حين داومنا الرحلة أخرج الهندي العجوز عرنوس ذرة فاتحاً للشهية من تحت ملابسه وقدمه لنا. التهمناه بسرعة وقسمنا النواة بيننا بديمقراطية.

في منتصف بعد الظهيرة والسماء الثقيلة الرمادية تحط علينا، مررنا بمكان مثير للاهتمام حيث حنت عوامل التعرية الصخور الضخمة على قارعة الطريق لترسم قلاعاً إقطاعية تحتوي شرفاتها على فتحات دفاعية وتماثيل ناتئة لحيوانات وبشر تطالعنا بارتباك، وجيش من الوحوش الخرافية التي بدا أنها تقف في الحراسة، مهتمة بالهدوء من أجل الشخصيات الأسطورية التي من المؤكد أنها تقطن في المكان. أصبح الرذاذ القليل، الذي داعب وجوهنا بعض الوقت، أقوى وتحول إلى مطر غزير، نادى السائق على "الطبيبين الأرجنتينيين" ليدعونا إلى مقصورته، أكثر راحة ممكنة في تلك البقاع. سرعان ما أصبحنا أصدقاء مع مدرس من بونو أقالته الحكومة من منصبه كونه عضواً في حزب "الاتحاد الشعبي الثوري الأمريكي". كان عند الرجل، الذي من الواضح أن دم أهل البلاد يسري في عروقه علاوة على كونه عضواً في الحزب – ما لم يعن لنا شيئاً – عديد من القصص الرائعة حول عادات الهنود وثقافتهم، فجلب السرور إلينا بآلاف الحكايات وذكريات حياته كمدرس.

مستجيباً لدمائه الهندية، وقف مع الأيمارا في النقاشات التي لا تنتهي بين الخبراء في المنطقة، ضد الكوياس الذين يصنفهم "لادنيوس"[1] جبناء.

كما بين لنا الطقوس الغريبة التي شاهدناها وقام بها مرافقونا في الرحلة. عند وصول أعلى نقطة في الجبل يهدي الهندي كل حزنه إلى باشاماما، الأرض الأم، في شكل حجر رمزي، التي تتراكم لتشكل الهرم الذي رأيناه. حاول الإسبان حين قدموا لغزو المنطقة تحطيم مثل هذه المعتقدات والقضاء على هذه الطقوس دون نجاح. لذا قرر الكهنة الإسبان قبول الأمر الواقع ووضعوا صليبا واحدا على قمة كومة الحجارة. حدث كل ذلك قبل أربعة قرون (كما روى غارسيلاسو ديلا فيجا)[2] وبالحكم من عدد الهنود الذين يقومون بإشارة الصليب، لم ينجز المتدينون تقدماً كبيراً. ارتقاء المواصلات الحديثة عن أن المؤمنين الآن يصفون أوراق الكوكة الممضوغة عوض وضع الحجارة وهذا يحمل همومهم لتبقى مع باشاماما.

ارتفع صوت المدرس الملهم ليصل نبرة مدوية كلما تكلم عن الهنود، الذين كانوا مرة من عرق أيمارا المتمرد الذي أبقى جيوش الإنكا مكبلة تحت المراقبة، وينخفض إلى عمق خاو عندما يتكلم عن حالة الهنود اليوم، حيث يعاملون بوحشية من قبل الحضارة الحديثة وزملائهم، المهجنين أعداءه الألداء، الذين ضاعفوا الانتقام من الأيمارا من أجل موقعهم الكائن بين عالمين. تكلم عن الحاجة لبناء المدارس التي ستوجه الأفراد في عالمهم الخاص، وتمكنهم من لعب دور نافع فيه، الحاجة لتغيير أساسي لنظام التعليم الحالي، الذي يقدم في حالات نادرة التعليم للهنود (وفق معايير الرجل الأبيض فقط) ويملؤهم فقط بالعار والازدراء، ووصفهم بعدم القدرة على مساعدة رفاقهم الهنود ويعيشون في ظرف

---

(1) Ladinos أمريكي لاتيني يتكلم الإسبانية وغالباً ما يستخدم في وصف الهنود المتطبعين بالعادات الإسبانية، ولعل الكلمة قريبة من معنى (هجناء).
(2) كان غارسيلاسو الإنكا، ابن أميرة الإنكا الغازية، واحداً من مؤرخي أحداث الغزو.

قاسٍ يحتم عليهم القتال داخل مجتمع أبيض يرفض قبولهم. مصير هؤلاء التعساء الركود في موقع بيروقراطي صغير والموت على أمل أن يحقق أحد أبنائهم، شكراً للقوى الخارقة لنقطة دم استعمارية في عروقهم، بطريقة ما الهدف الذي يتطلعون إليه حتى آخر أيامهم. يرى المرء في قبضته المتشنجة المطبقة اعتراف رجل يعذبه سوء طالعه وكذلك الرغبة التي تعزى إلى أنموذجه الافتراضي. ألم يكن في الواقع نتاجا نمطيا "لتعليم" يدمر الشخص الذي يتلقاه، حقا ممنوحا للقوة السحرية لتلك "القطرة" الوحيدة حتى ولو جاءت من امرأة مهجنة فقيرة بيعت إلى سيد سياسي محلي، أو نتيجة اغتصاب خادمة هندية من قبل سيدها الإسباني السكير؟

غير أن رحلتنا كانت قد شارفت على النهاية تقريباً، فصمت المدرس. انعطفت الطريق، عبرنا جسراً فوق النهر نفسه الذي رأيناه باكراً في ذلك الصباح كجدول صغير. كانت إلافي على الضفة الأخرى.

بحيرة الشمس

تكشف البحيرة المقدسة جزءاً صغيراً فقط من عظمتها. شيد اللسان الضيق من الأرض المحيطة بميناء بونو ليخفيها عن النظر. تتمايل قوارب القصب الطويلة هنا وهناك في المياه الساكنة وتصطف سفن الصيد على مدخل البحيرة. كانت الريح قارسة البرودة وبدا أن السماء الرصاصية الملساء تعيد تكرار حالتنا الذهنية. وبالرغم من قدومنا مباشرة من بونو، دون التوقف في إليافي وضماننا مكاناً مؤقتاً نترل فيه ووجبة جيدة في الثكنات المحلية، إلا أن حظنا قد ولى كما بدا. بأدب جم قادنا

الضابط المسؤول إلى الباب، شارحاً لنا أن هذه نقطة حدودية وعليه يمنع الأجانب بتاتاً من البقاء هناك أثناء الليل.

لم نود المغادرة دون رؤية البحيرة، لذا ذهبنا إلى الرصيف الممتد في البحر لنرى إن وجد أحد ليأخذنا إلى هناك في قارب، حيث بإمكاننا تقدير البحيرة بكل عظمتها. استخدمنا مترجماً ليعجل العملية لأن أحداً من الصيادين، كلهم من أيمارا، لم يعرف الإسبانية. نجحنا في جعلهم يأخذوننا مع الدليل المتطفل الملتصق بنا مقابل خمسة سوليس متواضعة. فكرنا في السباحة في البحيرة، لكن بعد جس درجة الحرارة برؤوس أصابعنا الصغيرة، فضلنا عدم فعل ذلك (قام ألبيرتو بعرض كبير خلع فيه ملابسه وحذاءه، ثم عاد ليرتديهما ثانية بطبيعة الحال).

كرؤوس دبابيس صغيرة مبعثرة على صفيحة ماء البحيرة الشاسعة الرمادية، ظهرت مجموعة من الجزر في البعيد. وصف مترجمنا حياة الصيادين هناك، بعضهم بالكاد رأى رجلاً أبيض في حياته، وكيف يعيشون على النمط القديم ويأكلون الطعام نفسه ويصطادون السمك بأساليب تعود إلى 500 سنة ويحافظون على بقاء طريقة لباسهم وطقوسهم وعاداتهم.

حين عدنا إلى الميناء، سرنا إلى أحد القوارب المبحرة بين بونو وميناء بوليفي في محاولة للحصول على بعض المتة القليلة الآن. غير أنهم لا يشربون المتة في شمال بوليفيا، في الواقع بالكاد سمعوا بها، فلم نستطع الحصول حتى على نصف كيلو. تفحصنا القارب المصمم في إنجلترا والمصنع هنا. كانت فخامته تتناقض والفقر العام السائد في المنطقة كلها.

وجدت مشكلة إقامتنا حلاً في مركز الحرس المدني، حيث سمح لنا رقيب في غاية الود بالبقاء في المستشفى، كلانا في فراش واحد، لكننا كنا على الأقل مرتاحين ودافئين. بعد زيارة جيدة نوعاً ما للكاتدرائية في اليوم التالي، وجدنا شاحنة متوجهة إلى كوزكو. كان الطبيب في بونو

قد أعطانا رسالة توصية إلى الدكتور هيرموسا – مختص سابقا بالجذام ويعيش الآن في كوزكو.

صوب سرة العالم

لم تكن المرحلة الأولى من الرحلة طويلة لأن سائق الشاحنة تركنا في خولياكا، حيث توجب علينا العثور على شاحنة أخرى تقلنا إلى الشمال. ذهبنا طبعاً وفق توصية حارس بونتو المدني إلى مركز الشرطة حيث وجدنا رقيباً ثملاً ارتاح إلينا فدعانا إلى شراب وطلب جعة احتسيت في جرعة واحدة باستثناء زجاجتي التي بقيت مليئة على الطاولة.

"ما الخطب يا صديقي الأرجنتيني، ألا تحب الشراب؟"

" كلا، ليس الأمر كذلك. في بلادنا لا نشرب هكذا. لا تغضب، كل ما في الأمر أننا نشرب عندما نتناول الطعام فقط."

"لكن تشي" قال مشدداً على لفظه الاسم المستعار لمواطني بلادنا وموحياً بمعناها "لماذا لم تقل ذلك؟" بتصفيق من يديه طلب شرائح جبن رائعة أشعرتني بالرضا. ثم غمر نفسه في وصف لفظي متأنق لأعماله البطولية، وتباهى بالخوف والاحترام الذي يكنه له أهل المنطقة بسبب براعته الفائقة في الرماية. لإثبات ذلك سحب مسدسه وقال لألبيرتو "أنظر يا تشي، قف على بعد 20 متراً ولفافة في فمك وإذا لم أقدر على إشعالها من الرصاصة الأولى، سأعطيك 50 سوليس". لم يكن ألبيرتو يحب النقود إلى هذا الحد فلم يتحرك من مقعده، ليس على الأقل مقابل

50 سوليس. " فضل يا تشي، سأجعلها 100 سوليس." لم يحرك ألبيرتو ساكنة.

عندما وضعت 200 سوليس على الطاولة، بدأت عيني ألبيرتو تومضان، لكن غريزته في الحفاظ على النفس كانت أقوى فلم يتحرك. لذا أخذ الرقيب قبعته، نظر في المرآة، ألقى بها خلفه وأطلق النار. كانت القبعة في حالة جيدة طبعاً لكن الجدار لم يكن كذلك. انفجرت صاحبة البار سخطاً، وانطلقت كعاصفة إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى.

في غضون دقائق جاء ضابط ليكتشف الفضيحة، ويجذب الرقيب إلى ركن ليوبخه. حين عادا لينضما إلينا، استرسل في تقريع مطول ضد رفيق رحلتي، وهو يشير له بإيماءة من وجهه، ففهم رفيقي ما كان الرقيب يرمي إليه: "اسمع أيها الأرجنتيني، هل معك مزيد من المفرقعات النارية كالتي أطلقتها؟" أدرك ألبيرتو الأمر بسرعة وقال ووجهه صورة للبراءة إنها نفدت. حذره الضابط من إطلاق المفرقعات في الأماكن العامة، ثم أخبر صاحبة المحل إن الحادثة قد طويت وإنه لا يرى أثرا لإطلاق رصاص على الحائط. طلبت المرأة من الضابط الانتقال بضع سنتيمترات من حيث يقف ثابتاً أمام الجدار، غير أن عملية حسابية ذهنية سريعة لمنافع ومضار ذلك كانت كافية لأن تبقي فمها مغلقاً. عوض ذلك قامت بجلد ألبيرتو بلسان حاد آخر قائلة "يظن الأرجنتينيون أنهم يملكون كل شيء" علاوة على مزيد من الإهانات التي ضاعت في الطريق أثناء فرارنا، كان أحدنا يفكر بحزن في الجعة والآخر في خسارة شطائر الجبن.

وجدنا شاحنة أخرى تقلنا وسافرنا مع شابين من ليما، حاولا طوال الوقت أن يظهرا لنا كم هما أفضل من الهنود الصامتين، الذين تحملوا السخرية ولم يظهروا ما ينم عن إزعاج. في البدء نظرنا إلى الجهة الأخرى دون أن نعيرهما اهتماماً، لكن بعد ساعات من الرحلة المملة عبر سهلٍ لا متناه، أجبرنا على تبادل بضع كلمات مع الأبيضين الوحيدين

في الشاحنة الذين يمكننا تبادل الحديث معهما، حيث إن الهنود الحذرين بالكاد يحبذون أسئلتنا، ويردون بكلمة واحدة فقط. في الواقع، كان هذان الشابان من ليما عاديين بما فيه الكفاية، وكانا بحاجة لإظهار الاختلافات بينهما وبين الهنود بشكل جلي. ونحن نمضغ بنهم أوراق الكوكة التي حصل عليها صديقانا الجديدان بجهد لنا، أحاط سيل من التنغو بصاحبينا الودودين بلا ريب.

وصلنا ليلة البارحة قرية تدعى أيافيري، حيث نزلنا في فندق دفع أجرته الحارس المدني. "عذراً" أجاب على احتجاجنا الواهن على حركته المروعة "طبيبان أرجنتينيان ينامان في مكان غير مريح لأنهما لا يملكان نقوداً؟ هذا غير ممكن". لكن بالرغم من الفراش الدافيء، بالكاد أمكننا إقفال عيوننا، لقد انتقم الكوكة الذي تناولناه إثر تبجحنا بسيل من الغثيان والمغص ووجع الرأس طوال الليل.

غادرنا في الصباح التالي باكراً في الشاحنة نفسها إلى سيكواني حيث وصلنا في منتصف بعد الظهيرة وقد اعترانا برد شديد ومطر وجوع. كالعادة قضينا الليلة في مركز الحرس المدني وكالعادة اعتنوا بنا. يجري نهر صغير بائس يدعى فيلكانوتا عبر سيكواني، وكان علينا أن نتابع إلى حين جريان مياهه، وهي محيط من الطين.

تأملنا في سوق سيكواني بكل أطياف الألوان التي تفيض بها أكشاك البيع، والمتشابكة مع صيحات الباعة الرتيبة وغمغمة الحشد أحادية النغمة، عندما لاحظنا تجمعاً من البشر قرب ركن، فذهبنا لاستطلاع الأمر.

تقدم موكب محاط بجمع غفير على رأسه دستة من الرهبان يرتدون أردية ملونة تتبعهم قافلة من الوجهاء متجهمي الوجوه، مدثرين بثياب سوداء ويحملون كفناً. كانوا يختتمون جنازة رسمية يتبعهم حشد غفير دون توجيه أو نظام. توقف الموكب وظهر رجل يرتدي الثياب السوداء على شرفة وفي يده ورقة: "إنه واجبنا، ونحن نودع هذا الرجل العظيم

الفاضل، شخص ما أو آخر ..." الخ، بعد هذه الثرثرة المضجرة تحرك الموكب أبعد قليلاً وظهرت شخصية ترتدي السواد على شرفة. "شخص ما أو آخر قضى، لكن ذكرى أعماله الجيدة وأمانته التي لا تشوبها شائبة..." الخ، وهكذا يعبر شخص مسكين عجوز أو آخر إلى مثواه الأخير على هذا المنوال، يلاحقه كره زملائه القرويين الذين يفرغون ما بأنفسهم في كل ركن شارع بسيل جارف من الكلمات.

ثم يوم آخر من الترحل كثير الشبه بسابقه. وأخيراً، كوزكو.

السرة

الكلمة التي أكثر ما تصف كوزكو هي مثيرة للشجن. يحط غبار دقيق لا يلحظ من حقبة أخرى على شوارعها، يصعد مثل رسوبيات تثور باضطراب من بحيرة طينية حين تلمس قعرها. لكن هناك مدينتان أو ثلاث من كوزكو، أو من الأفضل القول، أسلوبان أو ثلاثة يمكن أن تستدعى فيها المدينة. عندما ألقت ماما أوكللو وتدها الذهبي في الأرض وغاص دون جهد، عرف أول إنكا أن هذا هو المكان الذي اختاره فيراكوتشا ليكون بيتا دائما لأتباعه المختارين، الذين تركوا خلفهم حياة الرحل وقدموا فاتحين إلى أرض ميعادهم. راقبوا بأنوف متسعة، وبحماسٍ لارتياد الآفاق الجديدة، إمبراطوريتهم الهائلة وهي تنمو، ناظرين دوماً إلى ما وراء الحاجز الضعيف من الجبال المحيطة. وشرع الرحالة المتحولون إلى توسيع تاهونتنسيو، محصنين، كما فعلوا، مركز المنطقة التي فتحوها —

سرة العالم – كوزكو[1]. وهنا نشأت، كدفاع ضروري عن الإمبراطورية، ساكساهومان المهيبة المهيمنة على المدينة من مرتفعاتها وحامية القصور والمعابد من غضب أعداء الإمبراطورية. انبعثت صورة كوزكو هذه بحزن من الحصن المدمر من غباء الغزاة الإسبان الأميين، من أطلال المعابد المغتصبة، من القصور المنهوبة، من وجوه العرق المعامل بوحشية. هذه كوزكو التي تدعوك لأن تصبح محارباً وتدافع، وعصا غليظة في يدك عن حرية وحياة الإنكا.

عالياً فوق المدينة يمكن رؤية كوزكو أخرى، تحل مكان الحصن المدمر: كوزكو أسطح القرميد الملون، يقاطع انسيابها اللطيف قبة كنيسة باروكية، وحين تترامى المدينة تكشف لنا عن شوارعها الضيقة فقط وسكانها بملابسهم التقليدية، كل أطياف اللون المحلية. كوزكو هذه تدعوك إلى سياحة مترددة، لتمر على الأشياء بشكل عابر وتستريح في الجمال تحت سماء الشتاء الرصاصية.

وهناك مع ذلك كوزكو أخرى، مدينة نابضة بالحياة والنشاط تشهد معالمها على الشجاعة الهائلة للمقاتلين الذين غزوا المنطقة باسم إسبانيا، كوزكو الموجودة في المتاحف والمكتبات، في واجهات الكنائس وفي الأماكن الصافية، ملامح الزعماء البيض الحادة تشعر حتى اليوم بالفخر من الغزو. هذه كوزكو التي تلح عليك لشحذ حسامك وامتطاء ظهر جواد قوي واسع، لشق درب في جسد قطيع هندي عارٍ لا يملك الدفاع عن نفسه، المنهار جداره الإنساني والمتواري تحت الحيوان الراكض وحوافره الأربعة.

يمكن لكل واحدة من هذه الكوزكو أن تقدر بشكل منفرد، ولكلٍ خصصنا جزءاً من إقامتنا.

([1]) كانت ماما أوكللو Ocllo أخت /زوج مانكو كاباك، أول إمبراطور إنكا وفق الأسطورة، ولد الاثنان معاً من بحيرة تيتكاكا، رمز الوحدة والمساواة بين الرجل والمرأة. كان فيراكوتشا إله الخلق عند الإنكا. كانت تاهوتنسيو (الأرجاء الأربعة) عالم الإنكا، التي تشكل كوزكو مركزها.

كوزكو محاطة بجبال تشكل دفاعاً أقل من الخطر الذي يتعرض إليه قاطنوها من الإنكا، الذين شيدوا حصناً ضخماً للدفاع عن أنفسهم، ساكساهومان. ترضي هذه النسخة من الرواية التي يصعب الاعتماد عليها لأسباب بديهية الباحث السطحي على الأقل. مع ذلك، من الممكن أن الحصن كان نواة بداية المدينة العظيمة. في الفترة التي أعقبت التخلي عن حياة الترحال مباشرة، حين كان الإنكا مجرد قبيلة طموحة، وحين نبع الدفاع ضد عدو يفوقهم عدداً من حماية السكان المستوطنين هناك، قدمت أسوار ساكساهومان موقعاً مثالياً. يفسر عمل المدينة المزدوج كحصن ومدينة سبب بنائها، الذي لا يبدو منطقياً لو هدف لصد جيش غاز فقط، وأقل من ذلك إذا اعتبرت كوزكو عديمة المناعة من كل جوانبها. ما يستحق الذكر أن الحصن قد شيد بطريقة يهيمن فيها على الواديين المنحدرين المفضيين إلى المدينة. الأسوار المسننة تعني أن العدو يصبح رهينة حين هجومه في ثلاث جهات، ويجد إذا اقتحم هذه الدفاعات سوراً مماثلاً ثانياً وثالثاً. يملك المدافعون مكاناً للمناورة يمكنهم من التركيز على هجومهم المضاد.

كل هذا ومجد المدينة اللاحق، أعطى الانطباع أن مقاتلي كيتشوا لا يهزمون عند الدفاع عن حصنهم ضد الأعداء الساحقين. بالرغم من أن الدفاعات تعبير عن شعب في غاية الإبداع وحدسي في الرياضيات، إلا أنها تعود كما يبدو، في رأيي على الأقل، إلى فترة سبقت حضارة الإنكا، فترة قبل تعلمهم تقدير رفاهية الحياة المادية، ولكونهم عرق رصين لم يحقق الكيتشوا قدراً من العظمة الثقافية، لكنهم أنجزوا تقدماً مهماً في حقول العمارة والفنون. طرد النجاح المتواصل لمحاربي الكيتشوا قبائل

الأعداء بعيداً عن كوزكو، وبذلك تركوا المنطقة الآمنة في الحصن، التي لم تعد على أي حال كافية لزيادة عددهم، وانتشروا في الوادي المجاور على طول الجدول الذي استفادوا من مياهه. لمعرفتهم الجيدة بعظمة حاضرهم، حولوا عيونهم إلى الماضي بحثاً عن تأويل لتفوقهم. في تكريم ذكرى إله أهلتهم قدرته الخارقة بلوغ الهيمنة، شيدوا المعابد وأسسوا طبقة الكهنة المغلقة. بهذه الطريقة، معبرين عن عظمتهم بالحجارة، نمت كوزكو المهيبة لتصبح المدينة التي غزاها الإسبان في النهاية.

حتى في هذه الأيام، حيث بالإمكان رؤية الغضب الوحشي للرعاع الغزاة في كل الأعمال المتخذة لتخليد الغزو، واختفاء طبقة الإنكا المغلقة كقوة مهيمنة، تقف كتل الحجارة مبهمة منيعة على عاديات الزمان. عندما نهبت قوات البيض المدينة المهزومة، مهاجمة معابد الإنكا بغضب غير مكبوح، وحّدوا جشعهم للذهب الذي يكسو الجدران في تشكيلات مثالية لإله الشمس، أنتي، مع المتعة السادية لمقايضة رمز البهجة وواهب الحياة لدى شعب حزين بالمعبود المسلوب من شعب مبتهج. هدمت معابد أنتي حتى أساسها أو أن جدرانها شيدت للارتقاء بكنائس الدين الجديد: بنيت الكاتدرائية فوق بقايا القصر العظيم وأقيمت فوق جدران "معبد الشمس" كنيسة سانتو دومينغو، لتكون درساً وعقاباً فرضه الغازي المختال. مع ذلك، بين فينة وأخرى، يرسل قلب أمريكا، الراجف نقمة، نوبة عصبية عبر ظهر الأنديز اللطيف، وتنقض موجات صدم عنيفة على أديم الأرض. انهارت قبب سانتو دومينغو المتكبرة من أعلى إلى إيقاع العظام المهشمة وفتحت أسوارها البالية وسقطت أيضاً. غير أن الأسس التي قامت عليها لم تزل وترى كتل معبد الشمس الضخمة حجرها الرمادي بلا مبالاة، وبالرغم من فداحة الكارثة التي أوقعها الغاصبون، لم ينقل واحد من حجارتها الضخمة من مكانه.

لكن انتقام "كون" كان بسيطاً مقارنة بحجم عظمة الإهانة. تعبت الحجارة الرمادية من التضرع والشكوى إلى آلهتها الحامية من دمار العرق الغازي المقبت، والآن تكتفي بعرض تعبها عديم الحياة — المفيد فقط لإثارة إعجاب بعض السياح. ما نفع عمل الهنود الدؤوب، بناة قصر إنكا روكا، نحاتي الزوايا الحجرية الماهرين، حين يواجهون بأعمال الغزاة البيض المتهورة ومعرفتهم بعمل الآجر في عقد الأقواس المستديرة؟

رأى الهندي، المصاب بكرب والمنتظر انتقام آلهته المروع، عوض ذلك سحابة من الكنائس تظهر وتمّحي حتى إمكانية الماضي المجيد. اعتبر الغزاة جدران قصر الإنكا روكا، بارتفاعها ستة أمتار، مفيدة فقط كحاملات ثقل قصرهم الاستعماري الذي يعكس في أبنيتهم الحجرية المثالية صرخة المحارب المهزوم.

غير أن العرق الذي أبدع "أولانتاي"[1] ترك أكثر من خليط كوزكو كمعلم يشهد على ماضيها التليد. تنتشر علامات من ماضي الإنكا على طول نهري فيلكانوتا أو أوروبامبا، ولأكثر من مئة كيلومتر، أهمها دوماً يكون في أعالي الجبال، حيث التحصينات منيعة على الاقتحام وآمنة من الهجوم المفاجىء. بعد أن شققنا طريقنا ببطء ومشقة طوال ساعتين في درب وعرٍ وصلنا ذروة بيساك، كما وصلت أيضاً، وإن كان قبل وقت طويلٍ سيوف الجنود الإسبان محطمة المدافعين عن بيساك ودفاعاتها وحتى معبدها. بين كتل الحجارة المنتشرة دون انتظام، يمكنك رؤية أنها كانت مرة بناءً للدفاع، مكاناً بقي فيه إنتيواتانا وحيث ألقي القبض عليه وكبل في شمس منتصف النهار، وأماكن إقامة الكهنة. لم يبق إلا القليل.

---

(1) دراما ملحمية تدور حول الجنرال أولانتا من الإنكا الذي حكم بالإعدام لعشقه أميرة من الإنكا.

تابعنا مجرى فيلكانوتا، مروراً ببعض المواقع غير المهمة نسبياً، حتى صلنا أولانتايتيامبو، وهو حصن واسع حيث قام مانكو الثاني[1] بحمل السلاح ضد الإسبان مقاوماً قوات هيرناندو بيزارو ومؤسساً سلالة الإنكا الرابعة الصغرى. تعايشت هذه السلالة مع الإمبراطور الإسباني حتى اغتيال آخر ممثل متخنث لها في ساحة كوزكو الرئيسة بأمر من نائب ملك توليدو.

تندفع ربوة صخرية لا يقل ارتفاعها عن مئة متر فجأة إلى ربو فيلكانوتا. يقبع الحصن على القمة وعلى جانبها الوحيد غير الحصين، ويتصل بالجبال القريبة بشعاب ضيقة، وتحرسه دفاعات صخرية تعترض بسهولة دنو أي قوة مهاجمة مماثلة قوة المدافعين. للجزء السفلي من البناء غاية دفاعية بحتة، وتنقسم المناطق الأقل انحداراً إلى عشرين مستوى دفاعيا، معرضة المهاجم بسهولة إلى هجوم مضاد من الجانبين. يحتوي الجزء العلوي من الحصن على مكان إقامة الجنود ويتوج بمعبد ربما لحفظ الغنائم، المكونة من الأشياء المعدنية الثمينة. لكن لم يبق من كل ذلك حتى ذكرى، ونقلت كتل حجارة المعبد الضخمة من مكانها.

قرب ساكساومان، على طريق الإياب من كوزكو، ثمة أنموذج لبناء إنكا نمطي، الذي كان وفق رأي دليلنا، مكاناً لاستحمام الإنكا. بدا هذا غريباً لي، آخذاً المسافة بين الموقع وكوزكو بعين الاعتبار، إلا إذا كان مكان استحمام لطقوس الملك فقط. لابد أن بشرة أباطرة الإنكا القدماء (إذا صدقت الرواية) كانت أخشن من أسلافهم لأن الماء، بالرغم من أنه رائع للشرب، في غاية البرودة. يدعى هذا الموقع، المتوج بثلاث حفر عميقة شبه منحرفة (شكلها والغاية منها غير واضحين) تامبوماتشي ويقع على مدخل وادي الإنكا.

([1]) نصبه فرانسيسكو بيزارو على عرش الإنكا بعد المساعدة في خلع أتاهوليا. حارب مانكو الثاني لقاء ذلك الإسبان. سحقت ثورته الأولى في أولانتايتامبو عام 1536.

غير أن الموقع الذي تطغى أهميته الأثرية "والسياحية" على كل الأخريات في المنطقة هو ماتشو بيتشو، الذي يعني باللغة المحلية الجبل القديم. ينفصل الاسم تماماً عن المستوطنة التي احتمى في معقلها آخر أفراد شعب حر. كان المكان، وفق بينجهام عالم الآثار الأمريكي الشمالي الذي اكتشف الأنقاض، أكثر من مأوى ضد الغزاة، إذ أنه المستوطنة الأصيلة لعرق كيتشوا المهيمن، وموقع مقدس بالنسبة لهم. لاحقاً في حقبة الغزو الإسباني، أصبح مخبأ الجيش المهزوم أيضاً. ثمة دلالات على صحة رأي عالم الآثار سالف الذكر عند النظرة الأولى. في أولانتايتامبو، على سبيل المثال، تتجه أهم تحصينات الدفاع بعيدا عن ماتشو بيتشو، رغم أن المنحدر خلفها غير شديد بما يكفي ليضمن دفاعا مؤثرا ضد الهجوم من هناك، وربما توحي أن ظهرها مغطى من تلك الناحية. دلالة أخرى تبين أن انهماكهم بإخفاء المنطقة عن الغرباء، حتى بعد كل المقاومة، قد فشلت وسحقت. قبض على آخر الإنكا بعيداً عن ماتشو بيتشو، حيث وجد بينجهام هياكل عظمية جلها لنساء، فرأى أهن عذارى معبد الشمس، جماعة دينية لم ينجح الإسبان قط في القضاء عليها. كما هو مألوف في أضرحة من هذا النوع، يتوج معبد الشمس المدينة "بأنتيواتانا" الشهيرة. نحت في الصخر يخدم أيضاً كقاعدته، ومخفي بسلسلة من الحجارة المصقولة بحرص تدل على أهمية المكان. بالنظر عبر النهر ترى ثلاث نوافذ شبه منحرفة تقليدية في عمارة كيتشوا، التي قال بينجهام إنها النوافذ التي جاء منها الأخوة أيلوس في أساطير الإنكا إلى العالم الخارجي لتري الشعب المختار السبيل إلى أرض ميعادهم. الفكرة في رأيي متكلفة قليلاً. خالف عديد من الباحثين المرموقين هذا التفسير طبعا. كما أن هناك نقاشا كثيرا حول وظيفة معبد الشمس، الذي قال مكتشفه، بينجهام، إنه مكان مقفل دائري يشبه المعبد المكرس لإله الشمس نفسه في كوزكو. مهما كان الأمر، فإن شكل الحجارة وقطعها بشيران إلى أهميته الفائقة، ويعتقد أن تحت الحجارة الضخمة التي تشكل قاعدة المعبد يقبع ضريح الإنكا أو عدد من الإنكا.

يمكنك هنا بسهولة تقدير الاختلاف بين الطبقات الاجتماعية المتباينة في القرية، كل يشغل منصباً مميزاً وفق تجمعهم، ويبقى مستقلا بشكل أو بآخر عن بقية المجتمع. من المحزن أنهم لا يعرفون أي مادة للسقوف غير القش، ولم يبق الآن نماذج من السقوف حتى في أكثر المواقع رفاهية. لكن بالنسبة لمعماريين لا يعرفون شيئاً عن بناء القناطر ودعامات الأقواس، لابد أن حل المعضلة كان صعباً. رأينا في البنايات المخصصة للمحاربين فجوات في الجدران الحجرية، مثل غرف صغيرة على جانبيها حفرت فجوات تكفي لمرور ذراع رجل. من الواضح أن هذا كان مكاناً للتعذيب الجسدي، حيث يجبر الضحية على وضع ذراعيه عبر الفجوات المخصصة ثم يدفع إلى الخلف حتى تكسر عظامه. لم أقتنع بفاعلية العملية حتى وضعت أطرافي وفق الشكل المشار إليه. دفعني ألبيرتو ببطء: سبب الضغط الضئيل ألماً مفرطاً أشعرني بأني سأقطع إربا إذا استمر في الضغط على صدري.

يمكنك رغم ذلك تقدير عظمة حصن المدينة المهيب من المنظر في هواينا بتشو (الجبل اليافع)البالغ ارتفاعه قرابة 200 متر. لابد أن المكان قد استخدم كنقطة إشراف على الخارج أكثر منه للمعيشة أو تحصيناً لأن بقايا الآثار ذات أهمية ضئيلة. ماتشو بيتشو حصن منيع من جانبين فيه، تحميه هوة بعمق 300 متر حتى النهر وممر ضيق يتصل "بالجبل اليافع"، يحصن أقل جوانبه مناعة قطع متعاقبة من الأرض المرتفعة تجعل الهجوم عليه في غاية الصعوبة، في حين واجهة ماتشو بيتشو، المطلة على الجنوب تقريباً، تحميها تحصينات شاسعة وممرات طبيعية ضيقة من قمة التلال التي تجعل المرور منها للهجوم عسيراً. إذا تذكرت أيضاً أن أراضي فيلكانوتا تندفع دائرة حول سفح الجبل، يمكنك أن ترى أن أول قاطني ماتشو بيتشو كانوا حكماء في اختيارهم.

في الواقع، لا يشكل أهل المدينة الأصليون البدائيون أهمية تذكر. ويفضل، على كل حال، ترك نقاش الموضوع إلى علماء الآثار. مع ذلك،

أهم شيء لا يقبل الجدل أننا وجدنا هنا التعبير المحض لأقوى عرق أصيل في الأمريكيتين — جنس ما زال نقياً دون اتصال بالحضارة الغازية وزاخر بكنوز عظيمة مثيرة للشجن بين جدرانه التي ماتت ضجراً لانعدام الحياة فيها. يوفر المنظر الطبيعي الخلاب المحيط بالحصن ستارة خلفية حيوية تلهم الحالمين بالتجوال في أطلاله لمجرد فعل ذلك. استطاع سائحون من أمريكا الشمالية، سائرون على هدي نظرتهم العملية للعالم، وضع أفراد هذه القبائل الزائلة الذين شاهدوهم في رحلاتهم بين هذه الجدران الحية فيما مضى، غير واعين للبعد الأخلاقي الذي يفصلهم، لأن روح أهالي البلاد شبه الأصليين في جنوب أمريكا يمكن أن تدرك الاختلافات الدقيقة.

سيد الزلازل

جلجلت من الكاتدرائية نواقيس ماريا أنجولا للمرة الأولى منذ الهزة الأرضية. تقول الأسطورة إن هذا الجرس الشهير من بين أكبر النواقيس في العالم ويحتوي على 27 كيلوغرام من الذهب. من المفترض أنه قدم من طرف سيدة تدعى ماريا أنغولو، غير أن اسم الجرس نفسه بدل بسبب مشكلة بسيطة في القافية المحكية.[1]

دفعت حكومة الجنرال فرانكو[2] تكاليف ترميم أبراج ناقوس الكاتدرائية التي هدمتها هزة أرضية عام 1950، وكإيماءة عرفان صدرت أوامر للفرقة الموسيقية بعزف النشيد الوطني الإسباني. حين سمع أول

---

(1) بدلت لأن ذلك يتماشى وقافية كولو جيداً (التي تعني مؤخرة بالإسبانية).
(2) كان الجنرال فرانكو ديكتاتوريا عسكريا في إسبانيا من 1936 حتى موته عام 1975.

اللحن، غطى الأسقف رأسه بقلنسوته الحمراء وهو يلوح بيديه كدمية "توقفوا! توقفوا! هناك خطأ" وهمس، وإن كان بالإمكان سماع صوت الإسباني الساخط "سنتان من العمل ويعزفون هذا!" لا يمكنني الجزم إن حدث ذلك بحسن أو سوء نية، إذ أن الفرقة عزفت النشيد الجمهوري الإسباني.

بعد الظهر، يغادر "سيد الزلازل" الخاص بنا، الذي لا يتعدى كونه صورة بنية داكنة من المسيح، بيته الفخم في الكاتدرائية. يطاف به في موكب في المدينة حيث تتوقف رحلة حجه عند كل الكنائس الرئيسة. يتنافس أثناء مروره حشد من الكسالى في إلقاء حفنات الزهور الصغيرة التي تنمو بوفرة على منحدرات الجبال المجاورة، التي يسميها سكان المدينة "تتشو". حمرة الزهور القانية العنيفة، كثافة برونز سيد الزلازل والمذبح الفضي الذي يحمل عليه، يعطي الموكب انطباعاً بأنه احتفال وثني، إحساس تدعمه ملابس الهنود متعددة الألوان، الذين يرتدون في هذه المناسبة أفضل ثيابهم التقليدية للتعبير عن ثقافة أو نمط حياة ما زالت لها قيم حية. على النقيض، تسير مجموعة من الهنود المرتدين ملابس أوروبية في مقدمة الموكب وهم يحملون الرايات. تمثل وجوههم المتعبة المتأثرة صورة هؤلاء الكيتشوا الذين رفضوا تلبية نداء مانكو الثاني، ناذرين أنفسهم لبزارو، ويكتمون في تجريدهم من هزيمتهم كبرياء عرق مستقل.

أثناء الوقوف فوق الأجساد الصغيرة للهنود المحتشدين لمشاهدة الموكب العابر، يمكن بين الفينة والأخرى رؤية رأس أمريكي شمالي أشقر يبدو بآلة تصويره وقميصه الرياضي أنه مراسل من عالم آخر (في الواقع هو كذلك) ضاع بين عزلة إمبراطورية الإنكا.

صان ما كان يوماً العاصمة المترفة لإمبراطورية الإنكا كثيراً من بريقها لسنوات عدة – بسبب الجمود فقط. كان هناك رحال جدد يتباهون بثرواتها، وإن كانت الثروات نفسها لم يحافظ عليها مدة طويلة فحسب، بل ازدادت بإنتاج مناجم الذهب والفضة التي تجمع في المنطقة. الفرق الوحيد أن كوزكو لم تعد تحمل لقب "سرة العالم"، بل مجرد نقطة أخرى في محيطها. وهاجرت كنوزها العواصم الجديدة عبر البحار لإثراء بلاط إمبراطوريين آخرين. لم يعد الهنود يعملون بجد في الأرض القاحلة، ولم يأت الغزاة أيضاً لمصارعة الأرض كل يوم من أجل لقمة عيشهم، بل لكسب الثروة بسهولة عبر مآثر بطولية أو بمجرد طمع. ببطء وهنت كوزكو وجرى تهميشها ضائعة في سلسلة الجبال، في حين برز منافس جديد على ساحل الهادي، ليما، النامية من ثمار جني الضرائب التي فرضها الوسطاء الأذكياء على الثروة المتدفقة من بيرو. وبالرغم من عدم وجود تغير عنيف يميز التحول، آلت عاصمة الإنكا البراقة إلى حالتها الراهنة مع مرور الزمن. لم تظهر إلا مؤخراً عمارة حديثة أو عمارتان كي تصدم بالمجموعة الجديدة، وغير ذلك بقيت كل معالم الفخامة الاستعمارية على حالها. أقيمت الكاتدرائية بثبات وسط المدينة، حيث تجعلها صلابة بنائها، وهو شيء شائع آنذاك، أقرب إلى حصن من كنيسة. يعكس هرج داخلها اللامع عن ماضٍ عريق. لا تتناسب اللوحات العملاقة الهاجعة على الجدران الجانبية مع الثروات المنتشرة في الحرم المقدس، لكنها مع ذلك لا تبدو في غير محلها، وبدا القديس كريستوفر المنبعث من الماء، على الأقل بالنسبة لي، قطعة جيدة. أحدثت الهزة الأرضية دماراً هنا أيضاً: أطر اللوحات مهشمة واللوحات نفسها مخدوشة مجرحة. تأثير الأطر الذهبية والأبواب الذهبية على جانب مذابح الكنيسة المتساقطة من مفاصل تعليقها في غاية الغرابة، كما لو كانت

تكشف أفات الدهر. لا يتحلى الذهب ببهاء الفضة اللطيف الذي يصبح مع مرور الأيام أكثر سحراً، وهكذا تبدو الكاتدرائية مزينة كامرأة عجوز تضع مساحيق تجميل بإفراط. ثمة براعة فنية من طرف الهنود أو الحرفيين المهجنين المهرة. لقد غرسوا في مشاهد حياة القديسين المنحوتة خشب الأرز مع روح الكنيسة الكاثوليكية وروح شعوب الأنديز الحقيقيين المبهمة.

منبر الوعظ في كاتدرائية سان بلاس، أحد درر كوزكو وما يستحق زيارات كل سائح. لا تملك أكثر من ذلك للعرض، باستثناء النقش الجميل الذي تقف أمامه مبتهجاً إلى أقصى حد، ومثل مقصورات كورس الكاتدرائية تعبر عن اندماج العرقين المتعادين، لكن المتممين بعضهما بعضاً أيضاً إلى حد ما. المدينة برمتها متحف ضخم: الكنائس طبعاً وكل بيت أيضاً، كل شرفة تطل على كل شارع هي وسيط يثير عبق الزمن السالف. ليست كل هذه بميزة واحدة طبعاً. لكن وأنا أكتب في هذه اللحظة بعيداً عن المكان، حيث تبدو ملاحظتي باهتة متكلفة، لا أملك القدرة على القول أيها تركت انطباعاً أقوى لدي. أذكر من رواسب الكنائس التي زرناها الصورة المحزنة لأبراج نواقيس كنيسة بيلين، بيت لحم، التي قوضتها الهزة الأرضية، مبسوطة كحيوان مقطع الأوصال على منحدر التل.

بعد تحليل حذر، ثمة أعمال فنية قليلة جداً بمقدورها الصمود أمام التمحيص الدقيق، كوزكو ليست مدينة تزار لمشاهدة هذه اللوحة أو تلك، بل لأن المدينة كلها مجتمعة تعطي الانطباع أنها مركز ساكن لحضارة بائدة من زمن طويل، وإن كانت أحياناً مضطربة.

لو أن كل ما يشكل كوزكو محي عن وجه البسيطة وحلت مكانه قرية صغيرة بتاريخ أقل، لبقي هناك دوماً شيء ما يقال عنها. نلقي بكل انطباعنا كما لو كنا نمزج شراباً ممزوجاً. لم تفقد حياتنا في هذين الأسبوعين سمة التشرد التي ميزت رحلتنا كلها. ثبت أن رسالة التوصية التي نحملها إلى الدكتور هيرموسا مفيدة، وأن كان في الحقيقة ليس من ذاك النوع من الرجال المحتاجين إلى تقديم رسمي ليقدم المساعدة. كان من الكافي بالنسبة له أن يعرف أن ألبيرتو عمل مع الدكتور فرنانديز، واحد من أهم المختصين بالجذام في أمريكا اللاتينية، لكن ألبيرتو لوح بالبطاقة بمهارته المعهودة. قدم لنا نقاش مكثف مع الدكتور هيرموسا صورة تقريبية للحياة في بيرو والفرصة للقيام برحلة في وادي الإنكا كله في عربته. كان في غاية اللطف معنا ووجد لنا بطاقات سفر في القطار إلى مانشو بيتشو.

يبلغ معدل سرعة قطارات المنطقة قرابة 10 إلى 20 كيلومتر في الساعة – تنجز الظروف المضنية هذه ضمن المواجهة الدائمة للصعود والهبوط المعتبرين. كي يتغلب القطار على الصعود الصعب عند مغادرة المدينة، توجب بناء سكة حديد بطريقة تؤهل القطار التحرك إلى الأمام برهة، ثم الانزلاق إلى الخلف إلى سكة أخرى حيث يبدأ صعوداً جديداً، ويتكرر هذا التقدم والنكوص عدة مرات حتى يصل القمة ويشرع في الهبوط بمحاذاة مجرى النهر الذي يتدفق في النهاية في فيلكانوتا. قابلنا في رحلة القطار محتالين من تشيلي يبيعون الأعشاب الطبية ويطالعون الحظ. كانا ودودين معنا وقاسمانا طعامهما بعد أن دعوناهما لشرب المتة. عند وصول الأطلال صادفنا مجموعة من لاعبي كرة القدم الأمريكية دعونا للعب معهم. سنحت لي الفرصة لعرض بعض الإمساك بالكرة بشكل جيد، قبل الاعتراف بتواضع أنني لعبت في الفريق الأول في بيونس أيرس

مع ألبيرتو، الذي عرض مهارته في منتصف الملعب على رمية يدعوها أهل البلدة هناك "بامبا". شدت مهارتنا المدهشة نسبياً انتباه صاحب اللعبة الذي كان أيضاً مدير الفندق. دعانا للبقاء هناك يومين إلى أن تجري تصدير عصابة الأمريكيين الشماليين في عربات خاصة في القطار. كان السيد سوتو، علاوة على كونه شخصية رائعة، رجلاً جيد الاطلاع، وبعد أن استنفد الحديث عن موضوعه المفضل الرياضة، استطعنا أن نتكلم طويلاً عن الإنكا، التي يعرف عنها الكثير.

شعرنا بالحزن حين أزفت لحظة المغادرة. شربنا آخر قهوة رائعة حضرها السيد سوتو وركبنا القطار الصغير الذي ستستغرق رحلته إلى كوزكو 12 ساعة. في هذا النوع من القطارات ثلاث درجات من العربات "محجوزة" للهنود المحليين: تشبه عربات نقل المواشي المستخدمة في الأرجنتين، باستثناء كون رائحة روث البقر سارة أكثر من مثيلاتها البشرية. فكرة السكان الأصليين، وهي فكرة شبه حيوانية، حول التواضع والنظافة تعني، بصرف النظر عن الجنس أو العمر، قضاء الحاجة على قارعة الطريق. تنظف النساء أنفسهن بقمصانهن والرجال لا يكترثون إطلاقاً بذلك، ويستمرون كما كانوا. الثياب الداخلية للنساء اللاتي عندهن أطفال هي حرفياً مستودعات غائط، نتيجة لطريقة تنظيف الأوغاد الصغار كلما أطلقوا غازات باطنية.

بطبيعة الحال يمكن للسياح المسافرين في عربات القطار المريحة أن يلتقطوا فكرة ضبابية فقط حول الظروف التي يعيشها الهنود من اللمحات السريعة التي يرونها أثناء مرور القطار المتوقف للسماح لهم بالمرور. حقيقة أن عالم الآثار الأمريكي بينجهام هو الذي اكتشف أنقاض المدينة وقدم اكتشافاته للجمهور العريض في مقالات بسيطة سهلة المنال، يعني أن ماتشو بيتشو الآن شهيرة جداً في تلك البلاد الشمالية ويأتي معظم الأمريكيين الشماليين القادمين إلى بيرو إلى هنا (يطيرون مباشرة في الغالب إلى ليما، ويطوفون في كوزكو، ويزورون

الأطلال ويعودون إلى بلادهم دون الاعتقاد أن شيئاً آخر يستحق المشاهدة).

متحف الآثار في كوزكو فقير جداً. حين فتحت السلطات عيونها على جبال الكنوز المهربة من المواقع المختلفة، كان الوقت قد فات. الباحثون عن الكنوز، السياح، علماء الآثار الأجانب، وكل من له اهتمام في الموضوع، نهبوا المنطقة بانتظام واستطاعوا جمع ما تبقى فقط من أجل المتحف: الفضلات في الواقع. بالرغم من ذلك، ولأمثالنا قليلي الاطلاع على علم الآثار، وبمعرفة مشوشة تم الحصول عليها مؤخراً حول حضارة الإنكا، كان هناك ما يكفي للمشاهدة، ولقد شاهدناه في بضعة أيام. كان القيم على المتحف واسع المعرفة وحماسته منقطعة النظير للعرق الذي تسري دماؤه في عروقه. حدثنا عن الماضي الرائع وبؤس الحاضر، عن الحاجة الملحة لتعليم الهنود، كخطوة أولى نحو إعادة تأهيلهم بشكل كامل. أصر على أن رفع المستوى الاقتصادي للعائلات الهندية في الحال هو السبيل الوحيد لتلطيف التأثيرات المخدرة للكوكة والشراب، وتكلم عن تعزيز فهم كامل وأدق لشعب كيتشوا حتى يتمكن أفراد هذا العرق من النظر إلى ماضيهم والشعور بالفخر، عوض النظر إلى حاضرهم والشعور بالعار لانتمائهم إلى الهنود أو طبقة المهجنين. كانت مشكلة الكوكة تناقش في الأمم المتحدة، فأخبرناه عن تجربتنا مع المخدر وتأثيراته. أجاب أن الشيء نفسه حدث معه وانفجر في سيل من الشتائم ضد الذين يحققون الأرباح من تسميم عدد كبير من الناس. يشكل عرقان، الكولا والكيتشوا، غالبية شعب بيرو، وهما الوحيدان اللذان يتعاطيان الكوكة. شكلت ملامح قيم المتحف شبه الأصيلة وعيناه المشعتان بالحماسة وإيمانه بالمستقبل، كنزاً آخر مضافا إلى المتحف، متحف حي ودليل على أن هذا عرق ما زال يكافح لنيل هويته.

نصب نبعنا من أجراس البيوت[1] فأخذنا بنصيحة جارديل[2] وولينا وجهينا شمالاً. كانت أبنكاي وقفة إجبارية لأن الشاحنات تغادر من هناك إلى وانكاراما، آخر بلدة قبل مستعمرة الجذام في هوامبو. أسلوبنا المفضل في توسل فراش ومأوى لم يتغير عن قبل إطلاقاً (الحرس المدني والمستشفيات) وكذلك المواصلات – التنقل بالمجان – سوى أن الأخير استوجب انتظارنا يومين إذ لم توجد شاحنة تغادر في أيام عيد الفصح. تجولنا هائمين بلا هدف في القرية الصغيرة، لم نجد ما يثير الاهتمام، ليس ما يكفي لسد الرمق، لأن طعام المستشفى كان شحيحاً. كنا نستلقي في حقل بمحاذاة الجدول، ناظرين إلى السماء المتغيرة مع حلول المساء، حالمين بذكريات الحب القديم، أو متخيلين الصورة المغرية لطعام عادي في كل سحابة.

أثناء العودة إلى مركز الشرطة للنوم قليلاً، سرنا من طريق مختصر فأضعنا السبيل. شققنا طريقنا عبر الحقول وفوق السياج حتى بلغنا أخيراً مدخل بيت. كنا قد تسلقنا الجدار الحجري عندما رأينا كلباً وصاحبه جعلهما ضوء القمر يبدوان كشبحين! غير أننا لم ندرك أن شكلينا وقد رسم الليل محيطيهما كانت أكثر رعباً. في الإجابة على قولي المؤدب "مساء الخير" سمعنا صوتاً مبهماً – أعتقد أني سمعت كلمة "فيراكوتشا!"[3]، فر على إثرها الرجل والكلب داخل البيت مهملين اعتذارنا ونداءاتنا الودودة. بهدوء غادرنا عبر البوابة الأمامية المفضية إلى درب بدا أنه الطريق الصحيح.

---

(1) لعله يقصد رسائل التوصية – المترجم.
(2) كان كارلوس جارديل ممثلاً أرجنتينياً شهيراً ومؤلف موسيقى تانغو.
(3) إله الخلق عند الإنكا. كما يستخدم الهنود الكلمة أيضاً إشارة للرجل الأبيض.

ذهبنا في إحدى لحظات الملل تلك إلى الكنيسة لمشاهدة احتفال علي عن مقربة. كان القسيس المسكين يحاول تقديم قداس يستمر ثلاث ساعات – لكن آنذاك – بعد ساعة ونصف – كان قد استنفد أقصى طاقته. نظر إلى الجمع المحتشد وعيناه تتوسلان مشيراً بيديه يائساً في اتجاهات مختلفة من الكنيسة. "انظروا! انظروا! لقد جاءنا السيد، إنه بيننا وروحه تهدينا." بعد لحظة هدنة، انطلق القسيس إلى انحراف مفاجيء جديد عن الموضوع، وحين بدا أنه سيصمت – لحظة درامية عالية – شرع ثانية في هراء مماثل. كانت المرة الخامسة أو السادسة التي قدم فيها المسيح الصبور، فأصبنا بهلوسة غادرنا على إثرها المكان بسرعة.

ما سبب هجوم الربو الذي أصابني، ليس بوسعي القول (وإن كان بإمكاني التخمين أن أحد المؤمنين يمكنه معرفة ذلك)، لكن ما إن وصلنا وانكاراما حتى أصبحت غير قادر على الوقوف على قدمي. لم يكن معي أدرينالين فازداد الربو سوءا عندي. متدثرا بغطاء شرطي، نظرت إلى هطول المطر وأنا أدخن لفافة سوداء بعد أخرى، ما ساعد على التخلص من التعب نوعاً ما. في وقت يقارب السحر استطعت أن أخلد إلى النوم مستنداً إلى وسادة في الممر. شعرت في الصباح ببعض التحسن ووجد ألبيرتو بعض الأدرينالين، الذي أعاد لي عافيتي مع بعض الأسبرين.

بلغنا الحاكم، ملازم أول وقائم مقام القرية، بوجودنا وطلبنا منه حصانين كي نذهب إلى مستعمرة الجذام. استجاب الرجل اللطيف إلى طلبنا بسعادة، واعداً أن الحصانين سيكونان في انتظارنا في مركز الشرطة في غضون خمس دقائق. ونحن في الانتظار، توقفنا لمشاهدة مجموعة من الشباب تتدرب على إطاعة أوامر استبدادية لجندي عاملنا بالأمس في غاية الكياسة. عند رؤيته وصولنا، حيانا باحترام عظيم ثم استرسل في إصدار أوامره الخاصة بكل أنواع التدريب على المهرجين المسؤول عنهم. واحد من كل خمسة شباب بالعمر المؤهل ينهي الخدمة العسكرية في بيرو، ويتعرض الباقون إلى تدريبات كل يوم أحد، وهم الجنود الضحايا

الذين شاهدناهم. في الواقع، كلهم ضحايا: المجندون المعرضون لحنق مدربهم الذي يعاني بدوره من بلادهم. غير فاهمين معظم إسبانيته، غير مدركين للأهمية الرئيسة للالتفاف إلى ذلك الجانب أو ذاك، أو السير ثم التوقف وفق رغبة رئيسهم، قاموا بفعل كل شيء بفتور يكفي لإغضاب أي كان.

وصلت الجياد وخصص الجندي لنا دليلاً لا يتكلم سوى كيتشوا. بدأت الطريق بممر جبلي لا تقدر أي جياد أخرى على اجتيازه يتقدمها، سيراً على الأقدام، الدليل الذي أمسك بلجمها في المناطق الصعبة. كنا قد قطعنا ثلاثة أرباع الطريق حين ظهرت امرأة عجوز وصبي. أمسكا بالعنان وانطلقا في إلقاء خطبة مسهبة لم نفقه منها سوى كلمة تشبه "حصان". في البدء حسبنا أنهما يبيعان سلال القصب لأن العجوز كانت تحمل منها عدداً لا بأس به. "أنا لا أريد شراء. أنا لا أريد!" دامت على القول وكان يمكن أن استمر لو أن ألبيرتو لم يذكرني أن محدثتنا كانت من كيتشوا، وليس من أقارب طرزان. أخيراً وجدنا شخصاً قادماً من الجهة المعاكسة يتكلم الإسبانية شرح لنا أن هذين الهنديين أصحاب الجياد وكانا مارين من أمام بيت الملازم الأول الحاكم فأخذهما منهما وقدمهما إلينا. أحد المجندين، صاحب حصاني، جاء من مسافة سبعة فراسخ استجابة لواجبه العسكري، والمرأة العجوز المسكينة تعيش في الجهة المعاكسة لما نحن ذاهبان إليه. فعلنا ما يمكن أن يفعله أي شخص محترم – الترجل وإكمال الطريق سيراً على الأقدام، بينما سار الدليل أمامنا حاملاً كل حاجياتنا على ظهره. أكملنا المرحلة الأخيرة إلى مستعمرة الجذام على النحو التالي: أعطينا دليلنا سوليس كمكافأة. شكرنا كثيراً رغم أن المبلغ كان ضئيلاً.

استقبلنا مدير المستوصف السيد مونتيغو، وبالرغم من عدم استطاعته تقديم مكان نترل فيه، قال إنه سيرسلنا إلى بيت أحد مالكي الأراضي في المنطقة، وهذا بالفعل ما فعله. قدم لنا المزارع غرفة وفراشا

وطعاما، كل ما كنا بحاجة إليه. ذهبنا صباح اليوم التالي لزيارة المرضى في المستشفى الصغير، حيث يقوم المسؤولون بعمل عظيم، حتى ولو لم ينتبه أحد إلى ذلك. الحالة العامة للمكان مأساوية، ثلثا المساحة، أقل من نصف بيت سكني مؤلف من أربع طوابق، مخصصة إلى "منطقة المرضى" التي تجري فيها الحياة الكاملة للمحجوزين الواحد والثلاثين، الذين يقضون الوقت في انتظار وصول الموت بلا مبالاة (على الأقل هذا ما أظنه). الظروف الصحية مفجعة، ورغم أن هذا قد لا يسبب تأثيرات عكسية على هنود الجبال، فإن القادمين من مناطق أخرى، حتى لو كانوا متعلمين أكثر قليلاً، يجدون ذلك باعثاً على كآبة عظيمة. فكرة قضاء حياتهم كلها بين أربعة جدران طينية ومحاطين بأناس يتكلمون لغة أخرى، مع وجود أربعة ممرضين فقط يقومون بزيارات قصيرة كل يوم، تسبب الانهيار العصبي.

ذهبنا إلى حجرة سطحها من قش، وسقفها مقدد بالقصب وأرضها من التراب، حيث كانت فتاة بيضاء تقرأ "ابن العم باسيليو" للكاتب كيروس ما إن تكلمنا معها حتى انهارت الفتاة باكية بما لا يقبل العزاء، واصفة حياتها "بالجمجمة"[1] جهنم متقدة. ذهبت الفتاة المسكينة إلى مناطق الأمازون، حيث أخبروها بالنبأ المشؤوم، وقالوا إنهم سيرسلونها إلى مكان أفضل للعلاج. تحلى المستشفى في كوزكو، وإن لم يكن كاملاً بأي حال من الأحوال، بقدر معين من الراحة. أعتقد أن تعبيرها "الجمجمة" كان التعبير المنصف الوحيد لوصف وضع الفتاة. الشيء الوحيد المقبول في ذلك المستشفى كان الدواء، ويتحمل المرضى ما تبقى بالمعاناة وروح هنود بيرو الجبلية المؤمنة بالقضاء والقدر.

زادت حماقة الجيران المحليين من عزلة المرضى والطاقم الطبي. أخبرنا أحدهم أن رئيس الجراحين في العيادة احتاج لإجراء عملية خطيرة نوعاً ما لا يمكن أن تجرى بأي شكل على طاولة المطبخ ودون أدوات الجراحة

---

[1] الجمجمة أو الجلجلة: موضع صلب المسيح – المترجم.

المناسبة. لذا طلب مكاناً، حتى لو كان حجرة حفظ جثث الموتى في مستشفى قريب في أنداوايلس. جاء الرد بعدم الموافقة ومات المريض دون معالجة. أخبرنا السيد مونتيو أنه كان مسؤولاً عن تنظيم خدمات جديدة منذ بداية تأسيس مركز الجذام هذا، بمبادرة من مختص الجذام الشهير الدكتور بيسي. عندما وصل بلدة وانكاراما، لم يؤجره فندق أو نزل حجرة لقضاء الليلة، ورفض الصديق أو الصديقان اللذان يعرفهما في البلدة استضافته، ولما كان المطر على وشك الهطول، أجبر على البحث عن مأوى في زريبة خنازير حيث قضى الليلة. كان على المريضة التي تكلمت معها سابقاً السير على الأقدام حتى المستعمرة لأن أحداً لم يقبل تأجيرها ومرافقها حصانين – كان ذلك بعد سنوات من تأسيس المستعمرة.

بعد الترحيب بنا على الرحب والسعة، أخذونا لزيارة مستوصف جديد يبعد بضع كيلومترات عن المستوصف القديم. حين سئلنا عن رأينا، لمعت عيون الممرضين بفخر، كما لو كانوا من شيد البناية طوبة طينية طوبة بعرق جبينهم. بدا أن التأكيد على نقدنا صارم إلى حد ما، غير أن شوائب مستعمرة الجذام الجديدة هي كالقديمة تماماً: تفتقر إلى مختبر والتسهيلات الجراحية إلى حد يفاقم الأمور، وتقع في منطقة مبتلية بالبعوض، وتمثل عذاباً بحتاً لكل من عليه قضاء يوم كامل هناك. نعم، بوسعها تأمين مكان لـ 250 مريضاً، وفيها طبيب مقيم وتقدمت في المجال الصحي، لكن هناك المزيد يمكن عمله.

بعد يومين من المكوث في المنطقة، حيث ازداد الربو عندي سوءاً، قررنا المغادرة والحصول على علاج أفضل بعد حين.

انطلقنا في رحلة عودتنا بعد أن زودنا المزارع الذي قدم لنا المأوى بالخيول، ومعنا الدليل مقتضب الكلام نفسه الذي حمل حقائبنا تحت إصرار مالك الأرض. وفق ذهنية الأغنياء في المنطقة من الطبيعي جداً أن يحمل الخادم وإن كان سائراً على الأقدام كل الأحمال والأعباء غير

المريحة. انتظرنا حتى وارانا أول منعطف عن الأنظار، وأخذنا حقائبنا من الخادم، الذي لم يكشف وجهه المتعجب إن كان قد قدر إيماءتنا أم لا.

نزلنا ثانية عند الحرسِ المدني في وانكاراما، حتى وجدنا شاحنة تحملنا أبعد في اتجاهنا شمالاً بإصرار، ما تسنى لنا في اليوم التالي. بعد يوم متعب من الترحال، أخيراً وصلنا بلدة أنداوايلس، فذهبت في التو إلى المستشفى لاستعادة صحتي.

صوب الشمال دوماً

بعد استراحة يومين في المستشفى، والشفاء جزئياً، غادرنا المأوى في الحال مرة أخرى لنقبل إحسان صديقنا العظيم الحارس المدني، الذي استقبلنا بروح مرحة كالعادة. كان مالنا شحيحاً وعليه أكلنا أشح، لكننا لم نود العمل قبل الوصول إلى ليما، حيث الأمل معقول أكثر في العثور على عمل بأجرة أفضل وتوفير ما يكفي للاستمرار في الرحلة، إذ ليس هناك من كلام عن العودة.

مرت الليلة الأولى بشكل جيد لأن الملازم الأول المسؤول عن المركز، رجلٍ مجامل، دعانا لتناول الطعام، وأكلنا ما يكفي لنخزن لما ينتظرنا لاحقاً. الجوع وحده، أصبح الآن مرافقاً يومياً، ما ميز اليومين القادمين، وكذلك الملل، إذ كان من المستحيل الابتعاد كثيراً عن نقطة التفتيش حيث أن السائقين ملزمون بالذهاب إلى هناك لفحص أوراقهم، قبل الشروع أو الاستمرار في رحلاتهم.

في نهاية اليوم الثالث، الخامس لنا في أنداوايلس، وجدنا ما كنا في انتظاره في شكل شاحنة ذاهبة إلى أياكوتشو. غير أن ذلك فشل بعد

لحظة لأن ألبيرتو تفاعل بعنف عند رؤية جنود الحرس المدني يهينون امرأة هندية جاءت لتجلب طعاماً لزوجها السجين. لابد أن رد فعله كان في منتهى الغرابة بالنسبة لمن يعتبرون الهنود مجرد أشياء فقط، يستحقون الحياة لكن ليس أكثر من ذلك. بعد هذا لم تعد لنا حظوة.

مع حلول الليل، غادرنا القرية التي سجنا عدة أيام في ثغرها الإجباري. توجب على الشاحنة الصعود إلى قمة الجبال الحارسة المخرج الشمالي من أنداوايلس، حيث ازداد البرد كل دقيقة. وكان ختام ذلك البلل حتى العظم من قبل واحدة من عواصف المنطقة العنيفة، ولم نملك حيالها أي حماية، حيث كنا في صندوق شاحنة تحمل عشرة عجول صغيرة إلى ليما ومسؤولين عن العناية بها، مع صبي هندي كان مساعداً للسائق أيضاً. قضينا جميعاً الليلة في بلدة تدعى شينتشيروس. أما نحن، المرتجفين برداً، فقد نسينا أننا منبوذون أيضاً دون مال، فتناولنا وجبة خفيفة متواضعة وطلبنا فراشاً واحداً لكلينا. صاحب طلبنا، لا حاجة للقول، دموع غزيرة وعويل لابد أنه أثار شفقة المالك: خمسة سوليس مقابل كل شيء. قضينا كل اليوم التالي ونحن نمر من وديان ضيقة شديدة الانحدار إلى "باميا" كما يدعون السهل المرتفع في قمم سلسلة الجبال في بيرو. وإلى حد ما، لا تعرف طوبوغرافيا البلاد أية سهول أبدا، باستثناء مناطق الغابات في الأمازون. ازدادت مهمتنا صعوبة مع مرور الوقت إذ أن الحيوانات، وقد فقدت طبقة النشارة التي كانت تقف عليها وتعبت من الانتظار في الوضع نفسه متلقية هزات الشاحنة، أخذت في الوقوع. كان علينا إيقافها ثانية على أقدامها، لأن الوقوع قد يؤدي إلى خطر موت بعضها.

في لحظة معينة، ظن ألبيرتو أن قرن أحدها قد كشط عين أخرى فأخبر الصبي الهندي القريب من موقع الحدث. بهزة من كتفيه، صب فيها كل روح عرقه، قال "لماذا، حين كل ما ستراه روثاً" واستمر في ربط عقدة بهدوء، المهمة التي كان يقوم بها قبل أن يقاطع.

أخيراً وصلنا أياكوتشو، المشهورة في تـاريخ أمريكـا اللاتينيـة بالمعركة الحاسمة التي ربحها بوليفار في السهول المحيطة بالبلدة. الـشارع المروع المضيء والمصيب كل الجبال البيروية مثلمة القمم بالبلاء، يـصبح في أسوأ حالاته هنا. الأضواء الكهربائية تبعث فقط أضعف وهج برتقالي مشع في الليل. دعانا سيد وقور، هوايته جمع الأصدقاء الأجانب، للنـوم في بيته ووجد لنا في اليوم التالي شاحنة متجهة إلى الشمال، لذا لم نتمكن من زيارة إلا واحدة أو اثنتين من الكنائس الثلاث والثلاثين التي تحتويها البلدة بين تخومها. ودعنا صديقنا الطيب منطلقين إلى ليما.

عبر وسط بيرو

استمرت رحلتنا على المنوال نفسه، نتناول الطعام من حـين إلى آخر كلما أشفقت على عوزنا نفسٌ كريمة. مع ذلك لم نأكل قط كثيراً وأصبحت الفاقة أفدح عندما أخبرنا ذاك المساء أن انهياراً صـخرياً قـد حدث على بعد مسافة قصيرة أمامنا، ولا يمكننا العبور، وينبغي علينـا قضاء الليلة في قرية صغيرة تدعى أنكو. انطلقنا في اليوم التـالي ثانيـة، صعدنا إلى شاحنتنا، أجبرنا حين وصلنا الانهيار الصخري بعد قليل على قضاء النهار هناك. كنا جائعين وفضوليين ونحن نراقب العمال يـضعون المتفجرات في الصخور الكبيرة التي سقطت على الطريق. كـان لكـل عامل ما لا يقل عن خمسة مشرفين يدلون بآرائهم صائحين ويعيقـون عمال الديناميت، الذين لم يكونوا بدورهم عمالاً مثاليين.

حاولنا خداع جوعنا بالسباحة في النهر الجارف الجاري في أخدود في الأسفل، لكن المياه كانت مثلجة فلم نمكث فيها طويلاً إذ أن كلانـا لا يملك مقاومة البرد، كما أوردت سابقاً.

أخيراً، بعد واحدة من مخزون قصص محنتنا، قدم لنا رجل بعض قوالح الذرة وآخر قلب بقرة وبعض فضلات ذبيحة.

أعارتنا امرأة قدرها، فرحنا نعد وجبتنا، لكن في منتصف المهمة حرر الديناميت الطريق وبدأت مجموعة الشاحنات في الحركة. استعادت المرأة قدرها فأجبرنا على أكل الذرة نية ووضعنا اللحم غير المطبوخ جانباً. توج بؤسنا اقتراب الليل وتحويل عاصفة مطر الطريق إلى نهر وحل نحطر. كان هناك مكان لمرور شاحنة واحدة كل مرة، لذا مرت الشاحنات التي في الطرف البعيد من الانهيار أولاً، ثم تبعتها التي في الطرف الذي نحن فيه. كنا من بين الأوائل في الخط الطويل، لكن ترس الشاحنة الأولى كسر عندما دفعها جرّار يساعدها في العبور الصعب بعنف. حجزنا مرة أخرى. أخيراً، جاءت عربة جيب فيها رافعة من الجانب الآخر للتل لتسحب الشاحنة إلى جانب الطريق، وتسمح لنا بالاستمرار في سبيلنا. شقت العربة طريقها في الليل وكالعادة ذهبنا من وديان حامية نوعاً ما، إلى تلك السهول البيروية الشاسعة المتجمدة حيث تعرضنا لطعنات الجليد والمطر المنهمر. اصطكت أسناننا، ألبيرتو وأنا، من الصقيع الناجم عن الجلوس في الموضع نفسه، وتناوبنا على مد أرجلنا لإيقاف التشنج. كان جوعنا كحيوان غريب لا يعيش في جزء معين فقط، بل في الجسد كله فيثير أعصابنا ويضعنا في حالة نفسية سيئة.

وصلنا وانكالو مع خيوط النور الأولى وسرنا من أمام صف بيوت يبلغ 15 بيتاً حيث وضعتنا الشاحنة إلى مركز الحرس المدني، موقفنا المعتاد. اشترينا قليلاً من الخبز، حضرنا المتة وكنا على وشك البدء في إخراج القلب النيء وفضلات الذبيحة الشهيرة عندما عرضت علينا شاحنة نقلنا إلى أوكسابامبا، فلم نتمكن من إضرام جمرات نارنا بعد. نبع اهتمامنا بالذهاب إلى هناك من حقيقة أن أم أحد رفاقنا في الأرجنتين كانت تعيش هناك، على الأقل حسبنا ذلك. تعلقنا بأمل أنها قد تقتل

جوعنا بضعة أيام وربما تزيننا بسوليس أو اثنين، لذا غادرنا واتكالو دون رؤيتها، وقد حفزتها الصرخات المتلهفة لبطوننا المتعبة.

الجزء الأول من الطريق كان رائعاً، مررنا بمجموعة من القرى الصغيرة، لكن بحلول السادسة مساء شرعنا في هبوط طريق ضيق محفوف بالمخاطر، يكفي لمرور عربة واحدة فقط. كان من العادة السماح بعبور العربات من جهة واحدة في أي وقت من النهار، لكن لسبب غير معروف جعلوا هذا اليوم استثنائياً وتداولت الشاحنات أمر مرورها بصياح كثير ومناورة محكمة اندفعت العجلات الخلفية فوق الحواف شديدة الانحدار، لم يكن منظراً مريحاً للأعصاب.

ربضت وألبيرتو كل في إحدى أركان الشاحنة مستعدين للقفز إلى الأرض الصلبة عند أول دلالة لحدوث حادث، غير أن مرافقينا الهنود في الرحلة لم يحركوا ساكنة. بعثت مخاوفنا حقيقة أن عديداً من عمليات عبور هذا الجزء من الساحل الجبلي تتصف بحوادث مؤسفة تصيب زملاء أقل حظاً من السائقين الذين يمرون من هذا الطريق. تأخذ كل شاحنة تخرج عن الطريق حمولتها البشرية الكبيرة معها إلى هوة عمقها 200 متراً وتحط في النهر المضطرب – لاغية أي أمل بالنجاة. خلف كل حادث، وفق الإحصاءات المحلية، الجميع موتى – مع عدم وجود ولا حتى جريح واحد.

لم يحدث شيء مؤسف من حسن الحظ هذه المرة، وعند العاشرة ليلاً وصلنا قرية تدعى لا مرسيد، تقع في منطقة مدارية منخفضة، تبدو مثل أي قرية في الأدغال. تخلى شخص خير عن فراش لنا لقضاء الليلة ووجبة عامرة. شملت الوجبات في اللحظة الأخيرة حين جاء الرجل ليرى إن كنا على ما يرام ولم نملك وقتاً كافياً لإخفاء قشر البرتقال الذي قطفناه من بعض الأشجار لتجربته وإسكات جوعنا.

علمنا بحزن من مركز الحرس المدني أن الشاحنات لا تقف هنا للتسجيل، مما يجعل حصولنا على نقل مجاني في غاية الصعوبة. شهدنا

أثناء وجودنا هناك إخبارية عن جريمة قتل من قبل ابن الضحية وخلاسي متباه قال إنه صديق حميم للرجل القتيل. حدثت الجريمة بغموضٍ قبل أيام وكأن المشتبه به الأول هندي جلب الرجلان صورته معهما. عرض علينا الرقيب الصورة قائلاً "انظرا، أيها الطبيبان، صورة كلاسيكية لقاتل." أومأنا الرأس بلا حماسة، لكن عند مغادرة المركز سألت ألبيرتو "من بالضبط هو القاتل؟" وكان رأيه مثلي أن ملامح الرجل الأسود إجرامية أكثر من الهندي.

أثناء ساعات انتظارنا الطويلة، أقمنا صداقة مع شخص قال إن بإمكانه ترتيب كل شيء ولن يكلفنا ذلك شيئاً. وكي يقرن كلامه بأفعال تكلم مع سائق شاحنة وافق على أخذنا معه، مع ذلك تبين لاحقاً أنه اتفق معه أن يدفع كل منا خمسة سولبس، أي أقل 20% من السعر الذي يتقاضاه السائقون. أجبنا بأننا مفلسان، والحقيقة أننا كنا على بعد سنتات من ذلك. وعد أن يفي بالدين، وهذا ما فعله، كما أخذنا معه إلى بيته لقضاء الليلة بعد وصولنا.

كان الطريق ضيقاً وإن لم يكن بسوء الطريق الآخر، متعرجاً بين الغابات أو مزارع الفاكهة المدارية: موز، بابايا[1]، وثمار أخرى. صعدت الشاحنة وهبطت كل الطريق إلى أوكسابامبا، التي ترتفع 1000 مترٍ عن سطح البحر، والتي كانت وجهتنا في نهاية الطريق.

سافرنا حتى اللحظة في الشاحنة نفسها مع الرجل الأسود الذي بلغ عن الجريمة. اشترى لنا من إحدى المواقف على الطريق وجبة ملقياً علينا محاضرة عن القهوة والبابايا والعبيد السود، الذين كان جده منهم. قال ذلك بصراحة لكن عليك أنت أن تتبين نبرة الحياء في صوته. على كل، وافقت وألبيرتو على حله من تبعة قتل صديقه.

([1]) شجر استوائي أصفر الثمر – المترجم.

باشمئزاز عظيم علمنا في صبيحة اليوم التالي أن صديقنا الأرجنتيني قد مدنا بمعلومات خاطئة وأن أمه لم تعش في أوكسابامبا منذ مدة طويلة. عوض ذلك يسكن نسيب له مكانها، لذا كان عليه التكفل بحملنا الميت. كان الاستقبال عظيماً وتناولنا وجبة كبيرة مرتجلة، لكن سرعان ما أدركنا أنه تم الترحيب بنا كضيوف بناءً على كياسة تقاليد بيرو. قررنا نسيان كل شيء باستثناء ما يتوجب علينا فعله، وقد رأينا إفلاسنا التام وجوعنا المتراكم من أيام، وأن بإمكاننا تناول الطعام بشكل منتظم فقط في بيوت أصدقائنا غير المرحبين بنا.

كان اليوم بالنسبة لنا رائعاً، سباحة في النهر، التخلص من كل الهموم، تناول كثير من الطعام وشرب قهوة متقنة التحضير. غير أن كل الأشياء الجميلة تأتي إلى نهاية. في مساء اليوم التالي، جاء المهندس (كان مضيفنا مهندساً) بوصفة لخلاصه منا، ليست فعالة فقط، بل رخيصة بجلاء: يعرض بعض مفتشي الطرق أخذنا إلى ليما. بدت فكرة جيدة لإحساسنا فعلاً بالقيود وأننا نريد وصول العاصمة لتجربة حظنا وتحسينه. بعبارة أخرى، سقطنا في الشرك والصنارة وخيط الصيد وثقالة الصنارة.

ركبنا تلك الليلة عربة شحن صغيرة بعد أن عانينا من هطول مطر غزير عنيف بللنا حتى العظام، قبل أن نهبط الساعة الثانية صباحاً في سان رامون، أقل بكثير من نصف الطريق إلى ليما. قال السائق أن علينا الانتظار حتى يغير العربة، ولكي يهدأ من شكوكنا ترك مرافقه معنا. بعد عشر دقائق ذهب الرجل ليشتري سجائر. في الخامسة صباحاً تناول هذان الأرجنتينيان الحكيمان إفطاراً من التحقق المر بأنهما حصلا على نقل مجاني لمسافة طويلة.

كل ما تمنيته أن يحصل السائق على ما يستحقه، مما يعني إذا لم تكن هذه أكذوبة أخرى من أكاذيبه، أن يرى السائق الذي أصبح مصارع ثيران الموت على قرون واحد من ثيرانه... (في داخلي ساورني شك أن شيئاً كان خاطئاً لكنه بدا شخصاً لطيفاً فصدقت كل ما قاله ... حتى مقايضة العربة).

قبل انبلاج الفجر بقليل، قابلنا سكيرين فقمنا بعملنا المعتاد "السنوي" الذكي الذي كان يجري على النحو التالي:

1 - قل شيئاً بصوت مرتفع يشي مباشرة أنه أرجنتيني، شيئاً فيه تشي وبعض المحكية والتشدق. يبتلع الشخص المقصود الطعم، ليسأل في الحال من أين نحن، فنتبادل معه الحديث.

2 - نشرع في الحديث عن المصاعب لكن دون مبالغة، مع تركيز النظر طوال الوقت على البعيد.

3 - أتدخل متسائلاً عن تاريخ ذلك اليوم، يقدمه شخص ما، يتنهد ألبيرتو قائلاً :"تصور المصادفة، كان ذلك قبل سنة." يسأل الشخص المقصود مرور سنة على ماذا، نجيب على شروعنا في الرحلة.

4 - يطلق ألبيرتو، الذي هو أشجع مني كثيراً، تنهدا عميقا قائلاً "أمر يدعو للرثاء في هذه الظروف الصعبة، إذ لا يمكننا الاحتفال بذلك (يقول ذلك بهدوء، كما لو كان يفضي بهمه لي). يتطوع الشخص في الحال بالدفع، نتظاهر بالرفض برهة، مقرين بعدم إمكاننا سد الدين الخ، ثم أخيراً نقبل العرض.

5 - بعد الشراب الأول، أرفض بقوة قبول آخر، ينظر إلي ألبيرتو غاضباً، وكذلك مضيفنا الذي يصر، لكني أرفض دون إبداء سبب. يدعو الرجل ويكرر الدعوة حتى أعترف وكلي حرج أن عادتنا في الأرجنتين أن نشرب مع الطعام. يعتمد ما نتناوله من

طعام حسب حكمنا على تعبير وجه الرجل. في كل الأحوال، هذا أسلوب مهذب جداً.

حاولنا ذلك في سان رامون ثانية، وكالعادة نجحنا في تكديس الكمية الكبيرة التي شربناها مع طعام دسم. في الصباح استرحنا على ضفتي النهر – منظر طبيعي جميل، وإن جانب جماله اهتماماتنا الجمالية، وتحول إلى سراب مرعب من كل أنماط الأطعمة اللذيذة. من مكان قريب تتلصص عبر السياج أشكال ريانة من البرتقال. كان احتفالنا عنيفاً وحزيناً، وفي دقيقة شعرنا بالامتلاء والحموضة اللاذعة، وفي الدقيقة التالية استمرت طعنات الجوع الضارية.

قررنا، وقد طوت بطوننا، التخلي عن الخجل الباقي بعناد وترتيب وضعنا في المستشفى المحلي. هذه المرة كان ألبيرتو من تغلب عليه جبن غريب، وكان علي العثور على الكلمات المناسبة لترتيل الخطاب الدبلوماسي التالي:

" أيها الطبيب – وجدنا واحداً في المستشفى – أنا طالب طب ورفيقي مختص في الكيمياء الحيوية. كلانا من الأرجنتين وجائعان. نريدُ بعض الطعام." في مثل هذا الهجوم المباشر المفاجيء، لا يملك الطبيب المسكين إلا الموافقة على شراء وجبة لنا من المطعم الذي يأكل فيه. كنا في غاية الصفاقة.

شعر ألبيرتو بالخجل حتى إنه لم يشكره. خرجنا لنبحث عن شاحنة أخرى، وهذا ما نجحنا فيه أخيراً. الآن نحن متجهان إلى ليما ونجلس مرتاحين مع السائق الذي كان يشتري لنا القهوة من حين لآخر.

كنا نصعد الدرب الجبلي بالغ الضيق الذي أخافنا طوال الطريق، والسائق يروي بسعادة تاريخ كل تقاطع نمر به. فجأة مر من حفرة ضخمة في وسط الطريق بادية لأي أحمق. ازدادت خشيتنا من أن الرجل لا يعرف القيادة، غير أن المنطق البدائي يخبرنا أن ذلك غير ممكن، لأن

أكثر السائقين خبرة يمكنه أن يقود عربة فوق الحواف المنحدرة من قبل. بلباقة وصبر استخلص ألبيرتو منه القصة الحقيقية. تعرض الرجل لحادث أدى إلى ضعف بصره، وفق روايته، وهذا يفسر مروره في حفر عديدة. حاولنا إفهامه أن ذلك خطر عليه ومن يركب في عربته، غير أن السائق عنيد: هذه وظيفته ومديره يدفع له جيداً ولا يسأل كيف يصل، إذا وصل. علاوة، رخصة قيادته كانت مكلفة بسبب الرشوة التي دفعها.

ركب صاحب الشاحنة بعد الانطلاق بقليل. بدا سعيداً لإيصالنا إلى ليما؛ ولكن، لأني جالس فوق الشاحنة، كان علي أن أتوارى عند المرور بنقطة شرطة تفتيش، لأن نقل الركاب في شاحنة بضاعة مثل هذه ممنوع. كان صاحب الشاحنة رجلاً طيباً مدنا بالطعام طوال الطريق إلى ليما. مررنا قبل ذلك عبر لا أورويا، رغم كونها بلدة مناجم أردنا بلهفة زيارتها، إلا أننا لم نتوقف. ترتفع لا أورويا 4000 متر عن سطح البحر. يمكنك تصور شظف عيش عمال المناجم من مظهر البلدة البائس. المداخن الطويلة تطلق دخاناً أسود يغطي كل شيء بالسخام، وجوه العمال العابرين الشوارع مصبوغة كذلك بدخان كآبة قديمة، موحدة بذلك كل شيء برتابة رمادية، تزاوج مثالي مع أيام الجبل الرمادية. عبرنا أعلى نقطة في الطريق البالغة 4853 مترا عن سطح البحر قبل حلول الظلام. ومع أن الوقت ما يزال نهاراً، كان البرد قارساً. ملتحفاً ببطانية السفر، محدقاً بالمنظر الممتد من كل جانب، تمتمت بكل أنواع القصائد، في حين كان هدير الشاحنة يهدهدني.

نمنا تلك الليلة خارج المدينة، وفي اليوم التالي انطلقنا باكراً إلى ليما.

كنا في نهاية واحدة من أهم مراحل رحلتنا، دون سنتٍ أو أي فرصة في المدى القصير لكسب أي نقود، لكننا كنا سعداء.

ليما مدينة جميلة أخمدت ماضيها الاستعماري تحت بيوتها الجديدة (بعد زيارة كوزكو تبدو كثيراً كذلك). شهرتها كمدينة ودرة ثمينة غير مبررة، غير أن ضواحيها السكنية متصلة مع المنتجعات المقبولة القريبة من البحر بشوارع عريضة. يسافر سكان ليما من المدينة إلى ميناء كاللاو على طول عدة طرق رئيسة عريضة في غضون دقائق. لا يتحلى الميناء بفتنة خاصة (يبدو أن بناء جميع الموانئ يسير على نسق واحد) باستثناء الحصن، موقع معارك عديدة. وقفنا على طول أسواره الضخمة متعجبين من عمل اللورد كوتشراني الخارق حين قاد بحارته الأمريكيين اللاتينيين وهاجم هذا الحصن واحتله في واحدة من أشهر فصول تاريخ تحرير أمريكا اللاتينية.

الجزء الذي يستحق الوصف في ليما هو مركز المدينة المحيط بكاتدرائيتها الرائعة المختلفة تماماً عن الثقل الوحشي لكاتدرائية كوزكو، حيث خلد الغزاة أنفسهم بقسوة. في ليما، أصبح الفن أسلوبياً بلمسة أنثوية نوعاً ما: أبراج الكاتدرائية عالية مهيبة، لعلها الأرفع بين كل كاتدرائيات المستعمرات الإسبانية. تُركت القطع الخشبية الفنية السخية في كوزكو وتبنت هنا الذهب. صحن الكنائس هنا خفيف طليق الهواء، على نقيض تلك الكهوف المظلمة والعدوانية في مدينة إنكا. اللوحات متألقة ساطعة أيضاً، مبهجة إلى حد ما، وتتبع مدارس أحدث من لوحات الفنانين الهجن المتكتمين على أنفسهم، الذين رسموا القديسين بغضب مظلم أسير. تحمل كل الكنائس في واجهاتها ومذابحها الخواص

الكاملة لفن شوريجوريسك[1] المزين بالذهب. أهلت هذه الثروة الهائلة الأرستقراطية لمقاومة جيوش تحرير أمريكا حتى اللحظة الأخيرة. ليما هي المثال الكامل لبيرو التي لم تتطور ما وراء ظروف الاستعمار الإقطاعية، وما زالت في انتظار دم ثورة التحرر الحقيقي.

غير أن هناك ركنا في الجزء الفاخر من المدينة عزيزاً على قلبي، وكثيراً ما كنا نذهب هناك لاستعادة ذكريات ماتشو بيتشو، ذلك هو متحف الآثار وعلم الإنسان. كان دون خوليو تيللو قيم المتحف دارسا تجري في عروقه دماء هندية نقية. يحتوي المتحف على مجموعة قيمة، توليفة ثقافية كاملة.

ليما هادئة على عكس قرطبة، وإن كانت لها سمة المدينة الاستعمارية نفسها، أو بالأحرى الريفية. زرنا القنصلية حيث كانت هناك رسائل في انتظارنا. بعد قراءتها ذهبنا لنرى ما يمكننا فعله برسالة التوصية التي نحملها إلى بيروقراطي في مكتب وزارة الخارجية، الذي لم يود، طبعاً، أن يتعرف علينا. همنا على وجهينا من مركز شرطة إلى آخر – حتى حصلنا أخيراً في واحدة منها على طبق أرز – وبعد الظهر زرنا الدكتور هوجو بيسي، خبير الجذام، الذي رحب بنا بلطف غير عادي لمسؤول عن وحدة طبية محترمة مثل هذه. أمن مكان إقامتنا في مستشفى الجذام، ودعانا تلك الليلة لتناول الطعام في بيته. تبين أنه متحدث رائع، وكان الوقت متأخراً حين ذهبنا للنوم.

كما استيقظنا في وقت متأخر أيضاً وتناولنا الإفطار. كان من الواضح عدم وجود "أمر" بتقديم الطعام لنا، لذا قررنا الذهاب إلى كللاو وزيارة الميناء. كان الذهاب بطيئاً لأن ذلك كان الأول من مايو/أيار وليست هناك مواصلات عامة، فسرنا على الأقدام مسافة 14 كيلومترا. لم يكن هناك شيء معين لزيارته في كاللاو، وأقل من ذلك المراكب

([1]) عمارة باروك إسبانية تتصف بالسطح المفصل والمعقد المحكم.

الأرجنتينية. بوجه جريء أكثر من أي وقت مضى، قدمنا أنفسنا في مركز شرطة متسولين بعض الطعام، ثم عدنا بسرعة إلى ليما. مرة أخرى تناولنا الطعام في منزل الدكتور بيسي، الذي أخبرنا عن تجاربه مع أنواع الجذام المختلفة.

في الصباح ذهبنا إلى متحف الآثار وعلم الإنسان. شيء لا يصدق، لكن ضيق الوقت كان يعني أننا لن نتمكن من رؤية كل شيء. كرسنا بعد الظهر للتعرف على مستشفى الجذام[1] عن مقربة مع دليلنا الدكتور الدكتور مولينا، وهو بالإضافة إلى كونه مختصا جيدا في الجذام، من الواضح أنه جراح صدر ممتاز. كما هي عادتنا ذهبنا لتناول الطعام في بيت الدكتور بيسي.

أضعنا صباح يوم السبت كله في مركز المدينة في محاولة لصرف 50 كرونا سويديا. نجحنا أخيراً بعد قليل من الخداع. قضينا بعد الظهر في اكتشاف المختبر الذي لا يحتوي على ما يستحق الحسد. في الواقع، كان بحاجة إلى الكثير. مع ذلك، كانت سجلات حياة الأشخاص مروعة في وضوحها ومنهج تنظيمها وكذلك في تفاصيلها الشاملة. في المساء كنا مدعوين على العشاء في بيت الدكتور بيسي، وكالعادة أثبت مهارته في الحديث المفعم بالحياة.

الأحد يوم مهم بالنسبة لنا، إذ رأينا أول مصارعة ثيران، وبالرغم من أنها جرت تحت اسم "نوفيلادا"، مصارعة مع ثيران ومصارعين أقل كفاءة من المألوف، كنا في غاية الإثارة لدرجة أني لم أقدر على التركيز على أحد كتب تيللو التي كنت أقرأها في المكتبة ذاك الصباح. وصلنا في بداية المصارعة، ومع دخولنا كان ثمة ثور يقتل لكن ليس بالطريقة العادية "ضربة رحمة"، وعليه كان الثور يعاني مطروحا على الأرض والمصارع يحاول إنهاء المهمة والجمهور يصرخ. صاحب الثور الثالث إثارة معتبرة

---

[1] مستشفى دي غيا.

عندما أمسك بالمصارع بشكل مشهدي وألقى به إلى الأرض، وكان هذا كل ما في الأمر. أقفل الاحتفال مع موت الثور السادس غير الملاحظ. فن! لم أر منه شيئاً. شجاعة! إلى حد ما. مهارة! ليست كثيرة. إثارة! نسبية. باختصار، كل شيء يعتمد على ما ستفعله هنالك يوم الأحد.

صباح الاثنين ذهبنا ثانية إلى المتحف. في المساء إلى بيت الدكتور بيسي، حيث قابلنا برفسور طب نفسي، الدكتور فاليترا، متحدث جيد آخر روى لنا حكايات عن الحرب وأخرى مثل الحكاية التالية: "قبل أيام ذهبت إلى دار السينما المحلية لمشاهدة فيلم لكانتينفلاس[1]. كان الجميع يضحكون لكني لم أفهم شيئاً، ولم يكن ذلك شيئاً غير عادي، لأن الباقين لم يستطيعوا فهم شيء أيضاً. إذاً، لم كانوا يضحكون؟ في الواقع كانوا يضحكون على أنفسهم. كل واحد منهم يضحك على جزء منهم. نحن دولة فتية دون تقاليد أو ثقافة، وبالكاد مكتَشَفون، لذا ضحكوا على كل الفساد الذي استطاعت حضارتنا الناشئة إصلاحه... لكن هل نضجت أمريكا الشمالية تماماً رغم ناطحات سحابها وعرباتها وثروتها الجيدة؟ هل تركت شبابها في الوراء؟ كلا، الفروق في الشكل فقط، هم ليسوا أساسيين أصيلين، كل أمريكا واحدة في ذلك. فهمت وأنا أشاهد كاتينفلاس جميع أمريكا!"

لم تسنح فرصة يوم الثلاثاء لزيارة المتحف، لكن في الثالثة بعد الظهر قابلنا الدكتور بيسي الذي أعطى ألبيرتو طاقماً أبيض وقدم لي جاكيت من اللون نفسه. استوى الجميع، فبدونا إلى حد ما كالبشر. لم يكن في بقية اليوم شيء مهم. مرت بضعة أيام وضعنا خلالها قدماً في ركاب الجواد، وإن بقينا غير متأكدين من موعد المغادرة. كان علينا أن نغادر قبل يومين، غير أن الشاحنة التي من المفترض أن تقلنا لم تغادر بعد. الأجزاء العديدة التي تشكل رحلتنا كانت تسير سيراً حسناً. في ما يتعلق في إثراء معلوماتنا، زرنا متاحف ومكتبات، لكن المتحف الوحيد

---

(1) ممثل فكاهي مكسيكي كثير الإنتاج – شارلي شابلن المكسيك.

الذي له أهمية حقيقية كان متحف الآثار وعلم الإنسان الذي أسسه الدكتور تيللو. من منظور علمي، كان الجذام حيث قابلنا الدكتور بيسي أهم حدث، بينما كان الباقون تلامذته وعليهم قطع طريق طويل قبل تقديم شيء له قيمة تذكر. وحيث لم يكن هناك مختصون في الكيمياء الحيوية في بيرو، يدير المختبر أطباء مختصون تحدث ألبيرتو مع بعضهم، حيث وصلهم بأناس من بيونس أيرس. انسجم ألبيرتو مع اثنين منهم، لكن الثالث... حسناً، قدم ألبيرتو نفسه باسم الدكتور جرانادو، مختص في الجذام ...الخ فاعتبروه طبيباً. أجاب الرجل السخيف الذي سأله بقوله "كلا، لا يوجد مختصون بالكيمياء الحيوية هنا، ومثلما هناك قانون يمنع الأطباء من فتح الصيدليات، فإننا لا نسمح للصيادلة بالتدخل في أشياء لا يفهمونها."

كان ألبيرتو مستعداً لأن يصبح عنيفاً، لذا أمسكت به برفق وهذا ثناه عن فعل ذلك.

كانت الطريقة التي ودعنا بها مرضى المستشفى في ليما، على بساطتها، من أهم الأشياء التي تركت تأثيرا قوياً لدينا. قدموا لنا مئة نصف من السوليس مع رسالة معبرة جداً. بعد ذلك جاء بعضهم لوداعنا شخصياً وفي أكثر من حالة ذرفوا دموعاً، وهم يشكروننا على القليل من الحياة التي بعثت فيهم. صافحنا أيديهم، قبلنا هداياهم وجلسنا معهم نصغي إلى مباراة كرة قدم تبث في المذياع. إن كان هناك ما سيجعلنا نكرس أنفسنا بجد إلى الجذام، ستكون العاطفة التي أظهرها لنا كل هؤلاء المرضى الذين قابلناهم في الطريق.

ليما كمدينة لا ترقى إلى تقليدها الطويل كعاصمة بالنيابة، لكن ضواحيها السكنية جميلة جداً وواسعة وكذلك شوارعها الجديدة. الأمر المثير للاهتمام كان عدد الشرطة المحيطين بالسفارة الكولومبية. كان هناك ما لا يقل عن 50 شرطيا بالبزة الرسمية والملابس المدنية يقومون بحراسة دائمة حول المبنى كله.

اليوم الأول في رحلة الخروج من ليما لم يكن شيئاً يذكر. رأينا الطريق إلى لا أوروبا والباقي قطعناه في الليل، إلى أن وصلنا سيرو دي باسكو في الفجر. سافرنا في صحبة الأخوين بيكيرا، اللذين أطلقنا عليهما لقب "كامبالاتشي"[1] أو كامبا، للاختصار. كانا في منتهى اللطف، خاصة الأكبر سناً. داومنا على السير بالعربة طوال اليوم هابطين إلى أماكن أكثر بهجة، أصابني صداع وشعور عام باعتلال الصحة، ما لم أعان منه منذ مغادرتنا تيكليو. حين أصبحنا على ارتفاع 4853 متراً فوق سطح البحر بدأت في التحسن. عندما عبرنا وانوكو واقترابنا من تينغو ماريا كسر محور العجلة الأمامي من جهة اليسار، لكن من حسن الحظ أن العجلة التصقت بالرفرف فلم تنقلب العربة. اضطررنا تلك الليلة للنزول بفندق. احتجت إلى أخذ حقنة، لكن كما شاء حظي كسرت إبرة الحقنة.

كان اليوم التالي هادئاً خالياً من الأحداث ويوم ربو، لكن في الليل حالفنا الحظ حين ذكر ألبيرتو بصوت كئيب أن اليوم، 20 مايو/أيار، هو ذكرى الشهر السادس لرحيلنا. كان ذلك ذريعة لتطاير السوليس. بعد القارورة الثالثة تعثر ألبيرتو وانطرح أرضاً، متخلياً عن القرد الصغير الذي يحمله بين يديه وغاب عن المكان. استمر كامبا الأصغر في احتساء نصف قارورة أخرى حتى سقط على الأرض.

غادرنا بسرعة في الصباح التالي قبل أن تستيقظ المرأة التي تملك المحل، لأننا لم ندفع الفاتورة ولم يملك الأخوان كامبا مالاً بسبب تصليح محور العجلة. سارت العربة بنا طوال النهار حتى انتهى بنا الأمر إلى أحد حواجز الطرق التي أقامها الجيش لمنع الناس من السفر عند هطول مطر غزير.

([1]) تعني بالإسبانية تحف زينة كالخزف والتماثيل أو مخزن خردة.

انطلقنا ثانية في اليوم التالي وحجزنا ثانية عند حاجز. لم يسمح لنا بالمرور حتى حلول المساء، وإن توقفنا مرة أخرى في بلدة صغيرة تدعى نيسكويلا، آخر موقف لنا في ذاك النهار.

كان الدرب لا يزال مقفلاً في اليوم التالي، لذا ذهبنا إلى مركز الجيش للحصول على بعض الطعام. غادرنا بعد الظهر ومعنا جندي جريح ليساعدنا في المرور عند حواجز الطرق العسكرية. بالفعل، بعد كلومترات على الطريق، حين كانت باقي الشاحنات متوقفة، سمح لشاحنتنا بالمرور إلى بوكالبا التي وصلناها بعد حلول الليل. دفع كامبا الصغير ثمن وجبتنا، وللوداع شربنا أربع زجاجات من النبيذ التي جعلته عاطفياً فنذر لنا حبه السرمدي، ودفع ثمن إقامتنا في الفندق.

كانت المهمة الرئيسة الملقاة علينا هي الوصول إلى إيكيتوس. كان رئيس البلدية أول من زرناه، شخص يدعى كوهين سمعنا عنه كثيراً. كان يهودياً فيما يتعلق بالمال، لكنه رجل طيب. لا ريب أنه كان بخيلاً مغلول اليد، المشكلة كانت هل هو من نوعية جيدة. عهد بنا إلى وكيل الشحن البحري الذي أرسلنا بدوره للحديث مع الربان اللطيف، الذي وعدنا بمنحنا امتياز السفر في الدرجة الأولى ودفع تكاليف السفر في الدرجة الثالثة. لم يسرنا ذلك، فذهبنا لمقابلة رئيس الحامية العسكرية الذي قال إنه لا يملك ما يقدمه لنا. ثم وعد المسؤول الثاني بعد استجوابنا (وبذلك أبدى غباءً عظيماً) بالمساعدة.

ذهبنا للسباحة بعد ظهر ذلك اليوم في ريو أوكايالي التي بدت إلى حد ما مثل بارانا العليا. صادفنا الوكيل المساعد الذي قال إنه ضمن الكثير لنا، إكراماً له وافق الربان على أن ندفع تكاليف الدرجة الثالثة ونسافر في الدرجة الأولى. صفقة عظيمة!

كان هناك نوعان نادران من السمك حيث نسبح يدعوهما مواطنو المنطقة "بوفيو". تقول الأسطورة إنها تأكل الرجال وتغتصب النساء وترتكب ألف عميلة عنف أخرى. من الواضح أنها دولفين نهري، التي لها

أعضاء تناسلية مثل المرأة، فضلا عن سمات غريبة أخرى، لذا يستخدمها الهنود كبديل لكن عليهم قتلها حالما ينتهون من معاشرتها لأن منطقة الأعضاء التناسلية تقبض على عضو الرجل ولا يمكن إخراجه. قمنا تلك الليلة بمهمة مقابلة زملائنا الشاقة في المستشفي لنطلب مكاناً نقيم فيه. كما هو متوقع قابلونا ببرود وكان يمكن أن يرفضوا طلبنا لو لم تكسبنا رباطة جأشنا ودهم فقدموا لنا سريرين حيث استطعنا إراحة عظامنا المتعبة.

هبوطاً إلى أوكايالي

حملنا حقائبنا كمكتشفين، وصعدنا إلى المركب الصغير "لا سينيبا" قبل إبحارنا بقليل. كما تم الاتفاق، سمح لنا الربان بالنزول في الدرجة الأولى حيث اندمجنا مع المسافرين الميسورين بسرعة. بعد بضع صفارات ابتعد المركب عن الضفة وبهذا شرعنا في المرحلة الثانية من رحلتنا إلى سان بابلو. عندما لم يعد بالإمكان رؤية بيوت بوكالبا وكل ما بقي منظر طبيعي بانورامي ثابت للأدغال المتواصلة، بدأ الناس في ترك حواجز حافة المركب والالتفاف حول موائد القمار. اقتربنا بحذر لكن الإلهام النقدي حالف ألبيرتو فربح 90 سوليس في لعبة ورق تدعى "21" تشبه كثيراً لعبتنا "سبعة ونصف". سبب لنا هذا النصر إشمئزاز المقامرين الآخرين، لأن ألبيرتو راهن في البداية بسوليس واحد من العملة الوطنية.

في اليوم الأول لم تسنح لنا فرص للتواصل الودي مع المسافرين الآخرين، فانطوينا على أنفسنا دون الاشتراك في الحديث العام. كان الطعام قليلاً وسيئاً. لكن المركب يبحر في الليل لأن النهر كان ضحلاً. لم يكن هناك بعوض يذكر ومع أنه قيل لنا أن هذا عادي لم نصدق

ذلك، لأننا اعتدنا الآن على المبالغات (والتصريحات غير الدقيقة) التي يدلي بها الناس عندما يحاولون التعامل مع مواقف صعبة.

في صبيحة اليوم التالي أبحرنا باكراً، ومر اليوم دون أحداث مهمة باستثناء التعرف على فتاة بدت سهلة نوعاً ما، وربما ظنت أننا نملك بعض السوليس بالرغم من الدموع السخية التي ذرفناها كلما ذكرت النقود. عند المساء حين رسا المركب على ضفة النهر، جاء البعوض في أسراب ليثبت حقيقة وجوده بشكل ملموس، وهاجمنا بأسراب طوال الليل. غطى ألبيرتو وجهه بشبكة ولف نفسه بحقيبة فراشه السفرية ليحصل على قسط من النوم، لكني بدأت أشعر بعوارض الربو، وبين ذلك والبعوض لم يغمض لي جفن حتى الصباح. غابت تلك الليلة من ذاكرتي، غير أني ما زلت أذكر الإحساس الذي شعر به كفلي الذي حصل على كمية عظيمة من القرص الكثير. نمت طوال نهار اليوم التالي حيث مكثت في ركن أو آخر محاولاً اختلاس غفوة في سرير معلق استعرته. لم يظهر الربو أي إشارة على الزوال مما اضطرني إلى أخذ الاحتياط المتطرف بتناول دواء الربو بطريقة عادية أي دفع ثمنه. خفف ذلك من الهجمة قليلاً. نظرنا حالمين إلى الأدغال الكائنة ما وراء ضفة النهر، كانت خضرتها الجذابة المغرية في غاية الغموض. منعني الربو والبعوض من تلبية ذلك، لكن للغابات العذراء سطوة على الأرواح الشبيهة بروحي، حيث تقوم العوائق الجسدية وكل قوى الطبيعة الناشئة على إثارة رغبتي.

مرت الأيام برتابة عظيمة. كانت التسلية الوحيدة هي اللعبة التي لا نستطيع الاستمتاع بها بسبب وضعنا المالي. مر يومان آخران خاليان من الأحداث. تستغرق الرحلة عادة أربعة أيام لكن بسبب بطء النهر كنا نتوقف كل ليلة مما أخر رحلتنا وحولنا إلى أهداف جيدة للبعوض. مع أن الطعام أفضل في الدرجة الأولى وتهديد البعوض أقل ضراوة، لست متأكداً ما الذي ربحناه من الصفقة. كنا ميالين للبحارة البسطاء أكثر من

تلك الطبقة الوسطى الصغيرة، ثرية أم لا، المربوطة بقوة إلى ذكرى ما كانت عليه يوماً حتى تسمح لنفسها برفاهية التعامل مع رحالين مفلسين. كان جهلها مطبقاً مثل أي إنسان آخر، لكن الانتصارات الصغيرة التي حققتها في الحياة أدارت رؤوسها، وتقدم وجهات نظرها المملة بغطرسة أعظم لأنها قامت بنفسها بعرضها. أصبح الربو عندي أسوأ بالرغم من إتباعي حمية صارمة.

لمسة لا مبالية من الفتاة السهلة، التي أبدت تعاطفاً مع حالتي الصحية الباعثة على الشفقة، نفذت إلى جسدي لتثير ذكريات هاجعة من حياتي السابقة على المغامرة. تلك الليلة وقد أبقاني البعوض مستيقظاً، فكرت في تشيشينا، هي الآن حلم بعيد مسكر، رغم أن نهاية الحلم، غير العادي لهذا النوع من الذكريات الساذجة، يترك عسلاً أكثر من المرارة في ذاكرتي. أرسلت لها قبلة ناعمة غير عجولة، من صديق قديم يعرفها ويفهمها، ثم نحا ذهني طرقاً إلى مالاجوينو، تلك القاعة العظيمة من ليالي الأرق العديدة، حيث في هذه اللحظة قد تهمس كلماتها الغريبة الهادئة لطالب ود جديد.

تابعت عيني قبة السماء الضخمة، سماء النجوم تتلألأ بسعادة فوقي وكأنها ترد بالإيجاب على السؤال المطروح بعمق في داخلي: "هل يستحق ذلك كل هذا العناء؟"

- يومان آخران: ولم يتغير شيء. التقاء نهر أوكايالي ونهر مارانون اللذين يشكلان أكثر الأنهار العاتية في الأرض لا يتسم بأي شيء فائق: لا يعدو كونه كتلتين من الماء الموحل تتحدان في شكل واحد أعرض قليلاً وربما أعمق قليلاً، ولا شيء غير ذلك. لا أملك مزيداً من الأدرينالين والربو يزداد سوءاً، يمكنني تناول قليل من الأرز وشرب المتة فقط. في اليوم الأخير قبل الوصول بقليل هبت عاصفة شديدة، وهذا يعني أن علينا إيقاف المركب. احتشد البعوض حولنا في سحب وأسوأ من أي وقت مضى، كما لو كان ينتقم منا لأننا سنصبح عما قريب

بعيداً عن متناول لسعه. بدت ليلة بلا نهاية، مليئة بالصفعات والنباح المثير للأعصاب، لعب ورق بلا نهاية مثل المخدرات، وعبارات عشوائية تطلق للحفاظ على أي حديث وقضاء الوقت بسرعة أكبر. في الصباح تركت حمى النزول من المركب سريراً معلقاً شاغراً فاستلقيت فيه. كما لو كنت مسحوراً، شعرت بنبع ملتف ينحل منتشراً في داخلي، يأخذني إلى مرتفعات جديدة أو إلى هوّة، لا أدري أيهما.. أيقظني ألبيرتو بهزة خشنة. "أيها الأصلع، لقد وصلنا" اتسع النهر ليكشف أمامنا بلدة منبسطة في الأسفل فيها بنايات عالية ومحاطة بأدغال أصبحت حمراء بفعل الأرض التي تحتها.

كان يوم أحد ويوم وصولنا إلى إيكيتوس. رست السفينة على الرصيف الممتد في النهر باكراً، ذهبنا مباشرة للتكلم مع رئيس خدمة التعاون الدولية. كانت معنا رسالة توصية إلى الدكتور تشافيز باستور، لكنه لم يكن في إيكيتوس. كانوا لطافاً معنا حيث أنزلونا في الجناح الخاص بالحمى الصفراء وقدموا لنا طعام المستشفى. ما زال الربو عندي شيئاً ولم أستطع التغلب على تنفسي البائس بجهد، حتى بتعاطي أربع حقن من الأدرينالين في اليوم.

أشعر بتحسن في اليوم التالي وقضيته في الفراش أو بحقن نفسي بالأدرينالين.

حسمت أمري في اليوم التالي لاتباع حمية صارمة في الصباح وأخرى أشد أو أقل إلى حد ما في الليل وعدم تناول الأرز قليلاً تعافيت وإن لم يكن كثيراً. في الليل، شاهدنا فيلم "الثأر" من بطولة انجريد بيرجمان وإخراج روسيلليني. لا يمكنك إعطاؤه أي تقدير غير رديء.

كان يوم الأربعاء يوماً مشهوداً بالنسبة لنا بالإعلان أننا قد نغادر في اليوم التالي. أسعدنا الخبر أكثر حيث أنه لم يكن بإمكاني التحرك بسبب الربو وقضائنا أيام نائمين.

باكراً في صباح اليوم التالي بدأنا نحضر نفسياً للمغادرة. مر اليوم وما زال المركب راسياً. أعلن أن المغادرة قد تكون بعد ظهر اليوم التالي. لما كنا متأكدين أن كسل أصحاب المركب قد يجبرنا على المغادرة متأخرين وليس قبل الموعد إطلاقاً، نمنا بعمق وبعد أن تمشينا قليلاً ذهبنا إلى المكتبة، حيث اندفع المساعد، الهائج جداً، ليخبرنا أن "إل سيسني" سيبحر الساعة 11.30 صباحاً. كانت الساعة 11.05 جمعنا حاجاتنا بسرعة ولأني ما زلت أعاني من الربو، أخذنا عربة أجرة ودفعنا نصف ليرا بيروية لقطع مسافة قصيرة. وصلنا المركب واكتشفنا أنه لن يغادر قبل الثالثة بعد الظهر ويسمح لنا بالصعود الساعة الواحدة. لم نملك من الشجاعة ما يجعلنا لا نطيع فذهبنا إلى المستشفى لتناول الطعام حيث كان عدم الذهاب أفضل، بأي حال، لأن بإمكاننا "نسيان" الحقنة التي أعارونا إياها. تناولنا طعاماً رديئاً باهظ الثمن مع هندي من قبيلة ياجوا، المتدثر، بغرابة، بقميص قش أحمر وبعض الأقراط المصنوعة من القش نفسه. كان اسمه بنجامين وإن كان لا يتكلم كثيراً من الإسبانية. فوق عظم كتفه تماماً كان هناك أثر جرح من رصاصة أطلقت عليه من مدى قصير بسبب ثأر كما بدا.

طفحت الليلة بمحاربة البعوض على أجسادنا العذراء إلى حد ما. كان هناك إضافة مهمة إلى المنظور النفسي في تلك الرحلة عندما علمنا أن بالإمكان الذهاب من ماناوس إلى فنزويلا بواسطة النهر. مر اليوم التالي بهدوء، ونمنا بقدر المستطاع لنعوض ما فاتنا في محاربة أسراب البعوض.

في الواحدة صباحاً من تلك الليلة استيقظت بعد ثوان من النوم وقيل لنا أننا وصلنا سان بابلو. أعلموا مدير المستعمرة الطبية الدكتور برسياني، الذي رحب بنا كثيراً ودبر حجرة لنا تلك الليلة.

4 يناير / حزيران 1952

ضفاف النهر مكتظة بالمستوطنات. كي تجد القبائل المتوحشة ينبغي عليك اتباع روافد النهر عميقاً في الداخل، وفي هذا الوقت على الأقل، لم ننو القيام بهذه الرحلة، فلقد انتشرت الأمراض المعدية، لكن من باب الاحتياط تطعمنا ضد التوفوئيد والحمى الصفراء وأخذنا مؤونة جيدة من الأسبرين والكينين.

يتسبب الاعتلاء الأيضي في عديد من الأمراض: الطعام المتوفر في الأدغال غير ملائم غذائياً، لكنك تصبح مريضاً بالفعل فقط إذا لم تتناول الفيتامينات لمدة أسبوع، حتى لو سرنا في النهر أطول مدة دون طعام مناسب. ما زلنا غير متأكدين من هذا ونبحث في إمكانية الطيران إلى بوجوتا، أو على الأقل إلى ليجوسامو، حيث تصبح الطرق جيدة.

ليس لأننا نفكر أن السفر في النهر خطر، بل لتوفير بعض المال الذي يصبح لاحقاً ضرورياً لي.

بعيداً عن المراكز العلمية التي نجازف بأن نصبح مكشوفين فيها، صارت رحلتنا حدثاً للعاملين في مستشفى الجذام الذين أمطرونا باحترام يستحقه باحثون زائرون. أصبحت بالفعل مهتماً بالجذام وإن كنت لا أدري متى سيستمر ذلك. ودعنا مرضى مستشفى ليما بشكل رائع مما بعث فينا الحماسة للاستمرار في الرحلة. قدموا لنا موقد غاز للطبخ واستطاعوا جمع سوليس، التي تعتبر بالنسبة لوضعهم الاقتصادي ثروة، اغرورقت عيون بعضهم بالدموع حين قالوا وداعاً.

نبع تقديرهم من حقيقة أننا لم نرتد قط ثياباً فضفاضة فوق ملابسنا للوقاية ولا قفازات وصافحنا أيديهم كما نصافح أي شخص

آخر، لأننا جلسنا معهم وتكلمنا معهم حول كل شيء، لأننا لعبنا كرة القدم معهم. ربما بدا كل شيء كتبجح دون هدف، غير أن الدفعة النفسية النشطة التي قدمتها هذه الأعمال لهؤلاء المساكين – معاملتهم كبشر عاديين لا كحيوانات كما اعتادوا أن يعاملوا – كانت بلا حدود والمخاطرة بالنسبة لنا غير واردة. الوحيدان اللذان أصيبا بالعدوى حتى اليوم كانا ممرضاً في الهند الصينية عاش مع مرضاه، وكاهنا مفرط الحماسة لا أحب الاستشهاد به.

مستعمرة سان بابلو للجذام

استيقظنا في اليوم التالي، الأحد، وكنا مستعدين لزيارة المستعمرة لكن الوصول إلى هناك يقتضي الذهاب عبر النهر. ولما لم يكن ذاك يوم عمل، لم نستطع الذهاب. لذا، زرنا مديرة المستعمرة، راهبة تبدو كجزار تدعى الأم سور أليرتو، ثم لعبنا كرة قدم كان أداء كلانا فيها سيئاً. بدأ الربو عندي في التراجع.

أرسلنا يوم الاثنين كمية كبيرة من ملابسنا للغسل، ثم ذهبنا إلى المستعمرة لزيارة مجمع المرضى، حيث يوجد 600 مريض يعيشون باستقلال في أكواخ أدغال نمطية ويفعلون ما يهوون، يعتنون بأنفسهم في منظمة طورت إيقاعاً وأسلوباً خاصاً بها. يوجد هناك مسؤول محلي وقاض وشرطي.. الخ. احترام أوامر الدكتور برسياني معتبرة، ومن الجلي أنه ينظم كل المستعمرة، يحمي ويحل الخلافات الناشئة بين الجماعات المختلفة.

زرنا المستعمرة يوم الثلاثاء مرة أخرى وانضممنا إلى الدكتور برسياني في جولاته التفقدية لأجهزة المرضى العصبية. كان يحضر دراسة مفصلة لأشكال الجذام العصبية اعتماداً على 400 حالة، عمل مثير جداً للاهتمام لأن عديدا من حالات الجذام في هذه المنطقة تهاجم الجهاز العصبي في الواقع، لم أر مريضاً واحداً لا يعاني من هذه الأعراض. أخبرنا برسياني أن الدكتور سوزا ليما أبدى اهتماماً بالعوارض المبكرة للاضطرابات العصبية عند الأطفال في المستعمرة.

- ذهبنا إلى القسم المخصص للأصحاء في المستعمرة حيث يعيش قرابة 70 شخصاً. يفتقر المكان لأسباب الراحة الأساسية التي من المفترض أن تكون توفرت مثل الكهرباء خلال النهار ووجود ثلاجة وحتى مختبر. هم بحاجة ماسة إلى مجهر جيد ومايكروتوم[1] وتقني – المنصب تشغله الآن الأم مارجاريتا، لطيفة لكنها ليست واسعة الاطلاع – وهم بحاجة إلى جراح لإجراء عمليات الأعصاب والعيون.. الخ. المثير للاهتمام أنه علاوة على مشاكل الأعصاب واسعة الانتشار، هناك عدد قليل من فاقدي البصر، مما قد يقود إلى استخلاص [كلمة مطلسمة] أن هناك أمراً وراء ذلك وقد رأينا أن الأغلبية لا تتلقى علاجاً.

أعدنا دوراتنا يوم الأربعاء، وقضينا اليوم بين صيد السمك والسباحة. قمت بلعبة شطرنج مع الدكتور برسياني في الليل، أو تبادلنا الحديث مع الدكتور ألفارو، طبيب الأسنان، وهو شخص رائع هادئ ودود. يوم الخميس يوم راحة في المستعمرة لذا غيرنا أسلوبنا المعهود فلم نزر المجمع. حاولنا صيد السمك دون نجاح في الصباح. لعبنا كرة القدم بعد الظهر وكان أدائي في حراسة المرمى أقل فظاعة. عدت يوم الجمعة إلى المجمع، لكن ألبيرتو بقي لعمل تحليلات مجهرية للبكتيريا بصحبة تلك الراهبة اللطيفة، الأم مارجاريتا. صدت نوعين من سمك "سومبي" يدعى "موتا" وأعطيت واحدة منها إلى الدكتور مونتويا ليستمتع بها.

---

(1) Microtome : جهاز مجهري لأخذ حزعة من نسيج عضوي لاختبارها – المترجم.

يوم القديس جيفارا

يوم السبت الموافق 14 يونيو/ حزيران 1952 أصبح عمري، وأنا مجرد صبي، 24 سنة في طرف ذلك الربع المتسامي من القرن، يوبيل العرس لحياة ذلك الذي، مع أخذ كل شيء بعين الاعتبار، لم يعاملني بشكل سيء. ذهبت في الصباح الباكر إلى النهر لأحاول حظي مع السمك، لكن هذه الرياضة مثل المقامرة: يبدأ المرء رابحاً وينتهي خاسرا، بعد الظهر لعبنا كرة القدم وحافظت على مكاني المعتاد في المرمى مع تحقيق نتائج أفضل من المناسبات السابقة. في المساء بعد المرور ببيت الدكتور برسياني لتناول وجبة شهية فاخرة، أقاموا حفلة على شرفنا في حجرة الطعام في المستعمرة مع كثير من شراب بيرو الوطني، بسكو. كان ألبيرتو خبيرا في تأثيره على نقطة الأعصاب المركزية. والكل ثمل إلى حد ما ونشوان، رفع مدير المستعمرة كأسه لشرب نخب بحرارة على شرفنا وأجبت وقد أسكرني البسكو بشيء محكم كالتالي:

حسناً، من واجبي أن أجيب على نخب الدكتور برسياني بشيء أكثر من مجرد إيماءة تقليدية. في حالتنا الراهنة المحفوفة بالمخاطر كرحالين، نلتمس العون من الكلمات فقط وأود الآن بأن استخدمها للتعبير عن امتناني وشكر رفيقي في الرحلة لجميع العاملين في المستعمرة الذين دون معرفة مسبقة بنا، قدموا هذا القدر الجميل من عواطفهم للاحتفال بعيد ميلادي كما لو كان احتفاءً حميماً بعيد واحد منكم. لكن هناك شيئا أكثر من ذلك. بعد أيام سنغادر أراضي بيرو، لذا فإن لهذه الكلمات غاية ثانوية وهي وداعكم، وأود أن أؤكد على امتناني لكل شعب هذه البلاد الذين أظهروا لنا كل أريحية دافئة منذ أن وطأت أقدامنا أرض بيرو عبر تاكنا.

كما أود أن أقول شيئاً آخر لا علاقة له بموضوع هذا النخب. بالرغم من عدم أهميتنا يعني أننا لا نقدر أن نكون متحدثين باسم مثل هذه القضية النبيلة نعتقد وبعد هذه الرحلة أكثر من أي وقت مضى أن تقسيم أمريكا اللاتينية إلى أمم غير مستقرة ووهمية هو خيالي تماماً. نحن نشكل عرقاً هجيناً واحداً يحمل من المكسيك إلى مضايق ماجيلان خواص اثنوغرافية فذة متشابهة. وعليه، في محاولة لتخليص نفسي من ثقل الإقليمية ضيقة التفكير، اقترح شرب نخب بيرو وفي سبيل أمريكا لاتينية متحدة.

قوبلت خطبتي بتصفيق حاد. استمرت الحفلة المكونة في هذه المناطق من احتساء كحول قدر المستطاع، حتى الثالثة صباحاً.

صباح الأحد زرنا قبيلة الياجوا، هنود القش الأحمر. بعد مسيرة 30 دقيقة في درب ينفي كل شائعات حول أدغال كثيفة لا تخترق وصلنا مجموعة من الأكواخ حيث تعيش عائلة. كان نمط حياتهم مدهشاً – يعيشون في الخارج تحت ألواح خشبية وأكواخ سعف النخيل السحري الصغير ليحميهم في الليل من البعوض الذي يهاجم في أسراب عن مقربة. تخلت النساء عن الملابس التقليدية وارتدين الملابس العادية كانت بطون الأطفال منتفخة هزيلة غير أن علامات نقص الفيتامينات لم تبد على الكبار، على نقيض معدلها بين الناس الأكثر تطوراً ممن يعيشون في الأدغال. يتكون طعامهم من نبات اليكّة والموز وثمار النخيل ممزوجة مع الحيوانات التي يصطادونها بالبنادق. أسنانهم تالفة تماماً. يتكلمون لهجتهم الخاصة وإن كان بعضهم يفهم الإسبانية.

لعبنا بعد الظهر كرة القدم وبالرغم من أدائي كان أفضل استطاعوا تسجيل هدف علي بالتسلل. أيقظني ألبيرتو تلك الليلة لمعاناته من ألم حاد في المعدة، الذي استقر لاحقاً في تجويف العظم الحرقفي. كنت في غاية التعب لأنشغل بالآلام الغريبة لشخص آخر، لذا نصحته بالتكيف مع الألم والالتفاف إلى الجهة الأخرى فنام حتى اليوم التالي.

الاثنين، يوم توزيع الدواء في المجمع. كان ألبيرتو، الذي أولته الأم العزيزة مارجاريتا عناية فائقة، يأخذ البنسلين أربع مرات في اليوم بشكل دقيق للغاية. أخبرني الدكتور برسياني أنه في انتظار وصول طوافة فيها بعض الحيوانات ويمكننا أخذ بعض ألواح الخشب لصنع طوافة صغيرة خاصة بنا. استحوذت الفكرة علينا فشرعنا في التخطيط للذهاب إلى ماناوس.. الخ. التهب قدمي فلم أشارك في مباراة بعد الظهر، عوض ذلك تجاذبت أطراف الحديث مع الدكتور برسياني حول كل شيء يمكن تخيله، فنمت في وقت متأخر.

صباح الثلاثاء، وقد شفي ألبيرتو تماماً، ذهبنا إلى المجمع حيث أجرى الدكتور مونتويا عملية في عظم الزند في جهاز جذام عصبي بنتائج يبدو أنها رائعة، وإن لم تترك التقنية كثيراً لأن يتمناه المرء. ذهبنا لصيد السمك بعد الظهر في بحيرة ضحلة قريبة ولم ننجح في صيد شيء طبعاً، لكن في طريق عودتي صممت على السباحة عبر الأمازون. استغرقني ذلك قرابة ساعتين مما أصاب الدكتور مونتويا، غير الراغب في الانتظار أطول، باليأس. كانت هناك حفلة مرح صغيرة تلك الليلة، انتهت بمعركة حدية مع السيد لزاما بيلتران، شخص انطوائي غير ناضج لعله منحرف أيضاً. كان الرجل المسكين ثملا سريع الغضب لأنه لم يدعَ إلى الحفلة، لذا شرع في الصراخ بالشتائم والهذيان حتى لطمه شخص على عينه وأوسعه ضرباً أيضاً. أزعجتنا الحادثة قليلاً لأن الرجل المسكين، بعيداً عن كونه شاذاً جنسياً ومملا من الطراز الأول، كان في غاية اللطف معنا وقدم 10 سوليس لكل منا، ما رفع حصيلتنا النهائية إلى 479 لي و163.5 لألبيرتو.

بزغ فجر يوم الأربعاء ماطراً، لذا لم نذهب إلى المجمع وضاع اليوم عموماً دون طائل. قرأت قليلاً من جارسيا لوركا، ثم ذهبنا لرؤية الطوافة المربوطة إلى حاجز الماء. صباح يوم الخميس، يوم إجازة العاملين في المستشفى، ذهبنا مع الدكتور مونتويا إلى الضفة الأخرى لشراء

الطعام، أبحرنا في أحد روافد الأمازون واشترينا البابايا، اليكّة، الذرة، السمك وقصب السكر بأسعار زهيدة لا تصدق، واصطدنا قليلاً من السمك. اصطاد مونتويا سمكة عادية وأنا سمكة موتا. هبت في طريق العودة ريح قوية هاجت بفعلها مياه النهر وبلل الربان، روجر الفاريز، سرواله تقريباً حين تسربت الأمواج إلى زورقه الخفيف الطويل. طلبت تسيير الدفة لكنه رفض إعطاءها لي. ذهبنا إلى الضفة في انتظار هدوء النهر. لم نعد حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر. طهينا السمك لكنه لم يسد رمقنا، أعطى روجر كل منا قميصاً وأنا سروالاً لذا تحسنت حالتي الروحية.

كانت الطوافة معدة إلى حد ما وبحاجة إلى مجاديف فقط أمام جمع من مرضى المستعمرة قاموا بتقديم حفل غنائي لوداعنا ضم كثيراً من الأغاني المحلية شدا بها رجل كفيف. تكونت الفرقة الموسيقية من عازف فلوت وعازف قيثار وعازف أكورديون دون أصابع تقريباً، وصادف وجود عازف معاق ساعد في عزف السيكسفون والقيثار وبعض آلات النقر. بعد ذلك جاء وقت إلقاء الخطب حيث تكلم أربعة من المرضى قدر استطاعتهم، على نحو أخرق نوعاً ما. تجمد واحد منهم ولم يستطع المتابعة حتى صرخ أخيراً من يأسه "مرحى، مرحى، مرحى للأطباء" بعد ذلك قام ألبيرتو بشكرهم بحرارة على حسن استقبالهم قائلا إن جمال بيرو الطبيعي لا يمكن مقارنته بالجمال العاطفي لهذه اللحظة، وأنه تأثر عميقا ولا يملك سوى القول.. وهنا مد ذراعيه على طريقة إيماءة وتنغيم بيرون "أود أن أقدم شكري لكم جميعاً".

المرضى وعلى صوت لحن شعبي هامت الشحنة البشرية بعيداً عن الضفة. منح الضوء الواهن لقناديلهم الناس هيئة شجية. ذهبنا إلى بيت الدكتور برسياني لتناول الشراب وبعد الحديث لفترة ذهبنا إلى الفراش للنوم.

الجمعة كان يوم مغادرتنا، لذا ودعنا المرضى في الصباح وبعد التقاط بعض الصور، عادوا ومعهم ثمرتان من الأناناس، هدية من الدكتور مونتويا. أخذنا حماماً وتناولنا الطعام وقرابة الثالثة بعد الظهر بدأنا في وداعهم. في الثالثة والنصف انطلقت الطوافة بنا - التي أطلق عليها اسم مامبو - تانغو في النهر حاملة بحارين، نحن، وكذلك لبرهة قصيرة الدكتور برسياني وألفارو وشافيز اللذان قاما ببناء الطوافة.

أخذونا إلى منتصف النهر وتركونا نناضل لدرء الخطر عن أنفسنا.

ظهور أولي لكونتيكي الصغير

بعوضتان أو ثلاثة وحدها لا تقدر على هزيمة رغبتي في النوم التي هزمتها في غضون دقائق. كان ظفري مع ذلك واهياً في ضوء صوت ألبيرتو الذي هزني من حالتي الانتقالية اللذيذة. أضواء خافتة لبلدة صغيرة، التي لابد أنها ليتيسيا حكماً من منظرها، يمكن رؤيتها على الضفة اليسرى من النهر. ما تبع كان مهمة شاقة من تحريك الطوافة صوب الأضواء، وفي هذه واجهتنا كارثة: رفضت الطوافة العجيبة الذهاب إلى أي مكان قرب الضفة، صممت العنيدة على شق مجراها الخالص وسط النهر. جدفنا بكامل قوتنا، وعندما بدا أننا بالتأكيد نسلك دربنا، درنا بنصف دورة وانطلقنا عائدين إلى منتصف النهر. شاهدنا بيأس متنام الأضواء تهيم في البعيد.

تعبين، قررنا وقد أضنانا التعب أن بإمكاننا ربح المعركة ضد البعوض على الأقل والنوم بسلام حتى الفجر، ثم اتخاذ قرار بما علينا عمله. لم تكن الاحتمالات التي أمامنا واعدة. إذا داومنا على الانسياب

في النهر علينا الذهاب إلى ماناوس، مسافة بعيدة وفق معلومات ثقة إلى حد ما، عشرة أيام من الإبحار. لم تكن عندنا أي صنانير صيد سمك بسبب حادث جرى قبل يوم، ولا كمية كبيرة من المؤونة الضرورية، ولم نكن متأكدين من إمكانية رسونا على الضفة عندما نريد ذلك، دون ذكر حقيقة أننا دخلنا البرازيل دون الإجراءات الورقية ولم نكن نتكلم لغة البلاد. غير أن هذه الهموم لم تقلقنا مدة طويلة لأننا نمنا في غفوة عميقة بسرعة. أيقظتني الشمس الساطعة وزحفت من تحت شبكة البعوض لمعرفة موقعنا في أسوأ الأحوال وضعت كونتيكي الصغيرة نفسها على الضفة اليمنى من النهر، وتنتظرنا بهدوء في حاجز أمواج صغير لطيف يخفي منزلاً قريباً. قررت إرجاء كشف الأشياء حتى وقت لاحق لأن البعوض ما زال في مدى القرص ويستمتع بوليمته. كان ألبيرتو يغط في النوم لذا فكرت بالالتحاق به وعمل الشيء نفسه. غلبني تعب رهيب وإنهاك غير مريح. شعرت بعدم قدرتي على اتخاذ أي قرار سوى التعلق بفكرة أنه مهما ساءت الأمور، ليس هناك من سبب يدعو لافتراض أننا لا نستطيع التعامل معها

أمي العزيزة

بوغوتا، كولومبيا

6 يونيو/ حزيران 1952

أمي العزيزة،

هاأنا، أخذني ترحالي إلى بعد كيلومترات من فنزويلا وأفقرني بضع سوليس. أملاً، اسمحي لي أن أتمنى لك عيد ميلاد مهماً، أتمنى أن تكوني

قد قضيته بحب وضحك مع العائلة. بعد ذلك، سأكون منظماً وأقدم لك سرداً موجزاً عن مغامراتي منذ أن تركنا إيكيتوس. سرنا إلى حد ما وفق الخطة وسافرنا ليلتين مع حاشية البعوض الموالي ووصلنا إلى مستعمرة سان بابلو في الفجر حيث حصلنا على مكان نتزل فيه. أحبنا المدير الطبي، رجل رائع، في الحال وانسجمنا عموماً مع كل من في المستعمرة، باستثناء الراهبات اللاتي سألن لماذا لا نذهب أبدا إلى القداس في الكنيسة. تدير الراهبات هذا المكان ومن لا يحضر القداس تقل حصته في الطعام (لم يقدم الطعام لنا، لكن الأطفال ساعدونا ووجدوا لنا طعاما كل يوم). ما عدا هذه الحرب الباردة الصغيرة، كانت الحياة سارة بشكل لا يصدق. يوم 14 يونيو، أقاموا لي حفلة شربت فيها بسكوو كثيرا، وهو نوع من الجن يسكر بروعة. شرب مدير المستعمرة نخباً على شرفنا، وأجبت ملهماً بالشراب بخطبة تدعو جوهرياً لوحدة أمريكا اللاتينية، قوبلت بتصفيق حاد من الجمهور الفذ، والثمل الفذ. مكثنا هناك أطول مما خططنا، لكن أخيراً غادرنا إلى كولومبيا. في الليلة الأخيرة جاءت مجموعة من المرضى من المستعمرة في زورق طويل ضخم وغنوا لنا أغاني وداع على حاجز الأمواج وقدموا خطباً مؤثرة جداً. ألقى البيرتو، الذي يعتقد أنه خليفة بيرون الطبيعي، خطبة مؤثرة ديماغوجية أثارت نوبة ضحك بين متمنين الخير لنا. كانت تلك واحدة من أكثر التجارب المثيرة للاهتمام في رحلتنا. عازف أكورديون بلا أصابع في يده اليمنى ويضع مكانها عيداناً قصيرة مربوطة إلى رصغه، مغني كفيف وكل الآخرين تقريباً كانوا مشوهين بشكل مرعب لأن الشكل العصبي للمرض كان شائعاً في المنطقة. مع ضوء القناديل والفوانيس المنعكس على النهر. كان كمنظر مأخوذ من فيلم رعب، المكان جميل محاط بالأدغال من كل الجوانب، وقبائل مُحلية بالكاد تبعد ميلاً من هناك (زرناهم بالطبع) وكثير من السمك واللحوم وثروة كامنة لا تحصى، كل هذا جعلنا نحلم بقطع ماتو غروسو عبر النهر، من براجواي إلى الأمازون، نمارس الطب أثناء الرحيل وهلم جرا.. يشبه الحلم حصولك

على بيت خاص بل .. ربما يوماً.. شعرنا كأننا مكتشفون حقيقيون وأبحرنا في النهر على متن طواقة فاخرة عملت خصيصاً لنا. مر اليوم الأول بسلاسة، لكن تلك الليلة عوض أن نبقى يقظين للمراقبة، كما ينبغي أن نفعل، نمنا نوماً عميقاً، محمياً براحة بواسطة شبكة بعوض أعطيت لنا، واستيقظنا في الصباح التالي لنجد أننا جنحنا إلى ضفة النهر.

التهمنا الطعام كسمك القرش. مر ذاك اليوم بسرور، قررنا التناوب في المراقبة كل ساعة لتجنب أي مشاكل أخرى، حيث أن التيار حملنا في السحر إلى الضفة وأجبرت إلى حد ما بعض الأغصان نصف المغمورة بالماء الطوافة على الانقلاب. ربحت نقطة شائنة أثناء مراقبتي، حين سقطت إحدى الدجاجات اللاتي أخذناهن للغذاء في النهر وجرفها النهر بعيداً. الرجل الذي قطع عرض النهر كله في سان بابلو لم يملك من الشجاعة ما يكفي للغطس في النهر بعد ذلك، جزئياً لمشاهدتنا التماسيح تصعد للسطح بين حين وآخر، من جهة أخرى لأنني لم أتغلب قط فعلاً على خشيتي من الماء في الليل. لو كنت هناك لسحبت الدجاجة وأنقذتها وكذلك قد تفعل آنا ماريا، حيث أنك لا تعانين من عقد ليلية سخيفة مثلي.

اصطادت إحدى صناراتنا أضخم سمكة اصطدناها ولقد عانينا كثيراً من سحبها إلى الطوافة. داومنا على المراقبة حتى الصباح حين رست بنا الطوافة على الضفة ثم انسللنا تحت شبكة البعوض حيث كان هناك بعوض ضار. بعد نوم جيد اكتشف ألبيرتو، الذي يفضل السمك على الدجاج، أن صنارتين قد ضاعتا في الليل ما وضعه في حالة نفسية سيئة. ولما كان هناك بيت في الجوار، قررنا معرفة كم تبعد لتيسيا من هناك. عندما أخبرنا صاحب البيت بلغة برتغالية رسمية أن لتيسيا تبعد مسافة سبع ساعات من الإبحار في النهر وأننا الآن في البرازيل، نشب نقاش حاد بيني وبين ألبيرتو كيف نمنا ولم نراقب ما جرى.

لكن هذا لم يفض بنا إلى نتيجة. أعطينا السمكة لصاحب البيت وحبة أناناس تزن قرابة أربعة كيلوغرامات قدمها لنا المصابون بالجذام وقضينا الليلة في بيته قبل أن يأخذنا في النهر في طريق العودة التي كانت سريعة، لكنها صعبة إذ توجب علينا التجديف بقوة سبع ساعات على الأقل في زورق لم نكن معتادين عليه. وجدنا مكاناً وطعاماً.. الخ في مركز الشرطة في لتيسيا، غير أننا لم نستطع الحصول على خصم أكثر من 50% ثمن بطاقات السفر، مما فرض علينا دفع 130 بيسوس كولومبي و15 أخرى أجرة الحقائب الزائدة ما مجموعه 1500 بيسوس أرجنتيني. لكن ما أنقذ اليوم الطلب منا تدريب فريق كرة قدم ونحن في انتظار الطائرة التي تأتي كل أسبوعين مرة. في البدء أردنا أن ندربهم ليصلوا إلى نقطة لا تجعلهم يبدون أغبياء، لكنهم كانوا من السوء لدرجة أننا قررنا اللعب معهم أيضاً. كانت النتيجة المدهشة أن ما يعتبر أضعف فريق دخل البطولة التي تجري في يوم واحد وقد أعيد تنظيمه تماماً، ووصل إلى النهائي قبل أن يخسر في ضربات الجزاء الترجيحية فقط. بدا ألبيرتو مثل بيدرنيرا[1] إلى حد ما في تمريراته، لذا أطلق عليه الاسم المستعار بيدرنيرا، ولقد نجحت في صد ضربة جزاء ما سيدخل في تاريخ لتيسيا. كان للاحتفال أن يكون عظيماً لو لم يعزفوا النشيد الوطني الكولومبي في النهاية ولم أنحن لمسح بعض الدم المنساب من ركبتي خلال ذلك، ما أدى إلى رد فعل عنيف من الكولونيل الذي صرخ بي. كنت على وشك الصراخ مجيباً عندما تذكرت رحلتنا .. الخ فعضضت لساني. بعد الطيران العظيم في طائرة متأرجحة وصلنا بوغوتا. تجاذب ألبيرتو أطراف الحديث مع المسافرين في الطريق سارداً لهم رحلة مرعبة عبرنا فيها المحيط الأطلسي مرة لحضور مؤتمر دولي حول الجذام في باريس، وكيف تعطلت ثلاثة أو أربعة من محركات الطائرة وكنا على وشك السقوط في المحيط في غضون دقائق وختم بقوله "صدقاً، طائرات دوغلاس هذه ..."

([1]) لاعب كرة أرجنتيني

كان مقنعاً حتى أني شعرت بالخوف. شعرنا أننا درنا حول العالم مرتين. مر يومنا الأول في باغوتا جيداً، وجدنا طعاماً في حرم الجامعة لكن دون مأوى لأنها مليئة بالطلاب المبعوثين لأخذ دورات دراسية تنظمها الأمم المتحدة. لا أرجنتيني بينهم بالطبع. بعد الساعة الواحدة صباحاً وجدنا أخيراً مكاناً في المستشفى، وبذلك أعني كرسياً لقضاء الليلة عليه. لسنا فقيرين بائسين، بل مكتشفين لهما تاريخ ومنزلة رفيعة ونفضل الموت على دفع أجرة نزل برجوازي مريح. بعد ذلك استضافتنا وحدة خدمات الجذام، وإن نظروا إلينا بشك في اليوم الأول بسبب رسالة التوصية التي نحملها من بيرو – رسالة مديح لكنها موقعة من قبل الدكتور بيسي، الذي يلعب في نفس مركز لوستو[1]. وضع ألبيرتو شهادات مختلفة أمامهم ولم يملكوا الوقت لاسترداد أنفاسهم قبل أن أحاصرهم بالسؤال عن حساسيتي، فتركتهم يصابون بالدوار. والنتيجة؟ قدمت وظائف لكلينا. لم تكن عندي نية للقبول لكن ألبيرتو، ولأسباب بديهية، أخذ ذلك في عين الاعتبار. كنت أستخدم مدية روبيتو لرسم شيء على أرض الشارع. بناء عليه تشاجرنا مع رجال الشرطة الذين أزعجونا جداً وعوض أن يقيم ألبيرتو، قررنا المغادرة معا إلى فنزويلا على وجه السرعة. لذا في الوقت الذي تصلك فيه هذه الرسالة سأكون على أهبة الاستعداد للمغادرة. إذا أردت المحاولة، اكتبي إلى كوكوتا، سانتندير ديل نورتي، كولومبيا، أو بسرعة إلى باغوتا. غداً سأذهب لمشاهدة ميلليوناريوس يلعب ضد ريال مدريد في أرخص موقع في الملعب حيث الوصول إلى مواطنينا أصعب من الوصول إلى الوزراء. يوجد قمع للحرية الفردية هنا أكثر من أي بلد زرناه. تسير الشرطة في دوريات في الشوارع تحمل البنادق وتطلب أوراقك كل بضع دقائق، ويمسكون بها مقلوبة رأساً على عقب. الجو متوتر ويبدو أن ثورة تعتمل. الريف في تمرد مفتوح والجيش عاجز عن إخماده. يتحارب المحافظون في ما بينهم ولا يقدرون على

---

[1] لاعب كرة ارجنتيني

التوصل إلى اتفاق وذكرى 9 إبريل/نيسان 1948[أ] ما زالت تلقي بثقلها على تفكير الجميع. باختصار، الجو خانق هنا. إذا أراد الكولومبيون احتمال ذلك، حظاً سعيداً لهم، لكننا مغادرون بأسرع وقت ممكن. من الواضح أن الفرصة قد سنحت لألبيرتو للحصول على عمل في كاراكاس.

أتمنى أن يكتب شخص لي بضع سطور ليخبرني عن حالك. لا ينبغي عليك تجميع معلومات عبر بيتريز أو أي وسيط آخر في هذا الوقت (لا أجيبها لأننا نقتصر على رسالة واحدة من كل مدينة، ولهذا فإن البطاقة التي أرسلتها إلى ألفرديتو جابيلا كانت ضمن الرسالة).

ضمة كبيرة من ابنك الذي يفتقدك من الرأس حتى أخمص القدمين. أتمنى أن يستطيع الرجل العجوز الذهاب إلى فنزويلا، مستوى المعيشة مرتفع أكثر هنا، لكن الرواتب أفضل وهذا يناسب خسيساً مثله (!). بالمناسبة إذا بقي بعد العيش هنا إلى حين فسوف يبقى محباً للعم سام... لكن دعينا لا نخرج عن الموضوع، بإمكان أبي القراءة بين السطور. وداعاً.

في الطريق إلى كاراكاس

بعد الأسئلة غير الضرورية التي لا مفر منها، وتقليب جوازي سفرنا بخشونة، ونظرات الاستجواب والشك التي يستحقها ضابط شرطة، ختم المسؤول جوازينا بتاريخ مغادرة كبير 14 يوليو/تموز، وانطلقنا على الأقدام عبر الجسر الموحد والمفرق للبلدين. جندي

(أ) حين قتل السياسي الليبرالي المتطرف جورجيه اليسير غايتان

فترويللي، بالغطرسة المهينة نفسها لنظرائه الكولومبيين – ميزة عامة بين كل العسكريين، كما يبدو فتش حقائبنا ثم استغل الفرصة لإخضاعنا إلى استجوابه الشخصي، كي يرينا أننا نتكلم مع شخص يملك "سلطة". أوقفونا فترة طويلة في سان أنتونيو دي تاتشيرا، لكن لمجرد إجراءات إدارية، ثم داومنا رحلتنا في عربة كبيرة مغلقة وعدت بأخذنا إلى مدينة سان كريستوبل. كان في منتصف الطريق مركز جمارك تحملنا فيه تفتيش دقيق لكل حقائبنا وشخصينا. عادت المدية الشهيرة التي سببت لنا مشاكل جمة في بوغوتا، كفكرة مهيمنة لنقاش طويل مع رئيس الشرطة. أدرنا هذا النقاش بسلاسة أتقناها عبر التعامل مع أناس بمثل هذه الثقافة العالية. حافظنا على المسدس لأنه كان داخل جيب جاكيتي الجلدي في حزمة نتانتها أرعبت ضباط الجمارك. كانت المدية، التي استعدناها بجهد، سبباً جديداً للقلق لأن مراكز الجمارك منتشرة على طول الطريق إلى كاراكاس، ولم نكن متأكدين من أن نجد عقولاً قادرة على تحليل الأسباب الأولية التي قدمناها لهم. الطريق التي تربط البلدتين الحدوديتين مبلطة بشكل مثالي، خاصة على الجانب الفترويللي، وذكرتني بالمناطق الجبلية المحيطة بقرطبة. عموماً، تبدو هذه البلاد أغنى من كولومبيا.

عند الوصول إلى سان كريستوبال، نشب عراك بين أصحاب شركة النقل وبيننا، من يريد السفر بأكثر طريقة اقتصادية ممكنة. للمرة الأولى في رحلتنا فرضيتهم الخاصة بفوائد السفر يومين بالعربة المقفلة عوض ثلاثة أيام في الحافلة ربحت. في توقنا لحل مستقبلنا القريب والعثور على معالجة جيدة لربوي، قررنا المغادرة بدفع 20 بوليفاري إضافية، مضحين بها على شرف كاراكاس. شغلنا أنفسنا حتى المساء، متجولين في الأحياء المجاورة والقراءة قليلاً عن البلد في مكتبة جيدة نوعاً ما كانت هناك.

في الحادية عشرة ليلاً، انطلقنا إلى الشمال مخلفين وراءنا كل آثار الشوارع المعبدة. في مقعد ينحشر فيه ثلاثة أشخاص جلس أربعتنا، لذا

لم تكن هناك فرصة للنوم. الأسوأ أن عجلة مثقوبة ضيعت علينا ساعة وكان الربو ما زال يزعجني. مرتقين القمة بضجر، أصبحت الخضرة أكثر ندرة، وإن كان بالإمكان رؤية أنواع المحاصيل نفسها في الوديان كما في كولومبيا. كانت الطرق في حالة يرثى لها وتسبب عديداً من الثقوب في العجلات في اليوم الثاني من السفر. كانت هناك نقط شرطة تفتيش العربات بدقة على طول الطريق، وكان يمكن أن نجد أنفسنا في ورطة لو لم تكن مع مسافرة رسالة توصية – ادعى السائق أن الحقائب لها، فأنجزت المهمة. ازداد ثمن الوجبة وأصبح بوليفار للشخص الواحد ثلاثة ونصف. قررنا التوفير بقدر الإمكان. لذا صمنا عند موقف بونتا ديل أجويلا، لكن السائق أشفق على عوزنا وقدم لنا وجبة جيدة على حسابه. بونتا ديل أجويلا أعلى نقطة في جبال أنديز فنزويللا، إذ تصل إلى 4108 متر فوق سطح البحر. أخذت آخر حبتين من الدواء معي جعلتا ليلتي تمر على خير. في الفجر توقف السائق لينام ساعة. كان قد مر على قيادته الحافلة يومين دون توقف. توقعنا الوصول إلى كاراكاس تلك الليلة لكن عجلاً مثقوباً أخرنا ثانية، كما أن خطأ في الأسلاك أيضاً عنى أن البطارية لا تشحن فتوقفنا لإصلاحها أيضاً. أصبح الطقس مدارياً وكان هناك بعوض عدواني وموز من كل صوب. كانت المرحلة الأخيرة، التي غفوت خلالها في محاولة للتعامل مع هجمة ربو محترمة، مسفلتة بشكل جيد وبدت جميلة (كان الظلام قد حل). حين وصلنا مقصدنا كانت السماء مضيئة. كنت في غاية التعاسة. سقطت في فراش استأجرناه مقابل نصف بوليفار ونمت مثل نمر بمساعدة حقنة أدرينالين قوية أعطاها لي ألبيرتو.

أسوأ هجمات الربو مرت الآن وأشعر الآن بصحة جيدة إلى حد ما، وإن ألجأ أحياناً إلى ما اكتسبته حديثاً، منشاق فرنسي. أشعر بغياب ألبيرتو بقوة. يبدو جانبي دون حراسة ضد هجمة مفترضة. ألتف بين لحظة وأخرى لأتبادل ملاحظة معه لأجد فقط أنه ليس هناك.

صحيح ليس هناك ما يستدعي الشكوى: العناية بي كاملة، طعام جيد متوفر بكثرة، وأتوقع العودة للبلاد والدراسة ثانية والحصول على شهادة تؤهلني لمزاولة الطب. مع ذلك فكرة الإنفصال إلى الأبد لا تسعدني، كل تلك الشهور التي قضيناها معا جنباً إلى جنب في السراء والضراء، والتعود على رؤية الأحلام نفسها في مواضع مماثلة، قربتنا كثيراً من بعضنا. وجدت نفسي، وهذه الأسئلة تدور دوماً في فكري، أهيم بعيداً عن مركز كاراكاس. بيوت الضواحي متباعدة عن بعضها بعضاً. تمتد كاراكاس على طول الوادي الضيق، الذي يغلق عليها ويقيدها في تخومه، حتى أنك في مشوار صغير ترتقي إلى التلال المحيطة هناك، والمدينة المتقدمة مبسوطة تحت قدمي، تبدأ رؤية وجه جديد من وجوه زينتها المتعددة. رأى السود، تلك النماذج العظيمة للعرق الإفريقي المحافظ على نقائه بفضل عدم صلته بالاستحمام، أراضيهم تغزى من قبل نوع جديد من العبيد: البرتغاليين. وبدأ العرقان القديمان الآن حياة قاسية معا، مليئة بالخصام والشجار. وحَّدَهما التمييز والفقر في الصراع اليومي للبقاء، لكن أنماط نظرتهما للحياة فرقت بينهما تماماً: السود كسالى وحالمون، ينفقون راتبهم الضئيل على الأعمال الطائشة والشراب. للأوروبي تقاليد في العمل والتوفير لاحقته حتى هذا الركن من أمريكا وتقوده إلى الرقي بنفسه، حتى باستقلالية عن طموحاته الفردية الخاصة.

في ذلك الارتفاع تختفي بيوت الإسمنت تماماً وتهيمن بيوت الطين فقط. أمعنت النظر في واحدة منها. حجرة نصف مفصولة بقاطع، مدفأة حائط ومنضدة وكومة من القش على الأرض، ربما تستخدم كفراش. عدد من القطط الهزيلة والكلاب الجرباء تلعب مع أطفال سود عراة. صاعد من النار، دخان لاذع يملأ الحجرة. الأم السوداء، شعر مجعد وصدر مدلى، تطبخ بمساعدة فتاة مكسية في الخامسة عشرة. تحدثنا على باب الكوخ وبعد برهة سألت إن كان بالإمكان أن يقفوا لالتقاط صورة لهم، لكنهم رفضوا تماماً فعل ذلك إلا إذا أعطيتها لهم في الحال. حاولت دون طائل التفسير لهم أن عليَّ تحميضها أولاً، كلا، يريدونها آنذاك وهناك. أخيراً، وعدتهم تقديمها لهم في الحال، غير أنهم الآن شكوا ولم يريدوا التعاون. هرب أحد الأطفال ليلعب مع أصدقائه بينما داومت الحديث مع العائلة. في النهاية وقفت حارساً على الباب وآلة التصوير في يدي، متظاهراً أني أصور كل من يخرج رأسه. لهونا قليلاً هكذا برهة حتى رأيت الصبي الصغير يعود مبتهجاً فوق دراجة هوائية جديدة، ركزت الكاميرا وضغطت على زر التصوير لكن النتيجة كانت مأساوية. ليتملص من التصوير، انحرف الصبي وسقط أرضاً منخرطاً في البكاء. في الحال تخلوا عن خشيتهم من الكاميرا واندفعوا لقذفي بالشتائم. انسحبت نوعاً ما خشية من شر مرتقب لأنهم رماة حجارة ممتازون، وشتائم المجموعة تلاحقني – بما في ذلك أقصى إهانة :"برتغالي".

تتبعثر على طول الطريق حاويات عربات نقل يستخدمها البرتغاليون بيوتاً سكنية. يمكنني أن ألمح في واحدة من تلك، حيث تعيش عائلة سوداء، ثلاجة جديدة وتصدح في كثير منها موسيقى تبثها أجهزة المذياع بأقصى الأصوات ارتفاعاً. عربات جديدة تقف خارج أكثر "البيوت" بؤساً. تمر من فوق الرؤوس كل أنواع الطائرات تبذر الجو بالضوضاء والانعكاسات الفضية، بينما على قدمي تستلقي كاراكاس، مدينة الربيع الخالد، التي تمدد مركزها أسطح الآجر الأحمر الغازية المجتمعة وأسطح البنايات الحديثة. غير أن شيئاً آخر يسمح للون الأصفر

في بناياتها الاستعمارية بالبقاء، حتى بعد زوالها من خرائط المدينة: روح كاراكاس المنغلقة على نمط حياة الشمال تمد جذورها بعناد في أحوال ماضيها الاستعماري المتقهقر شبه الريفي.

ملاحظة في الهامش

خطت النجوم ضوءاً في سماء ليل تلك القرية الجبلية الصغيرة، وبدد الصمت والبرد العتمة بعيدا. كان - لا أدري كيف أفسر ذلك – كما لو أن كل شيء صلب قد ذاب في الأثير، ويقصي كل فردية ويتشربنا بصرامة. لا سحابة في العتمة الهائلة تعير منظوراً إلى الفضاء ليحجز أي جزء من السماء المليئة بالنجوم. على بعد أقل من بضعة أمتار فقد نور قنديل خافت قوته ليخبو في الظلام.

كان وجه الرجل غير واضح في الظلال، يمكنني رؤية ما بدا مثل بريق عينيه ووميض أسنانه الأربعة الأمامية فقط.

ما زلت غير قادر على القول إن كان الجو أو شخصية ذلك الفرد ما أعدني إلى البوح، لكني أعرف من حالاتٍ عديدة وسمعت من ناس مختلفين المناقشات نفسها التي لم تترك قط فيَّ أي انطباع. كان محاورنا في الواقع شخصية مثيرة للاهتمام. هرب من بلد في أوروبا من سكين الديماغوجية في شبابه حيث عرف طعم الخوف (إحدى التجارب القليلة التي تعطي حياتك قيمة) وجال بعد ذلك من بلد إلى آخر، جامعاً آلاف المغامرات حتى انتهى وعظامه في هذه المنطقة المنعزلة، منتظراً بصبر وصول لحظة الحساب العظيمة.

بعد تبادل بضع كلمات عديمة المعنى وتفاهات، وكل منا يحدد منطقته، راح النقاش في التداعي وكل منا على وشك السير في سبيله، أطلق ضحكة مزاجية طفولية ملقياً الضوء الساطع على أسنانه الأربعة الأمامية غير المتناسقة "المستقبل ملك الشعب، وتدريجياً أو بضربة واحدة سيستولون على السلطة هنا وفي كل البلاد الأخرى. الشيء المرعب أن الشعب بحاجة إلى التعليم، وهذا ليس في متناول أيديهم قبل الاستيلاء على السلطة، يمكن بعدها فقط. يمكنهم التعلم على حساب أخطائهم فقط، ما سيكون جدياً ويكلف حياة أبرياء عدة. أو ربما لا، ربما حياة هؤلاء لن تكون بريئة لأنهم اقترفوا الخطيئة الكبرى ضد الطبيعة، بمعنى عدم القدرة على التأقلم. كل هؤلاء، غير القادرين على التأقلم – أنت وأنا على سبيل المثال – سنموت ونحن نلعن السلطة التي عاضدوها عبر التضحيات العظيمة لخلق جديد. الثورة غير شخصية، ستأخذ أرواحهم وتستفيد حتى من ذكراهم كمثال أو أداة لترويض الشباب الذين يتبعونهم. خطيئتي جسيمة لأني أكثر دهاء وأوسع خبرة، سمها ما شئت، سأموت وأنا على علم أن تضحيتي تنبع فقط من المرونة التي ترمز إلى حضارتنا الفاسدة المنهارة. كما أعلم – وهذا لن يغير مجرى التاريخ أو نظرتك لي – أنك ستموت وقبضتك مطبقة وفكك متوتر، صورة مصغرة للكره والنضال، لأنك لست رمزاً (مثالا يفتقر للحياة) بل عضواً أصيلاً في مجتمع سيدمر روح قفير النحل ويتكلم عبر فمك ويحرض أفعالك. أنت مفيد مثلي، لكنك لست مدركاً كم مفيد إسهامك في المجتمع الذي يضحي بك."

رأيت أسنانه، ابتسامته العريضة التي يتنبأ بها ما سيجلبه التاريخ، شعرت بمصافحته ومثل تمتمة بعيدة كان وداعه الرسمي. باغتني الليل المنطوي على كلماته ثانية، لفني في ثناياه. لكن بالرغم من كلماته علمت الآن ... علمت أنه حين تشق الروح الهادية العظيمة الإنسانية إلى شطرين متصارعين، سأكون إلى جانب الشعب. أعلم هذا، أراه مطبوعاً في سماء الليل، وأنا، المدعي الاصطفائي للمذهب والمحلل النفسي للعقيدة،

الذي يعوي كشخص مسكون، سأهاجم المتاريس أو الخنادق، وسأحمل سلاحي الملطخ بالدم، سأذبح، أنا الذاوي في السخط، أي عدو يقع بين يدي. أرى، كما لو أن تعباً هائلاً يكبح هذا الشعور غير السوي بالقوة. أرى نفسي قرباناً في الثورة الحقيقية، المعادل العظيم لإرادة الأفراد، المقر باقتراف أفدح الأخطاء سابقاً. أشعر أن أنفي يتسع ليستنشق الرائحة اللاذعة للبارود والدم وموت العدو. أفعم جسدي بعزم فولاذي، و أعد نفسي للمعركة لتكون فضاءً مقدساً يستطيع من خلاله العواء الوحشي لانتصار البروليتاريا أن يدوي بطاقة جديدة وأمل جديد.

الصور



تشي جيفارا والجبارة الثانية، 1951

فجأة برز السؤال منساباً كما لو كان جزءاً من تخيلاتنا:

"لم لا نذهب إلى أمريكا الشمالية؟"

"أمريكا الشمالية؟ لكن كيف؟"

"على متن الجبارة، يا رجل"



إرنستو جيفارا وألبيرتو جرانادو

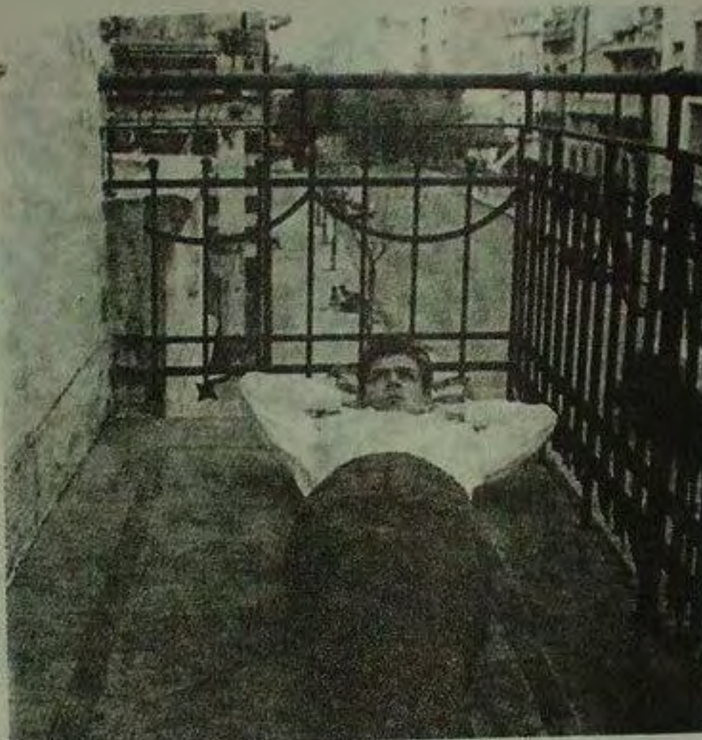
"كانت مهمتي الرئيسة قبل المغادرة أن أُمتحن في أكبر عدد ممكن من المواد، وعلى ألبيرتو تحضير الدراجة للرحلة الطويلة، ودراسة وتخطيط دربنا."



صورة ذاتية، تصوير إرنستو جيفارا، في الأرجنتين، 1951



إرنستو جيفارا وصديق في بيونس أيرس، الأرجنتين، 1951



ارنستو جيفارا في بيونس أيرس، الأرجنتين 1951



ألبيرتو جرانادو (الأمام على اليسار) إرنستو جيفارا (وسط
بقبعة) وأصدقاء مع الجبارة الثانية، 1951 عندما شرع
إرنستو وألبيرتو في مغامرتهما.



ألبيرتو جرانادو في محاولة لتسلق أنديز الأرجنتين، قرب سان مارتين دو لوس أنديز. تصوير إرنستو جيفارا، يناير/كانون الثاني 1952.

"بعد دقائق من تبادل النكات في رقع الثلج التي تتوج القمة، انهمكنا في مهمة الهبوط... فقد ألبيرتو نظارته الجاحظة وأصبح سروالي أسمالاً بالية."



ألبيرتو جرانادو على متن "مودستا فيكتوريا" مبحراً إلى تشيلي. تصوير إرنستو جيفارا من لاجو ناهويل هوبي، فبراير/شباط 1952.

" أنارت شمس معتدلة اليوم الجديد، يوم مغادرتنا، وداعنا أرض الأرجنتين. لم يكن حمل الدراجة إلى موديستا فيكتوريا مهمة يسيرة، لكننا نجحنا أخيراً في تحقيق ذلك بقليل من الصبر."



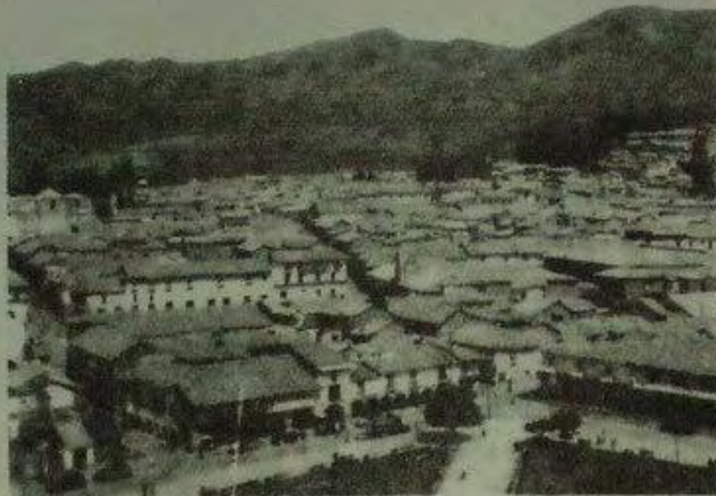
ألبيرتو جرانادو (وسط) مع صديقين من قرطبة، أثناء تسلق سانتا لوسيا في تشيلي، تصوير إرنستو جيفارا، مارس/آذار 1952.

"صعدنا في اليوم التالي إلى سانتا لوسيا، كتلة صخرية في وسط المدينة لها تاريخها الخاص. كنا نقوم بمهمة تصوير المدينة بسلام عندما وصل موكب سوكويا..."



على الطريق من تاراتا إلى بونو، بيرو (إرنستو الثالث من اليسار) تصوير ألبيرتو جرانادو، 25 مارس/آذار 1952.

" لابد أن هيئتنا المدهشة ونحن نشرب المتة الغريبة قد بدا مثيراً لاهتمام الهنود كما ملابسهم التقليدية بالنسبة لنا، إذ لم تمر لحظة دون أن يقترب أحدهم ليسأل بإسبانية ركيكة لماذا نصب الماء على ذلك الشيء غير المطبوخ جيداً."



منظر كوزكو من حصن ساسكاهومن. تصوير ألبيرتو أو إرنستو، إبريل/نيسان 1952.

"عالياً فوق المدينة يمكن رؤية كوزكو أخرى، تحل مكان الحصن المدمر: كوزكو ذات الأسطح القرميدية الملونة... وحين تترامى المدينة تكشف لنا عن شوارعها الضيقة فقط وسكانها بملابسهم التقليدية، كل أطياف اللون المحلية."



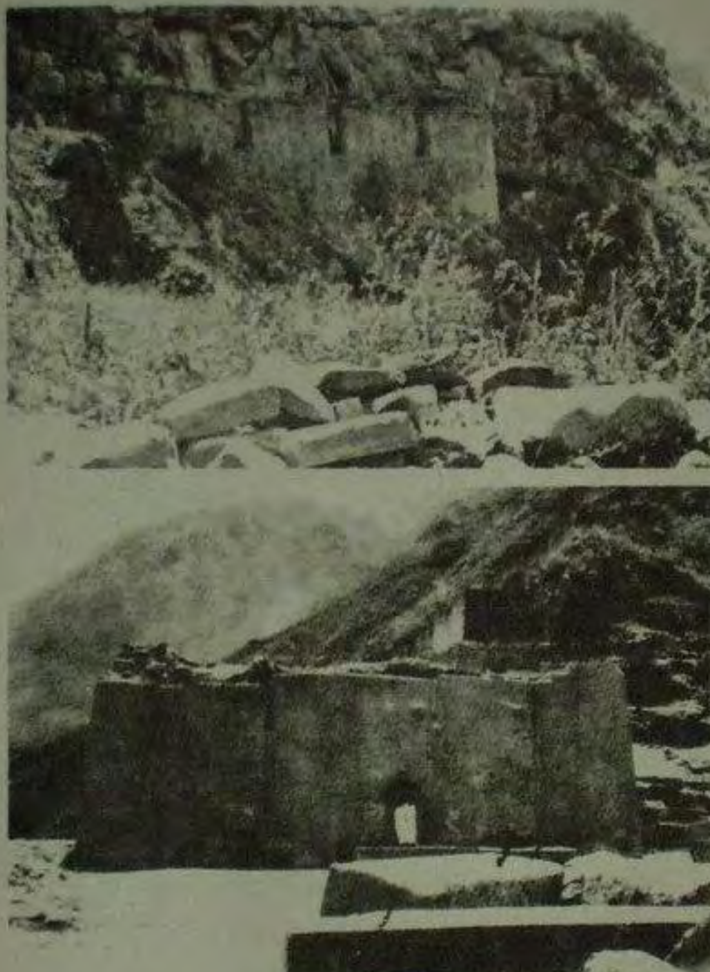
صورة تفصيلية لكنيسة سانتو دومينغو القائمة فوق أطلال "معبد الشمس". تصوير ألبيرتو أو إرنستو. إبريل/نيسان 1952.

"سويت معابد أنتي بالأرض حتى أساسها أو أن جدرانها شيدت للارتقاء بكنائس الدين الجديد: بنيت الكاتدرائية فوق بقايا القصر العظيم وأقيمت فوق جدران "معبد الشمس" كنيسة سانتو دومينغو، لتكون درساً وعقاباً فرضه الغازي المختال."



بيساك، قرية في أنديز بيرو. تصوير ألبيرتو أو إرنستو.
إبريل/نيسان 1952.

"بعد أن شقينا طريقنا ببطء ومشقة طوال ساعتين في درب وعر، وصلنا ذروة بيساك، كما وصلت أيضاً، وإن كان قبل وقت طويل سيوف الجنود الإسبان محطمة المدافعين عن بيساك ودفعاتها وحتى معابدها."



حصن أوليانتاتيامبو. تصوير إرنستو جيفارا. إبريل/نيسان 1952.

"متتبعين مسلك فيلكانو مروراً ببعض المواقع غير المهمة نسبياً، وصلنا أوليانتاتيامبو، حصن شاسع حيث قام [الأنكا] مونكو الثاني بحمل السلاح ضد الإسبان مقاوماً قوات هيرناندو بيزارو ومؤسساً سلالة الأنكا الرابعة."



ماكتشو بيشو وهانيابيشو. تصوير ألبيرتو أو إرنستو. 5 إبريل/نيسان 1952.

"مع ذلك أهم شيء ولا يقبل الجدل أننا وجدنا هنا التعبير المحض لأقوى عرق أصيل في الأمريكيتين – جنس ما زال نقياً دون اتصال بالحضارة الغازية ومتخم بكنوز عظيمة مثيرة للشجن... يوفر المنظر الطبيعي الخلاب المحيط بالحصن ستارة خلفية حيوية، تلهم الحالمين بالتجوال في أطلاله لمجرد فعل ذلك."



كاتدرائية ماريا أنغولا. تصوير ألبيرتو أو إرنستو.
إبريل/نيسان 1952.

"دفعت حكومة الجنرال فرانكو (الإسبانية) تكاليف ترميم أبراج نواقيس الكاتدرائية التي هدمتها هزة أرضية عام 1950، وكإيماءة عرفان صدرت أوامر للفرقة الموسيقية بعزف النشيد الوطني الإسباني... لا يمكنني الجزم إن حدث ذلك بحسن أو سوء نية، إذ أن الفرقة عزفت [عوض ذلك] النشيد الجمهوري الإسباني."



كاتدرائية كوزكو. تصوير ألبيرتو أو إرنستو.

إبريل/نيسان 1952.

"يعكس بريق داخلها اللامع ماضٍ عريق... لا يتحلى الذهب ببهاء الفضة اللطيف الذي يصبح مع مرور الأيام أكثر سحراً، وهكذا تبدو الكاتدرائية مزينة كامرأة عجوز تضع مساحيق تجميل بإفراط. ثمة براعة فنية من طرف الهنود أو الحرفيين المهجنين المهرة. لقد غرسوا في مشاهد حياة القديسين المنحوتة خشب الأرز مع روح شعوب الأنديز الحقيقيين المبهمة."



ألبيرتو جرانادو (الثاني من اليسار) مع الأخوة كامبالاتشي في بوكالبا، بيرو. تصوير إرنستو جيفارا. مايو/أيار 1952.

"غادرنا بسرعة في الصباح التالي قبل أن تستيقظ المرأة التي تملك المحل، لأننا لم ندفع الفاتورة ولم يملك الأخوان كامبا مالاً بسبب تصليح محور العجلة."



ألبيرتو جرانادو يصطاد السمك مع موظفين من مستعمرة جذام سان بابلو. تصوير إرنستو جيفارا. يونيو/حزيران 1952.

"يوم الخميس يوم راحة في المستعمرة، لذا غيرنا أسلوبنا المعهود فلم نزر المجمع. حاولنا صيد السمك دون نجاح في الصباح. لعبنا كرة القدم بعد الظهر وكان أدائي في حراسة المرمى أقل فظاعة."



قبيلة من هنود ياجو مع ألبيرتو جرانادو (يحمل الطفل) والدكتور بريسياني (على اليسار) ومدير مستعمرة جذام سان بابلو. تصوير إرنستو جيفارا. يونيو/حزيران 1952.

" صباح الأحد زرنا قبيلة من الياجو، هنود القش الأحمر...
كان نمط حياتهم مدهشاً – يعيشون في الخارج تحت ألواح
خشبية وأكواخ سعف النخيل السحري الصفير ليحميهم في الليل
من البعوض الذي يهاجم في أسراب عن مقربة."



رجل هندي مع ألبيرتو جرانادو (يسار) والدكتور بريسياني.
تصوير إرنستو جيفارا. يونيو/حزيران 1952.

" كانت بطون الأطفال منتفخة هزيلة ، غير أن علامات نقص الفيتامينات لم تبد على الكبار ، على نقيض معدلها بين الناس الأكثر تطوراً ممن يعيشون في الأدغال. يتكون طعامهم من نبات اليكة والموز وثمار النخيل ممزوجة مع الحيوانات التي يصطادونها بالبنادق."



إرنستو جيفارا وألبيرتو جرانادو على متن مامبو- تانغو،
يونيو/ حزيران 1952.

"كانت الطوافة معدة إلى حد ما وبحاجة إلى مجاديف فقط. قام جمع من مرضى المستعمرة بتقديم حفل غنائي لوداعنا، ضم كثيراً من الأغاني المحلية شدا بها رجل كفيف. تكونت الفرقة الموسيقية من عازف فلوت وعازف قيثار وعازف أكورديون دون أصابع تقريباً، وصادف وجود عازف معافى ساعد في عزف السيكسفون والقيثار وبعض آلات النقر.



إرنستو جيفارا وألبيرتو جرانادو على متن مامبو- تانغو، ميحرين في نهر الأمازون، يونيو/ حزيران 1952.

"جدفنا بكامل قوتنا، وعندما بدا أننا بالتأكيد نسلك دربنا، درنا نصف دورة وانطلقنا عائدين إلى منتصف النهر. شاهدنا بيأس متنام الأضواء تهيم في البعيد. قررنا وقد أضنانا التعب أن بإمكاننا ربح المعركة ضد البعوض على الأقل، والنوم بسلام حتى الفجر."



جيفارا

المحتويات